وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

أنا والأصدقاء



شعر ونثر

سليمان العيسى

من الشعر العربي ١٩٠

أنا والأصدقاء

سليمان العيسى

أنـــا والأصدقاء

شعر ونثر

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة – دمشق ٢٠١٠

من الشعر العربي

«١٩٠»

مقدمة خاطفة

بقلم الدكتورة ملكة أبيض

من هم أصدقاء سليمان العيسى؟

إذا كان معظم الناس يستطيعون تحديد أصدقائهم فإن سليمان العيسى لا يستطيع ذلك ولا يريده.

إنه شاعر وحيثما وصل صوته كان له أصدقاء.

وقد طاف معظم أرجاء الوطن العربي، وألقى، واستمع، وكوّن صداقات لا حصر لها.

وهو شاعر أطفال! وكل طفل قرأ أناشيد الشاعر، وردّدها، وحفظها، أصبح صديقاً له مدى الحياة.

وهو مربٍّ! عمل مع الكثيرين، معلمين وطلاباً. وكل من عمل معه، وتبادل معه الرأي والخبرة كان له صديقاً.

أضف إلى ذلك صفاته الشخصية، ونزعته الإنسانية، ونضاله ضد الاحتلال، والاستعمار، والظلم والاستغلال، والفقر والحرمان، مما وسع دائرة صداقاته لتضم الأطفال، والشبان، والشعراء والأدباء، ورجال الفكر بعامة، والمناضلين، والمدافعين عن حقوق الإنسان، وأنصار العدل والتحرر والكلمة الجريئة المضيئة، داخل وطنه وخارجه.

أليس هو القائل في مطلع هذا الكتاب:

كنـــتُ للنـــاس وكـــان النـــاسُ لـــي
مُنْـــذ أَن رنَّـــتْ بعـــودي كلِمَـــةْ
فـــإذا مـــا أصـــدقائي حَـــضَروا..
صَـــدَح النـــورُ وضـــاءَتْ عَتَمَـــةْ

وإن أنسَ لا أنْسَ الجمهور الذي يحيط به حين يحضر في مكان عام من أجل إقامة أمسية شعرية، أو حفل تكريم، أو مشاركة في ندوة أو غير ذلك. هذا الجمهور كثيراً ما يسد عليه طريق الدخول والخروج، طالباً الحصول على صورة معه، أو توقيع، أو كتاب من كتبه. بل إن الآباء يحرصون على أن يصوروا أطفالهم معه لتبقى لهم ذكرى تضيء حياتهم.

ولا يمكنني أن أنسى أبداً عشرات الشابات اللواتي يؤكدن للشاعر أن أناشيده ما تزال معهن، ينشدنها في اجتماعاتهن ورحلاتهن. بل إنهن يهدهدن بها أطفالهن أثناء الإرضاع، والنوم، ويعلمنها لهم حين يصبحون قادرين على الحفظ.

وكيف أنسى الأناس الذين نصادفهم في مطعم، أو مقهى، فيأتون لتحيته، ويتمنون له الصحة وطول البقاء، أو يكتفون بالإيماء له من بعيد بالتحية والتمنيات.

ولا أنسى أيضاً أنني كلما التقيت إنساناً على الطريق.. أو في متجر ما وعرف أني زوجة الشاعر، فإنه يبادر إلى السؤال عن صحة الشاعر، ويرجوني أن أنقل له تحياته وتمنياته، بالرغم من أنني قد لا أعرف الأشخاص، أو أسماءهم.

هل نسميها «شعبية»؟

إنها «شعبية» صادقة بريئة. فسليمان لا يملك إلا حبه العميق لهؤلاء الناس، وكلمته الجميلة التي ينثرها للكبار والصغار.

على أن سليمان تغلب عليه العفوية، وينقصه الحرص فيما يتعلق بالرسائل والكتابات التي تبادلها مع من حوله. لذلك تراه يكتب كلمته، ويسلِّمها إلى زائره، أو محاوره، أو أحد الأشخاص الذين أعجب بمواقفهم أو بنتاجهم، دون أن يحتفظ بنسخة لديه، مما جعل الكثير مما كتبه، أو كتب إليه يفقد، أو يتوزع هنا وهناك دون أن يستطيع تحديد مكانه. ومنه: ديوانه الأول الذي كتبه بقلم من قصب، ورسائل أعز أصدقائه الشاعر بدر شاكر السياب وغيرها..

وبالرغم من ذلك بقي الكثير الذي حاولت أن أجمعه في هذا الكتاب.

وأود أن أشير إلى أني لم أستطع توزيع الكتاب إلى فترات زمنية بالرغم من أنه يمتد على أكثر من نصف قرن، لتداخل الفترات الزمنية بعضها مع بعض. على أن التواريخ المثبتة في نهاية معظم القصائد أو القطع النثرية تشير إلى المرحلة التي كُتبت فيها.

كما أني لم أحبذ توزيعه إلى موضوعين كبيرين: الأصدقاء الغائبين، والأصدقاء الحاضرين، لئلا يغلب عليه طابع الحزن والرثاء.

صحيح أن المراثي فيه كثيرة تشمل العديد من أصدقاء الطفولة والنضال وفيهم الشيخ صالح الغانم، ومسعود الغانم، وزكي الأرسوزي، وأدهم إسماعيل، وصدقي إسماعيل ويوسف شقرا، وأصدقاء الكلمة وفيهم إلياس أبو شبكة، وعمر أبو ريشة، وبدوي الجبل، ونزار قباني، وعبد السلام العجيلي، ومحمد الحريري... إلا أن الكتابات المتبادلة مع الحاضرين تعطي الكتاب

نكهة تبادل فكري، وتفاؤل بالمستقبل. فهي تثير قضية فلسطين وتحريرها، واللواء وعروبته، والمرأة ومكانتها، والأطفال... والوحدة... والتحرر... والفن... وغيره من الموضوعات التي تشغل الشاعر، باللغة الموسيقية البسيطة التي تتميز بها كتاباته.

أرجو لهذا العمل أن يلقي ضوءاً جديداً على أدب سليمان، ويكشف جانباً من إنتاجه ضاع في غمرة القصائد القومية وأناشيد الأطفال.

أ. د. ملكة أبيض

دمشق: 2010/9/17م

*   *   *

كنتُ للناس

كُنْتُ للناس..
وكانَ الناسُ لي

منذُ أَن رنَّتْ بِعودي كِلَمةْ

فإذا ما أَصدقائي حَضَروا
صَدَح النورُ..
وضاءَتْ عَتَمةْ..

2010

*   *   *

عتابٌ في مُنْتَصَف لَيل

وأنتَ..

أيها الوتر الذي يحمل رنينَه الأحمر

حيثما حلَّ.. وأينما رَحَل

ويحدثني عن الغربة والغرباء

والظلم والمظلومين..

لِمَ لا تحدثني قليلاً عن غربتكَ أنت؟

عن الظلم الذي حلَّ بك..

واقتلعكَ من مهدك؟

* * *

ألست واحداً من قافلة التشرد الأولى

على هذه الأرض

التي تسميها بإلحاح

أرضَ الآباء والأجداد؟

لِمَ تؤثر أن تبكيَ كل الرؤوس التي امتدت إليها

سكين الجلاد.. وتنسى رأسكَ الأخضر الجميل المقطوع؟

* * *

سمعتكَ غير مرة تقول:

لقد ذابَ الجرح الصغير في الجرح الكبير.

ولكن من يدري؟

ربما كان السرُّ كله يكمن في الجرح الصغير.

* * *

أعرفُ أنك واحدٌ من كلٍّ..

خليةٌ في جسد.. كما تُصِرُّ أن تقول.

وإنه لقولٌ عاقلٌ صحيح.. لا اعتراض لي عليه.

ولكنْ. أليس لطفولتك حقٌّ عليك؟

أليس لمهدكَ الأول الذي امتدت إليه يدُ السارقِ
في أولَيَاتِ الظلام الدامس، فاختلسته في غفلة
من الزمن، ثم طوت القصة، أو حاولت أن تطويها
إلى الأبد..

أليس له حصةٌ من رنين الوَتَر..

وشَهَقاتِه الحمر؟

* * *

أعرف أنكَ تمرُّ بمدارج الطفولة من حين إلى حين
تقفُ على أطلال البيت القديم

وتستظل برفيقتك العتيقة شجرة التوت..

أعرف أن عصافيرَ القرية..
وسقفَ القرميدِ الأحمر..
وذكرياتِ العاصي..
قد أعطتكَ عدداً من القصائد.
لا تنسَ أني أقرؤك..
ولكنها كانت قَطَرات..
قطرات لا تبلُّ ظمأ، ولا تنقع غُلَّة.

*   *   *

حدِّثني عن غربتكَ أنت..
عن مأساتكَ أنت..
عن مهدكَ الأول..
حدثني بالتفصيل.. لكَمْ يضيءُ التفصيل!
عن كل الغصصِ التي مررتَ بها
والآلام التي تجرعَتها..
لعلي استشفّ منها خيوطَ الكارثة
التي تشعَّبَتْ وامتدتْ في طول الوطن وعرضه،
لعلي ألمح فيها سر ما نلاقيه من ضَربَات،
ونتجرعه من شقاء حتى الآن.
ألم أقل لكَ منذ قليل:
ربما كان السرُّ يكمنُ في الجرح الصغير.

*   *   *

أيها الراحلُ الأول..

في قافلة العذاب الأولى

أيها الرأس الأخضر الجميل المقطوع!

هل طُوِيتِ القصة..

وضاع الأثر؟

تعرف جيداً أيَّةَ قصةٍ أعني؟

وأيَّ أثرٍ أريد؟

* * *

إن الظلم موجة من دخانٍ أسود

تحجبُ الأرض والسماءَ رَدحاً من الزمن

في غفلة من الزمن..

ولكني لا أعرفُ موجة دُخَانٍ

ألغتِ الأرض والسماء.

أليس هذا ما تعرفه أنت أيضاً؟

* * *

إذاً لِمَ لا تعودُ بي

إلى أوراقكَ الصغيرة الأولى؟

إنها ألصقُ شيء بك..

وأصدقُ شيء فيك..

حَدِّثني عنها..

تعالَ نفتَحْ كتابَ السَّمرَ
ونقرَأ قصة همومكَ الصغيرة
قصةَ طفولتك..

*   *   *

أنا والتاريخ..
أنا والشعر..
أنا والزمنُ العربيٌّ القادم..
بحاجة إلى أن نعرف شيئاً عنها وعنك..
بحاجةٍ إلى أن نعرف كل شيء.

أيلول 1982

*   *   *

الأرسوزي

أُلقيت في تأبين المناضل العربي الكبير الأستاذ زكي الأرسوزي، الذي استأثرت به المنون مساء الثاني من تموز 1968 بعد حياة فذة زاخرة بالكفاح والفكر والعطاء

مساء البارحة فارق الأرسوزي الحياة.
وصباح اليوم.. بدأ الأرسوزي الحياة..
هناك أُناس ينطفئون..
تنتهي حياتهم على حافة القبر..
وأُناس يختتمون الرحلة القصيرة، رحلة العمر
على حافة قبر.. ليتوهجوا عبر التاريخ.
ليبدأوا رحلة الخلود..
ليولدوا من جديد..
على حافة القبر..
سيرة تشتعل في كل خاطر
وفكرة تتسع، تمتد في كل مكان..
حتى تملأ الزمن..

حتى تصبح هي الزمن.. هي الحياة

* * *

مساء البارحة.. انتقل الأرسوزي إلى جوار ربه، إلى الملأ الأعلى الذي طالما تحدث عنه، واستقى منه، وجعله مصدر الأمة العربية التي آمن بها، والرسالة العربية التي عاش من أجلها..

وزكي الأرسوزي.. حتى الأمس القريب.. أستاذ، ومناضل، وطليعة.. ولكنه منذ اليوم.. حديث جيل.. وقصة وطن.. وملحمة قضية.

صباح اليوم.. ودعناه نحن طلابه ومحبيه، ودعناه بالدمعة.. إلى مقره الأخير..

وصباح اليوم.. راح كل منا نحن الذين تتلمذنا عليه وأحببناه.. كل منا يبحث في أعماقه عن الأستاذ.. عن المعلم.. عن الفكرة التي هزت أعماق الجيل.. وأيقظت عنفوان الماضي وروعته.. عبر قرون الذل والانحلال..

كان كل منا يبحث في أعماقه عن زكي الأرسوزي..

* * *

أما أنا.. يا أُستاذ!

أليس هذا هو اللقب الذي آثرك به تلاميذك خلال نصف قرن؟ أما أنا.. تلميذك، وشاعرك الصغير.. فقد كنت أطير، بمثل رفة الحلم، إلى الماضي البعيد، وأنا أقف على ضريحك.

* * *

شريط من دمع ودم

مر في خاطري كالبرق..

وأنا على ضريحك..

ورأيتني أعود إلى طريق القناطر في أنطاكية..

مدينتك الخالدة..

إلى شارع رحب غمرته أشجار الصفصاف العملاقة من جانبيه ومدت فوقه ظلالها الوادعة، سخية رائعة..

كان تلميذك الشاعر طفلاً.

قد أتى من القرية يطلب النور في مدرسة المدينة، ويحمل أول ديوان له، كتبه تحت شجرة التوت، أمام الدار، في قريته المعزولة عن النور، المحرومة من الحياة.

وفي طريق القناطر.. تحت ظل الصفصافة العملاقة.. التقيت بك أول مرة.. قدمني إليك تلميذ من تلامذتك. وأقسم أني أكاد الآن، بعد كل هذه الأعوام، ألمس يدك الرقيقة الحانية تربت على كتفي، وأحس الابتسامة العذبة التي لمعت في عينيك.. وأسمع صدى الكلمة الحلوة المشجعة، التي قلتها لي، يرن في أذني حتى الآن:

- أنت شاعر.. من القرية؟

ستلقي لنا اليوم قصيدة قومية.. في نادي العروبة.. أليس كذلك؟

فعندنا مساء اليوم اجتماع حاشد؟ وسأقدمك بنفسي إلى الجمهور..

* * *

وقدمتني إلى الجمهور..

وألقى الطفل الشاعر أول قصيدة له في جمهور حاشد.. ونسيت الأبيات.. وماتت الكلمات عبر الأعوام.. ولكن حرارة يدك، وأنت تشدني إلى المنبر، ما تزال تهزني حتى اللحظة.. وتُلهمني.. وتردني عن صخور اليأس القاتل بدفقة من أمل.. وإشراقة من ثقة.. ورعشة من حياة وعنفوان..

* * *

وتتالت أحاديثك إلينا.. وامتدت ثورتك في اللواء إلى كل بيت. وكنا نحن جيلك المؤمن الصغير الذي زرعت الأمة العربية في قلبه، وفي عينيه، على ضفاف العاصي، في أنطاكية.. مدينتك العربية الخالدة.

* * *

واغتيلت الثورة..

واغتُصِب فردوسكَ الأخضر..

وأحاطت بك كل قوى البغي والظلام..

فإذا أنت مع جيلك المؤمن الصغير شريد في الشام.. تحاول بكل ما استطعت من قوة أن تواصل الكفاح، وأن تفتح هذه المرة باب الخلاص، خلاص الأُمة العربية، على مصراعيه.. مهما كلف الثمن.. وطال الزمن.. ومهما غلا العطاء.

* * *

وكنا حولك.. قبضة من الرفاق.. في زاوية من زوايا حي «السبكي» بدمشق، الأم العربية الكبيرة.. مدينة الفتح والأمجاد.. والعطر والظلال.. دمشق.. التي أحببتها بكل قلبك.. وأعطيتها كل قلبك.

* * *

كنا حولك.. نتحدى الفقر والبؤس بشعارك الجديد الذي أطلقته: العرب أُمَّة واحدة والوطن العربي وطن واحد وإلى الجحيم.. كل هذه الحواجز والسدود والتجزئة والحدود.. إلى الجحيم.. انحلال قرون وتخلف قرون.. وشقاء قرون.. لابد أن تولد أمتنا العربية من جديد[١].. لابد أن تكون لنا دولتنا الكبرى.. مهما كلف الثمن.. وطال الزمن.. ومهما غلا العطاء..

* * *

(١) من جديد: خطأ شاع على أقلامنا صوابه: مرة أخرى.

وهكذا.. من أعماق البؤس والفقر واليأس انطلق موكبك الأول.. موكب الوحدة، موكب البعث، موكب الحياة.. وراح حواريوك الصغار.. جيلك المؤمن البائس.. يردد معك على لسان شاعرك الصغير:

يـــا موكـــبَ النـــورِ.. مـــن آلام أُمتنـــا
ودمعهـــا، ودماهـــا، وهـــي تقـــتحمُ
رافقـــتُ دربـــكَ طفـــلاً، والهـــوى لَهَـــب
والـــدربُ فـــي كـــل خطـــوٍ شـــوكةٌ، ودمُ
رافقـــتُ دربـــك، لـــم نخطـــئْ رســـالتنا
يوماً، ولـــم نجتـــرح فـــي العهـــد مـــا يَـــصِمُ
مـــا زلـــتُ أذكرهـــا فـــي الـــشام قافلـــةً
مـــن الجيـــاع، ومـــا زال الـــصغارُ هُـــمُ
ناموا علـــى الأرضِ أرضِ الـــشعب فامتزجـــت
بلحمهـــم ثـــورةٌ فـــي الـــشعب تحتـــدمُ
وعـــضَّنا الجـــوع، فاقْتَتَـــا ببـــسمتنا
وهـــدَّنا البـــردُ، لـــم تَـــرْعَشْ بنـــا قَـــدَمُ
هـــذي الـــصخور.. ســـلكناها علـــى ثقـــة
أَنَّـــا عليهـــا - ولـــم ننـــدم - ســـننحطمُ(١)

---

(١) الأبيات من قصيدة «يا موكب النور». انظر شعر سليمان العيسى - المجموعة الكاملة - المجلد الأول ص315.

ويمتد الشريط أمام عيني، شريط الماضي الخصب الأليم، وأنا على ضريحك، صباح اليوم يا أُستاذ.. وتمر كالبرق قصة أُمة حملتها بين جنبيك، وملحمة قضية نذرتَ لها حياتك، وحكاية رسالة بريئة كالطفولة... عميقة كالمحيط.. صادقة كالبؤس.. عنيفة كالقدر.. وهبتها كل ما ملكت.

وترعرعت الشجرة التي غرستها بيديك.. واستطالت فروع.. وعلقت بها فروع.. وتعددت أغصان.. وييبس غصن هنا.. وسقط غصن هناك.. وبقيت أنت يا أستاذ.. بقي زكي الأرسوزي.. الجذع الكبير الذي يضم الفروع، ويجمع الأغصان، ويلم الأوراق المتناثرة مهما لعبت بها الرياح.. بقيت أنت المنارة التي تهدي.. والطريق الذي عليه نسير.. إذا شاء القدر لهذا الجيل أن يسير.

* * *

مـــن شـــاعرك الـــصغيـر..
طفـــل القريـــة بـــالأمس..
لك دمعة.. أسفحها علـى ذكـراك..
وتحيـــة.. أقبـــل بهـــا ثـــراك...
وعهد أن نظل على عهـدك أُمنـاء..
ولرسالتك.. أوفياء.

* * *

رَدَّدتُ صَوتكَ

إلى روح أستاذي الشيخ صالح الغانم

رَدَّدْتُ صــــوتَكَ فانتفَـــضْتُ إِبـــاءَ
وأعــدْتُ ذكــركَ فانتــشيتُ ضـــياءَ
يا غارسَ الأجيــالِ كيــفَ حَرمْتَهــا
عنـــد الـــوداع تحيــــةً، ولقــــاءَ؟
هــذي طلائعُنـــا، ألــم تَنْــسُجْ لهــا
كفَّــاكَ خـــيطَ صـــباحِها الوضَّـــاءَ؟
ســـتون داميـــةُ الكفـــاح حَملْتَهـــا
ألمـــاً، ودأبـــاً صـــامتاً، وعنـــاءَ
قَطَّـــرتَ قلبـــكَ شُـــعْلةً جبَّـــارةً
وهـــدَمْتَ عُمْـــرَكَ ثـــورةً وبِنـــاءَ
وبعَثْـــتَ جـــيلاً للنـــضالِ يُريـــدها
حريَّـــــةً عربيَّـــــةً حمـــــراءَ
أَتُـــشيِّعُ الـــدنيا.. وحيـــداً نائيـــاً[١]
كـــي نلتقـــي بـــكَ دمعـــةً ورثـــاءَ؟

---

(١) استأثرت المنون بالفقيد الكبير وهو يؤدي فريضة الحج في الديار المقدسة.

ما ضَرَّ لـــو أرســلْتَ آخِــرَ نظــرة
فسريتَ فـــي كــل الــصدور نِــداءَ!
وهزَزْتَ أعطافَ الــشبابِ رُجولـــةً
وخفَقْـــتَ فـــوق الثـــائرينَ لِـــواءَ
أنتَ الــذي علَّمــت قافلــةَ العُلَــى
أن الطريـــقَ دِمـــاً تَجـــرُّ دِمـــاءَ

*   *   *

يا غارسَ الأجيال.. تَــسْقيها هُــدىً
حينـــاً، وحينـــاً عَزْمـــةً ومَـــضاءَ
أيغيبُ مثلُــكَ عــن صــباح ناضــرٍ
للبعــث، تَــشْرَبُه القلــوبُ ظِمــاءَ!
كذَبَ الردى.. ستَظَلُّ رَجْعــاً خالــداً
تَرْويـــه مَلْحَمـــةُ النـــضال حُـــدَاءَ
أنـــا لا أزالُ أراكَ هِـــزَّةَ صـــارمٍ
ووميـــضَ بـــرقٍ يَحْـــشُدُ الأنـــواءَ
لبَّيْـــكَ.. صـــيحتُكَ التـــي أطلقتَهـــا
نـــذَر الـــشبابُ لهـــا الحيـــاةَ فـــداءَ
تـــتجهَّمُ الـــدنيا بوجـــهِ نـــضالِنا
فنلُـــفُّ قانيـــةَ الجِـــراحِ رِداءَ
وعلى خطاكَ.. نشقُّ أمواجَ الــدجى
حتـــى نـــرد «قيودنـــا» أشْـــلاءَ

*   *   *

حسبي أبا الأشـبال زفـرةُ شـاعر

حَرَّى يموجُ بهـا الأسـى أصـداءَ

أَوَ تـسمعُ النجـوى إذا رقرقتُهـا

مخـضوبةً بجراحنـا سـمحاءَ؟

أرأيتَ مَهْدَ الـوحي يَغْمُـره الـسنا

ويغَـصُّ أرضـاً بـالعُلَى وسـماءَ؟

أرأيتَ فوق ثَـرى الحجـازِ محمـداً

يَبْنِـي الوجـودَ بُطُولـةً وإخـاءَ؟

أرأيتَ صـحراءَ الجزيـرةِ تنحنـي

شَـفَةُ الخلـودِ لِتلـثُمَ الـصحراءَ؟

أشهِدْت عِزَّتَنـا، ورَوْعـةَ مجـدِنا

وتُراثَنـا، وبنودَنـا الخـضراءَ؟

هيهاتَ! روعاتُ الفتـوحِ وزَهْوُهـا

طُرِحَتْ على قَدَمِ «الـدخيل» وِطـاءَ

* * *

عَفْواً أبا الأشْبالِ إن زحَـمَ الأسـى

صدري، فزمجـرَ لوعـةً خرسـاءَ

أنا من بنيكَ الثـائرين علـى الأذَى

والظلـم يخـضِبُ حولنـا الأجـواءَ

أنا من بنيك النـاقمين علـى الأُلـى

تَخِـذوا الـدماء تجـارةً وثَـراءَ

ذُبِحَتْ علـــى شَـــهَواتهم وصَـــغَارِهمْ

أرضُ الجـــدود فريـــسةً عَـــزْلاءَ

خَلِّ «اللواءَ» فـــإنهم لـــن يَخْجَلـــوا

أن يجعلوا كـــلَّ الـــبلادِ «لـــواءَ»[1]

مَهْلاً.. ففي الـــوَطَن الـــشهيدِ بقيـــةٌ

تحيـــا بطـــرفِ الخـــائنين قَـــذاءَ

في اللاذقيـــة صـــرخةٌ مـــن ركبنـــا

أضْـــحَى يَلُـــفُّ برَجْعِهـــا البيـــداءَ

وعلى جفون الشام صـــحوةُ وثبـــةٍ

راحـــتْ تَهُـــزُّ بنورهـــا الـــزوراءَ

فاهْدَأ على نُعْمَـــى الخلـــودِ وأَمْنِـــه

لـــن نَنْثَنـــي عـــن عهـــدنا أَحْيـــاءَ

حلب: 1951

(١) لواء الإسكندرون، وطن الشاعر ووطن أستاذه المرثي.

رسـالـة

إلى صديقي الدكتور وهيب الغانم أسير تدمر

أَأَغْنَتْــــكَ عـــن ليلنـــــا تَــــدْمُرُ
وروَّى المُنَـــــى أُفْقُهـــا الأسْـــمَرُ؟
وهَزَّتْــــكَ دنيـــا مـــن الـــذكريات
تَبيـــدُ علـــى شــطِّها الأعْـــصُرُ
ولاحــت لعينيــك بنْــتُ الخلــود[1]
بنـــا، وبمـــا حَوْلَنـــا، تَــسْخَرُ
ولفَّــكَ حُلْــمٌ، خــضيبُ الجنـــاح
بأشــــلاء آلامنـــــا يَعْثُـــــرُ
فطــرْتَ إلـــى أَمْــسنا، والخلــودُ
أكاليـــلُ مـــن أَمْـــسنا تُــضْفَرُ
وأَطبقْــتَ جفنَيْــكَ فـــي نـــشوة
على الحُلْـم مــن ومــضة يُــسْكِرُ
نـــسيتَ الرفـــاقَ، فلـــم تلتفـــتْ
وكأســـكَ مـــا بَرحَـــتْ تَـــذْكُرُ

(١) زينب ملكة تدمر.

يُـــصفَّقُ - باســـمِكَ - سَلْـــسالُها

ويـــــسْأَلُ عنــــكَ، ويستفــــسِرُ

لهــا الخُلْــدُ كأســاً تُريــقُ النعــيمَ

ويَنْبَــــعُ مـــن قلبهـــا الكـــوثرُ!

لهــا الخلــدُ! كــم لامَــستْ جَلْمَــداً

فأوشـــكَ يَنْـــدَى، ويَخْـــضَوضِرُ

تلَفَّــــتْ إلينـــا نُغنِّـــي الـــصِّبا

ونَصْهَرُ فــي اللحــنِ مــا نَــصْهَرُ

عِتـــابٌ يوشـــوِشُ فـــي بيتنـــا

طويــــلٌ إذا مـــا التَقَـــى الـــسُمَّرُ

وضــــجَّتْ ببعـــضِهمُ القهقهـــاتُ

وتـــــابعَ بعـــــضُهُمُ يَهْـــــذِرُ

ورقــــرقَ أبياتَـــــه شـــــاعرٌ

وفجَّــــرَ أنغامَـــــه «مِزْهَـــــرُ»

أَمَاسِــــيُّنَا لاتُطِيــــقُ الظَّمـــــا

وعَرْبَــــدةُ الـــصَّحْبِ لا تُهْجَـــرُ

ونحـــنُ الأُلـــى ضَــحِكوا للــشقاءِ

وســـاروا ولَـــيلُهُم أغْبَـــرُ

ومَرُّوا علـــى الـــشوكِ لـــم يَنْحَنـــوا

وناموا على الجُــوعِ، لــم يزْفِــروا

وروَّاهُـــــمُ مَطْمَـــــحٌ رائـــــعٌ

وغـــــذَّاهُمُ هَــــدَفٌ أكبَــــرُ

وما العُمْــرُ؟ إن لــم يكُــنْ ســاعةً

بــأروعِ مــا فــي المنــى تَزْخَــرُ

*   *   *

أتــسأَلُني عــن رفــاقِ الهــوى؟

ذَرِ الــسجنَ عــن أمــرِهم يُخْبِــرُ

لقــــد صــــفَعَ المَجْــــدُ جَــــلاَّده

ولــم يُرْهِــبِ الأعــزلَ الخَنْجَــرُ

لقــد هتفــوا: نحــن أهــلُ الــبلاد

كمــا يهتــفُ العاصــفُ الــصَّرْصَرُ

فحامــــتْ علــــى رأســـنا مُدْيــــةٌ

وزمجَـــرَ كـــالوحشِ مـــستعمِرُ

ونمنــا علــى هَمَــساتِ الحديــد،

علــى الــسوطِ مــن لحمنــا يَثْــأَرُ

دعِ المــوجَ يــزأَرُ حتــى يُجَــنَّ

فلــن يقِــفَ الــزورقُ المُبْحِــرُ

*   *   *

تَلَفَّــــتْ فـــشبَّابتي ثَـــورةٌ

بــأَعْنف مــا فــي الهــوى تَهْــدرُ

تكـــادُ تُغنِّـــي بِـــلا عـــازفٍ
وبـــالهمسِ فـــي خـــاطري تـــشعرُ
وعَـــرِّجْ علينـــا فمعـــنٌ[1] حيـــاةٌ
علـــى جانِبيْـــكَ غَـــداً تَطْفُـــرُ
ويلقَـــاكَ، يـــا سِـــحْرَها بَـــسْمَةً
تَخبَّـــأَ فيهـــا الغـــدُ الأَنْـــضَرُ
ويـــسقيكَ كـــأسَ أبيـــهِ الـــدِّهاقَ
بآمالِنـــا أبـــداً تَعْمُـــرُ
ويُنْـــشِدُكَ الحـــبَّ فـــي لَثْغَـــةٍ
تُقِـــرُّ معـــي أنَّهـــا تَـــسْحَرُ
ومَعْـــنٌ رفيـــفُ الـــصباحِ الجميـــلِ
بعاصـــفةٍ فـــي الـــضُّحَى يُنْـــذِرُ
أرى فيـــه جيـــلَ الحيـــاةِ الوليـــدَ
وغَرْســـةَ أحلامنـــا تَكْبَـــرُ
تُحطَّـــمُ فـــي صـــدرنا أمـــةٌ
وفـــي ثغـــره أمـــةٌ تُنـــشَرُ
ونَلْطِـــمُ نحـــن قيـــودَ العـــصورِ
عـــساها علـــى زَنْـــدِه تُكْـــسَرُ

* * *

(١) طفل الشاعر.

أخا الكــأسِ، جفَّــتْ بهــا خمرتـــي

وأَتْرعَهـــــا الألَــــمُ المُــــسْعَرُ

أتمــــضي الليـــالي ولا نَلْتقـــي

ويطويـــكَ عنـــا المـــدى المُقْفــرُ؟

ضَــبابٌ يَزُجُّــونَ فيــه الــضحى

أأبـــصرتَ رَأَدَ الـــضحى يُؤْسَـــرُ؟

وصـــــحراءُ تُقفَـــــلُ أَبعادُهـــــا

على النور، وهــي هــي المــصدرُ

نُفيـــتَ إليهـــا كمـــا تُنتَقَـــى

وتُنْفَـــى إلـــى الحَلْبـــة الـــضُّمَّرُ

ســـيندفق الفجـــرُ مـــن صَـــدْرها

ليــــسحقَهُم وَهْجُــــه الأحمــــرُ

أليــستْ محــطَّ رحــال الخلــود

ودربَ الـــسماء التـــي نَعْبُـــرُ

وأُمَّ الأعاصـــــير جبَّـــــارةً

تُطهِّـــرُ بالـــدم مـــا كَـــدَّروا

* * *

تـرَفَّـــقْ بعـــارِهِمُ، إنَّهـــمْ

زعـــانفُ، مـــا انتفَخـــتْ تَـــصْغُرُ

نفايـــا «عبيـــدٍ» لخنـــقِ الـــصباحِ

بـــأُولى ارتعاشـــاتِه سُـــخِّروا

* * *

تـــسنَّمْ جَنـــاحَ الخيـــالِ الطليـــقِ
ونَـــــزِّهْ إِبـــــاءَك، لا يَنظُـــــرُ
مخـــازي العـــصورِ علـــى أرضِـــنا
تَمُـــــطُّ الرقـــابَ، وتـــــستكبِرُ
وتَـــبطشُ بالجـــائعين العُـــراةِ
أَكُـــــفٌّ بفلْـــــسينِ تُـــــستأجَرُ
ومـــا جـــرَحَ العـــينَ مثـــلُ البُغـــاثِ
يُـــــدوِّمُ تيهـــــاً ويستنـــــسِرُ
وويـــلَ الفـــصاحة! كـــم خُطبـــةٍ
تكـــادُ الحُلـــوقُ بهـــا تُفْجَـــرُ
ففـــي كـــل زاويـــةٍ نَعْقَـــةٌ
وفـــي كـــل منعطَـــفٍ مِنبَـــرُ
لقـــد أُتخِمَـــتْ بـــالوعود الـــبلادُ
فكيـــف تجـــوعُ؟ ولِـــمْ تفقَـــرُ؟
نِفـــاقٌ، ولا يَـــسْتَحي أن يَـــصيحَ،
وعـــارٌ، ولـــيس يَنِـــي يَفْخَـــرُ
ووَيْـــلَ العليـــلِ إذا حـــشرَجَتْ
علـــى فمـــه زفـــرةٌ تَقْهَـــرُ!
تمـــوتُ بـــدائكَ لا تـــشتكي
فهـــمْ لا يريـــدون أن يَـــضْجَروا

ألــيسَ مــن الجُــرْمِ أن لا يُــصلِّي

لِــــــسكِّينه حَمَــــــلٌ يُنحَــــــرُ؟!

*   *   *

تَــسلَّقْ جَنــاحَ الخيــالِ الطليــقِ

ونــــــزِّهْ إِبـــــاءَكَ لا يَنظُـــــرُ

أيرتَـــدُّ طرفُـــكَ كـــي يرتمـــي

طعينــــاً علـــى وطـــنِ يُقبَـــرُ؟

*   *   *

إلينـــا.. إلينـــا.. أَتمــضي الليـــالي

ولا نتلاقَـــــــى ولا نَــــــسْمُرُ؟

1953

عدنان المالكي

بعد مرور عام على مصرع الشهيد

رعـــشةٌ كـــالومضِ مـــرَّتْ فـــي عروقـــي، كاللهيـــبِ
سَمَّرَتْ خطـوي علـى المـرج، علـى الجـرح الرهيـبِ
بـــرَدَى والملعـــبُ الحلْـــوُ، ورفَّـــاتُ الغـــروبِ
وربيـــعُ الـــضفَّةِ الخـــضراءِ ســـكرانُ الطيـــوبِ
واصطخابُ الحَشْدِ فـي سـمعي، وصـوتٌ مـن قريـبِ
يَمـــلأُ الـــدنيا.. تنحَّـــيْ يـــا رُؤَى الأمـــسِ وغيبـــي!
أنا لا أَقْـوَى علـى الـذكرى.. علـى الجـرحِ الرهيـبِ

* * *

رعـــشةٌ فـــي شـــاطئِ الملْعَـــبِ شـــدَّت قَـــدَميَّا
أيـــنَ عـــدنانُ؟ ودوَّتْ أمَّـــةٌ فـــي شـــفتَيَّا
وتلمَّـــسْتُ علـــى الـــضفة نـــسراً عربيـــا
وشـــباباً يمـــلأ الـــدنيا.. ووجهـــاً، ومحيَّـــا
وهـــوى الـــصمتُ، ورَفَّ المـــرجُ كـــالأمس نَـــدِيَّا
يـــا دمَ الثـــورة.. لـــم تخمـــد -كمـــا شـــاؤوا- طريـــا!

أنت باقٍ مــا انتفــضنا، مــا صــفَعْنا الظلــمَ، حيَّــا

* * *

أصــــحيحٌ مــرَّ مـــن جرحـــكَ يـــا عـــدنانُ عـــامُ؟
وطـــوى النَّـــسرُ جناحَيْـــهِ كمـــا شـــاءَ الحِمـــامُ!
وصـــمَتْنا.. فعلـــى زمجـــرةِ الحـــق لجـــامُ!
والتـــوى تحـــتَ ثنايـــا القيـــدِ أحـــرارٌ ونـــاموا
فأمانينـــا علـــى أظفـــاره الحُمْـــرِ حُطـــامُ!
وهـــديرُ الموكـــب الثـــائر.. قبـــرٌ ورمـــامُ
أصـــحيحٌ.. ظَفِـــر الـــسفَّاحُ، وارتـــاحَ الظـــلامُ؟

* * *

زحـــزحِ القبـــرَ أبـــا الرايـــةِ، واقـــذِفْ بالـــسكونِ
فـــي جبـــين القـــدر القهـــار، فـــي وجـــه المنـــونِ!
وتطَلَّـــعْ.. موكـــبُ النـــورِ، وأحـــرارُ العـــرينِ
يَنْزِعـــون النـــصرَ مـــن أشـــداق «ثُعْبـــانٍ» طعـــينِ
كـــلُّ فجـــر.. جولـــةٌ للثـــأر تَنْـــدَى بـــاليقينِ
أننـــا يـــا أمتـــي فـــي شَـــفَةِ النـــصرِ المُبـــينِ
أُكْبِـــرُ المجـــدَ، أُعِيـــذُ الثـــأرَ مـــن أن تـــستكيني

* * *

أمـــسِ، يـــا عـــدنانُ، جَـــدَّدنا علـــى الأردنِّ ســـاحا
وزرعنـــا الـــضفةَ العطـــشى دمـــاءً، وجراحـــا

وسقينا - لــم نُــصَرِّدْ - شــهقةَ المــوتِ الــصباحا
وتَلَفَّتنـــــا.. فأبــــصرناكَ روحــــاً وطِماحــــا
وجناحــــاً.. لـــفَّ مــن إخوتـــه الــصيدِ جناحــا
ويـــداً تـــومئُ للثـــوار: لـــن نُلْقِـــي الـــسلاحا!
يفـــتحُ القبـــرُ ميـــادينَ لمثلـــي، وكفاحـــا

* * *

أمـــسِ، والـــشارعُ فـــي القـــدس خـــضيبٌ بالـــدماءِ
لُحْتَ ومضاً يتحدَّى الموتَ فــي عينَــيْ «رجــاءِ»[1]
وأَرَنَّـــتْ ضـــحكةُ الفـــارسِ فـــي سَـــمْعِ الفنـــاءِ
تقـــرعُ الخلـــد أَن افـــتَحْ.. إنَّ ركـــبَ الـــشهداءِ
من رفاقي الــصيدِ، مــن أحــرارِ قــومي الأبريــاءِ
نَـــذَرُوا أن يغـــسلوا بالـــدم أرضَ الأنبيـــاءِ
أمسِ، كنــتَ الــصيحةَ المثْــآر فــي صــدر الفِــداءِ

* * *

وتلاقَـــتْ مـــصرُ بالـــشام، وشُـــدَّت قبـــضتانِ
في ضــحى يــومٍ أغــرِّ الفجــرِ، مــشبوبِ الأمــاني
وركَزْنـــا الخطـــوةَ البِكْـــرَ علـــى حـــدِّ الـــسنانِ
وتلفَّتنـــا.. إلـــى ســـاحةِ عـــزٍّ، ومكـــانِ
يَـــسَعُ التـــاريخَ، تـــاريخَ العلـــى والعنفـــوانِ

---

(١) شهيدة العروبة رجاء حسن.

وبـــــدا قبـــــرُكَ، فالموكـــــبُ أكبـــــادٌ حـــــواني
وإذا نحـــنُ.. علـــى القبـــرِ المفَـــدَّى.. أَخَـــوانِ

*   *   *

أمسِ.. جُنَّ «المِسْخُ» فـي تـل الـردى، تـل أبيـبِ
وانْبَـرى يرمـي الـضحايا بـين أطفـال وشـيبِ
«البطـولاتُ» التـي اسـوَدَّ لهـا وجـهُ الغـروبِ
صـولةُ الغـدر.. فيـا كـفَّ الفـدائيِّ أجيبـي!
وتحركنـا.. فـصدرُ «المِـسْخِ» مـشلولُ الوجيـبِ
يـا سـنا عـدنانَ، يـا أمجـادَ قـومي، لـم تغيبـي
عن فهودِ الثأر، في المحنـة، فـي اليـومِ العَـصيبِ

*   *   *

أَمْـسِ لا، لـن نرمـيَ الطـرْفَ علـى آلامِ أمـسِ
يـا طريـقَ البعـثِ عَبَّـدْناكَ رمـساً فـوق رمـسِ
كـلُّ جـرحٍ فـي النـضال المُـرِّ إطلالـةُ شـمسِ
يـا صـباحَ الوحـدة الهـدّار.. مَـزِّقْ كـل يـأسِ
فَـتحَ الـشطُّ ذراعيـه الخـضيبين لِنُرْسِـي
قُـلْ لأجيـال الغـد الوضّـاء: مُـرِّي لا تَمَـسِّي
كبرياءَ المـوتِ، قـد القمـتُ شِـدقَ المـوتِ نفـسي

*   *   *

قل لها يـا فـارسَ الـساح، ويـا حـادي النـضالِ

أنـــا جـــسرٌ، فـــاعبُري نُتْبِـــعْ نِـــزالاً بنـــزالِ!
في ضفافِ النخلِ مــن بغــدادَ، فــي سُــمْرِ الرمــالِ
في تخومِ البيــدِ، فــي النيــل علــى الــشُمِّ العَــوالي
من هضابِ المغــربِ الحمــراءِ.. فــي كــل مجــالِ
قُــمْ تكلَّــمْ.. دَمُــكَ المهــدورُ فــي ســودِ الليــالي
وَهَــجٌ يَهْــدِي خُطــى الثــوار، فَجــرٌ فــي اشــتعالِ

*   *   *

لا تَــدعْني أعتــصِرْ جرحــي وأســفَحْه نــشيدا
أنـــا مـــا زلـــتُ علـــى حَنْجَـــرةِ الثـــأر قـــصيدا
أنا في «الأوراس» أَغْـشَى النــارَ، أجتــاحُ الحديــدا
ألطِــمُ «الــوحشَ» بأشــلائي.. وكَــلاّ، لــن أَبيــدا
أنـــا جيـــلٌ.. شـــاءَهُ الفجـــرُ - لِينــشَقَّ - شــهيدا
عربــيٌّ البــأس، فــي الــساحة، آلــى لــن يحيــدا
عَـــزَّهُ الحـــادي.. فكـــان الـــدمُ حاديـــه النجيـــدا

*   *   *

كَـــرُؤى الأطفـــالِ، كالفرحـــةِ فـــي ثغـــر البـــشيرِ
كـــصفاءِ المُزنـــةِ الـــشقراءِ.. فـــي الفجـــر المطيـــرِ
كالتِمـــاعِ الجمـــرة الحمـــراء، فـــي قلـــب الـــسعيرِ
كانـــدفاعِ القَـــدَرِ الماضـــي، كمحتـــوم المـــصيرِ
وُلِـــدَ البعـــثُ، وُلِـــدْنا نحـــنُ، للعِـــبْءِ الكبيـــرِ

يـــــصنعُ التـــــاريخَ أطفـــــالٌ بـــــأحلامِ نـــــسورِ
يستضيئون بمـــا فـــي الـــدربِ مـــنهم.. مـــن قبـــورِ

*   *   *

قـــل «لِرقْطـــاءَ»[1] اســـتطابتنا فـــودَّتْ لـــو رضـــينا
أَن نَجُـــرَّ القَيْـــدَ، فـــوق القيـــد، بـــين الزاحفينـــا
قـــل لهـــا: أنيابُـــكِ الـــسودُ بَلَوْناهـــا ســـنينا
وأَفَقْنـــا، فـــصفعناكِ بهـــا، لـــن تخـــدعينا!
لـــن ترانـــا تربـــةُ الأجـــداد.. صـــرعى، لاجئينـــا
فـــي ثـــرى الأجـــداد، فَلْنَـــسحَقْكِ، أو فَلْتَـــسحقينا
كَلَّـــتِ الأرضُ، فمـــا تحمِـــلُ ظـــلَّ «الغاصـــبينا»!

*   *   *

أُرْكُـــزي فـــي قلبِنـــا «صـــهيونَ» جـــسراً للفـــسادِ
وانثُـــري فـــوق دُروب المـــوتِ أبنـــاءَ بـــلادي
واقْـــذِفي كـــلَّ قـــواكِ الـــسودِ فـــي وجـــه الجهـــادِ
واصـــبُغي المغـــربَ ســـهلاً، وجبـــالاً، وبـــوادي
واشـــــتري حفنـــــةَ عبـــــدانٍ أذِلاَّءِ القيـــــادِ
وانثُـــريهم فـــي طريـــق النـــصر أشـــواكَ قَتَـــادِ!
البـــــراكينُ - وذَلَّ الـــــصَّبْرُ - أدرى بالحـــــصادِ

*   *   *

---

(١) إشارة إلى الاستعمار.

ما نــضَوْنا كِبْريــاءَ الــسيفِ فــي وجــهِ «العبيــدِ»
مــا جرحنــا جبهـــةَ المجـــد، ولا كِبْــرَ الـــصمودِ
ســـيدَ «العبــدِ» تحَـــدَّينا.. فيـــا جـــرحَ الـــشهيدِ
أنتَ في الميدان، تــسقي مــن ســنا الفجــر الجديــدِ
موكـــبَ الأبطـــالِ، حتـــى ترتمـــي ســـودُ القيـــودِ
مِزَقــاً فـــي الـــدرب، حتـــى تلتقـــي أرضُ الجـــدودِ
وطنـــاً يـــزرعُ بـــالأحرار أرجـــاءَ الوجـــودِ!

*   *   *

فـــارسَ الميـــدان.. قطَّعـــتُ علـــى اللَّحْـــنِ ربـــابي
فـــأنِرْ دربـــي، ودربَ الجيـــل حـــولي بالمـــصابِ
وأعـــذِرِ الـــشعرَ.. مـــن الثـــورة نبعـــي وشـــرابي
دَمُـــك المطلـــولُ إنجيلـــي، وانجيـــلُ الـــشبابِ
إنهـــم فـــي الـــساح أبطالُـــكَ، فـــي صـــمتِ العبـــابِ
رَبَضوا فـوق الـتلالِ الـسمرِ غابـاً مـن حـرابِ
سوف نُرضيكَ.. سنمحو العـار عـن هـذا التـرابِ

دمشـــق

22 نيسان 1956

يا بْنَ الصخورِ البيض

إلى الفارس العربي المطران ايلاريون كبوجي
في سجن العدو

يَا بْنَ الصخورِ البيضِ من حلَــبِ[١]
يا فارســي.. يــا فــارِسَ العَــرَبِ
مـــاذا يَقــولُ الــشعرُ؟ لاهِثَــةٌ
فـــي ظِـــلِّ قَيْـــدِكَ غُرْبَـــةُ الأدَبِ
خَلَّفْـــتَ كُـــلَّ قَـــصيدةٍ شَـــرَرَاً
من رُمْحِكَ المَغْروسِ فــي الغَــضَبِ
في بــابِ سِــجْنِكَ.. نَلْتَقِــي حَطَبــاً
فاكتُـــبْ نَـــشيدَ النـــارِ للحَطَـــبِ
آمنْـــتُ بالـــشَّمْسِ التـــي رُجِمَـــتْ
وتَــوَهَّجِي يــا خُــضْرَةَ الــشُّهُبِ!

(١) المطران كبوجي.. من مدينة حلب.

الفـــــارسُ العربـــــيُّ.. تُنْبِتُـــــهُ
في القُدْسِ ريحُ الموتِ، فـــي النَّقَـــبِ
فـــــي كُـــــلِّ سُــــنْبُلَةٍ مُـــــضَرَّجَةٍ
بــــدمي الفِلَــــسطينيِّ، باللَّهَــــبِ
مُنْـــــذُ اغتِيَـــــالي ذاتَ مَجْـــــزَرةٍ
سَوداءَ.. لــم أرْحَــلْ، ولــم أَغِــبِ
مُنْـــذُ اغْتيـــالي.. لـــم أزَلْ شَـــرَراً
في رُمْحِكَ المَغْـروزِ فـــي الغَـضَبِ
منذُ اغْتِيـالي.. كنـــتَ فـــي كَفَنـــي
صــــوتاً يقــولُ ليومِنـــا: اقْتَـــرِبِ!

*   *   *

يا فارسي.. يـــومُ الحـــسابِ علـــى
شـــفتيكَ.. فاسْـــلُلْهُ حُـــسَامَ نَبِـــي
واضْرِب.. فـــإنَّ الأرضَ قـــد تَعِبَـــتْ
بـــــالرأسِ، والثُّعْبَـــــانِ، والــــذَّنَبِ
إضْـــرِبْ.. صـــليبُكَ قـــادمٌ بـــدمي
لِيُـــضيءَ آخِـــرَ ظُلْمَـــةِ الحِقَـــبِ
إضْرِبْ بسيفِ النـــورِ عـــن وَطَـــنٍ
زَلْـــزِلْ عَمُـــودَ الظُّلْـــمِ عَـــنْ كَثَـــبِ
قالوا: قَتَلْنَـــا الـــشمسَ. وانطَبَقَـــتْ
فـــي الخـــافِقَيْنِ غمامـــةُ الكَـــذِبِ

وانْهـــالَ فـــوقَ جنـــازَتي غَــسَقٌ
فأنــا بـــلا وَطَـــنٍ، بـــلا نَــسَبِ
عُمْرُ الجريمـــة كـــانَ أَقْــصرَ مـــن
نَعْـــلِ القتيـــلِ، وكَعْبِـــهِ التَّـــرِبِ
الفــــارِسُ العربــــيُّ.. عاصــــفةٌ
خَضْراءُ فـــي وَهْــرانَ، فـــي حلَــبِ
في القُــدْسِ.. لــم تُطْفَــأ مَنَابِتُهــا
فـــي أَرضِـــنا الثَّكْلَـــى، ولـــم تَغِــبِ
إضْــرِبْ.. صَــليبُكَ قـــادمٌ بـــدمي
ليقـــولَ: هـــذي أُمَّـــةُ العَـــرَبِ

* * *

يـــا فارســـي.. هـــذي بـــدايتُنا
فاحمِـــلْ جَماجِمنَـــا علـــى الخَـــشَبِ
الحقـــــدُ زَوْبعـــــةٌ.. وتَـــــدْفِنُها
قَـــدَماكَ تحـــتَ مَـــسيرةِ اللَّهَـــبِ
احمِـــــلْ جماجمَنـــــا، ودقّ بهـــــا
بابَ السماءِ، وطُــفْ علــى القِبَــبِ
وانشُرْ علــى الــصحراءِ جُلْجُلَتــي
وتحَـــدَّ كُـــلَّ خَنَـــاجرِ الرُّعُـــبِ
فـــي بـــابِ سِـــجْنِكَ نَلْتَقـــي مَطَـــراً
عَطْشَانَ.. من لَحْـمٍ ومـــن عَـصَبِ

صَلَّى الـــسلاحُ عليــكَ فَــامْشِ بـــه

فـــوقَ ادِّعـــاءِ اللـــصِّ والـــسَّلَبِ

قُـــلْ للـــضَّحيةِ: أَنْـــتِ مُطْبِقَـــةٌ

أبـــداً علـــى أَنْفَـــاسِ مُغْتَـــصِبِ

اكتُـــبْ بنـــارِ القَيْـــدِ قِـــصَّتَنا

فـــي نـــارِ قَيْـــدِكَ مَوْلِـــدُ العَـــرَبِ

دمشـــق

1974/11/20

*   *   *

زُغْبٌ على الدرب

على منضدة العمل ألقَى رأسه وانتهى

إلى رفيق الطفولة يوسف شقرا

زُغْــبٌ علـــى الـــدَّربِ لا دَرْبٌ ولا قَمَـــرُ
كُنَّا التَحدِّي وكانَ الجــوعُ والـــسَّفَرُ
زُغْبٌ على الدَّربِ يا أطـــلالَ شـــارِعنا
وبيتِنـــا، هـــل تَبَقَّـــى للهـــوى أثَـــرُ
زُغْبُ المناقيرِ طـــينُ الحـــيِّ ثَرْوَتُنـــا
وزادُنا حُلُـــمٌ فـــي الغيـــب يُعْتَـــصَرُ
كانَ «اللواءُ»[1] وكُنَّا صـــيحةً وُئِـــدَتْ
ويَنْبُـــتُ الغـــيمُ مَـــوْؤوداً وينهمِـــرُ

* * *

يا مَلْعَبَ الفَقْرِ في العَفَّانِ[2]، يا بَلَـــدِي
وفي المحاجرِ ضَوءٌ لـــيسَ ينكـــسِرُ

---

(١) لواء الإسكندرونة، مهد الشاعر.

(٢) حي العفّان.. حي الطفولة والمدرسة في مدينة انطاكية.

ويــــا زقاقـــاً علـــى الظلمـــاء نعبـــرهُ
على الشقاء ويسقي كل من عبــروا
ها نحنُ في قَبْـضَةِ الأقــدارِ قاصِــمةٌ
تَهْوِي وما أوشكَتْ عميــاءُ تنحــسِرُ
يُطـــلُّ كُــلَّ صـــباحِ نعـــشُ أُغْنِيـــةِ
من البداياتِ، مذبوحُ الـــسَّنا، عَطِــرُ
ها نحنُ زُغْبُكِ.. يـــا أنقــاضَ حارَتِنـــا
الجُـــرْحُ يكْبَـــرُ، والأوراقُ تنتثِـــرُ
والقَبْـــرُ أُمَّتُنـــا قَبْـــرٌ نُـــصارِعُـــهُ
لنَـــستفيقَ ويـــذرُونا وننـــدحِرُ
زُغْبٌ على الدرب، نبقَى الـصوتَ يـا بَلَـدي
صوتَ التحدِّي، ويبقَى الجوعُ والــسَّقَرُ
نبقَى كمـــا انفجـــرَتْ أُولَـــى بَـــشائرِنا
دَمَ العُروبةِ واضــرِبْ أَيُّهــا القَــدَرُ
انقُــلْ خُطـــاكَ علـــى دامـــي جنائزِنـــا
انقُلْ تَساوَى الظلامُ المــرُّ والــسَّحَرُ
مَـــــزِّقْ بيارقَنـــــا شَـــــرِّدْ قَوافِلنـــــا
نحنُ المسَافَةُ نحنُ الليــلُ والــسَّهَرُ
إضْــرِبْ براءَتُنـــا أَقْـــوى، وجَمْرَتُنـــا
عنيـــدةٌ، برَمـــادِ المـــوتِ تـــستعِرُ

* * *

اخا العذاب.. وأطفــالُ الهَــوَى شَــفَةٌ
عَطْشَى، وأُمٌّ نشيدي ضَرْعُها حَجَــرُ
مــاذا؟ أَأَرثيــكَ؟ عــشنا كــل خالجــةٍ
قصيدةَ البعثِ، لا شــكوى ولا حَــذَرُ
ننــامُ فــي لَــسعاتِ القُــرِّ رَقْــدَتَنا
في الحرِّ، يستسلِمُ الحرمــانُ والــضجرُ
نجوعُ.. جاءَ أبــو ذَرٍّ.. ومــا بَرِحَــتْ
شكواهُ في جَــسَدِ التــاريخ تنفجــرُ
نقولُ للجَدْبِ، للــصحراءِ، نحــن هنــا
بَرْقُ التحدِّي، وسافِرْ أيُّهــا المَطَــرُ
سافِرْ فما يَئِسَتْ فــي الــدربِ مُثْخَنَــةٌ
ولا تراجَــعَ عَــن أُنْــشودَةٍ وَتَــرُ
وما مَلَكْنا منَ الــدُّنيا سِــوَى عَطَــشٍ
إلى العروبــة، فيــه الــرِّيُّ ينتحِــرُ
ينهــارُ كــلُّ نعــيمٍ دونَ شِــقْوتِنا
ويَسْتَمِرُّ الــضبابُ المــرُّ والخَطَــرُ
نحــنُ الــذين تَخيَّرنــاكَ يــا وَطَنــي
دربَ العِطاشِ وهاجِرْ أيهــا المطَــرُ
هاجِرْ.. ستُورِقُ في الــصحراء صــرخَتُنا
وسوفَ يركَعُ عنــد الوَحْــدةِ القَــدَرُ

* * *

أخا الرحيل.. يضيقُ القبرُ عــن شَــفقٍ
منَ الصفاءِ، يَضِيقُ الحزنُ والكَــدَرُ
نَهلْتَ مــن ســرِّهِ مــا لــيسَ يعرِفــهُ
في الأرضِ إلاَّ الرحيقُ البِكْــرُ والزَّهَــرُ
يا بسمةَ الطفلِ، يبقَى الأنبيــاءُ عَلَــى
عرشِ الطفولةِ ما شَبُّوا وما كبِــروا
يا حــاملاً كِبريــاءَ الجــرحِ صــامتةً
منذُ استُلِبْنا، وضاع الكَــرْمُ والثمــرُ
يا صُحْبَةَ العُمْــرِ نَــسْتَهدي كرامتَنَــا
ونَستضيءُ رُؤىً يَعْيا بهــا البَــصَرُ
رُؤى تقـــولُ بـــأنَّ العمـــرَ نافلـــةٌ
إذا استنامَتْ إلــى جَزَّارِهــا البــشَرُ
كمــا هَتَفنــا علــى العَفّــانِ حافيــةً
أقدامُنا لــم نَــزَلْ بالــشوكِ نــأْتَزِرُ
وفي الشرايينِ يمــشي جــرحُ أُمتنــا
وفي العيونِ شُــعاعٌ لــيسَ ينكــسرُ
طفلانِ قبلــكَ ضــجَّا مِــلْءَ حَنْجَرتــي
مِلْءَ الرباب أَســىً مُــرّاً، أَتَــذَّكرُ؟
طفلانِ ما برِحَا سَــهْمينِ فــي بلــدي
من الحنينِ، من النورِ الذي هَــدَروا

زكي[1]، وصدقي[2]، ويبقى عشبُ ثورتنـــا
في قلبِ قلبِكِ يـــا صـــحراءُ ينتظِـــرُ

*   *   *

رفيـــقَ دربـــي وأشـــعاري، وباقيـــةً
من الهوى، لا تَسَلْ عنها، هـــي العُمُـــرُ
أكـــادُ أنْهَـــدُّ فـــي أفيائِهـــا تَعَبـــاً
ويظفـــرُ الحـــبُّ مقتـــولاً، وينتـــصِرُ
الكنـــزُ يُنْهـــبُ، والـــسكِّينُ غـــائرةٌ
في جُثَّتـــي، ونـــدامَى ليلنـــا خَبَـــرُ
وما كَفرنا بهـــذا الـــشعبِ يـــا بَلَـــدي
إذا العِجافُ - وتدري من هُمُ - كَفَـــروا
يُطَهِّـــرُ الحـــزنُ مثـــلَ النـــارِ زَفْرَتَنـــا
لِلحُزْنِ، للنارِ في أعماقـــهِ، الظَّفـــرُ
آمنتُ بـــالفجرِ والأطفـــالِ يـــا وطنـــي
آمنتُ أني علـــى قَبـــري سأنتـــصِرُ

---

(١) زكي الأرسوزي.
(٢) صدقي إسماعيل.

باديــة

طفلة الشـاعر

قَبْلَ أَنْ أَنْفُــضَ عــن جَفْنِــي الكــرَى

وخيـــوطُ الفجــرِ فـــي أهدابيَـــهْ

قبـــل أن تَلْمِـــسَ وَجْهـــي نـــسمةٌ

تَعْبـــرُ الـــشبَّاكَ ريَّـــا حاليـــةْ

تـــسْبَحُ الغرفَـــةُ فـــي زَقْزَقـــةٍ

لا نَـــدَى الـــصُّبحِ، ولا أَحلامِيـــهْ

اليــدُ الحلــوةُ فــي شَــعري، فَيَــا

رفَّــةَ الــورد، وهَمْــسَ الــساقيةْ!

يـــا ضـــياءَ البيـــتِ، يـــا سَوْسَـــنةً

تـــزرَعُ الـــضَّحكةَ فـــي أوصـــاليهْ

تـــدفَعُ البـــابَ، وتَهْـــوِي فُلَّـــةٌ

فـــوق صـــدري عبَقَـــاتٍ صـــافيةْ

وأُزيـــحُ النـــومَ عـــن عينـــي علـــى

بُـــرْعُمٍ أشـــقَرَ فـــي أجفانِيَـــهْ

يا نَـــسيمَ الـــصبحِ، لـــم تمـــلأْ دمـــي

بـــالهوى والعطـــرِ.. لـــولا باديـــةْ

لـــــم أَذُقْ نُعمـــــاكَ إلاَّ لثغـــــةً

حلـــوةً تطْفُـــرُ حـــولي لاهيـــةْ

ويـــــداً، يـــــا زِرَّ وَرْدٍ، يَرْتَمِـــــي

فـــوقَ صـــدرِي زَقْزقـــاتٍ صـــافيةْ

كُـــلَّ صـــبحٍ.. بَيْتُنَـــا أغْـــرُودَةٌ

تُـــوقِظُ النـــشوةَ فـــي أَعماقيـــهْ

* * *

يـــا شُـــعَاعَ البيـــتِ، يـــا عُـــصْفُورتي

يـــا سَـــماءً أشـــرَقَتْ فـــي ذاتيـــهْ

لـــــو تـــــصيَّدتُكِ فـــــي قافيـــــةٍ

ذابـــتِ النُّعمـــى وســـالَتْ قافيـــةْ

تتحَـــــــدَّى لَثْغَـــــــةٌ معـــــــسولةٌ

كُـــلَّ مـــا يَنْـــبضُ فـــي أبياتيـــهْ

الكفـــاحُ المُـــرُّ.. كـــي تَمْـــشِي غـــداً

وأمانيـــــكِ قطـــــوفٌ دانيـــــةْ

الكفـــاحُ المـــرُّ.. كـــي لا تَظْمَئِـــي

وعلـــى كفَّيـــكِ تجـــرِي الـــساقيةْ

الكفـــاحُ المـــرُّ.. كـــي لا تَبْـــسمي

وقريـــــبٌ منـــــكِ روحٌ داميـــــةْ

نحـــن كُنَّـــا الـــدربَ يـــا زَنْبَقتـــي

وســـلي عـــن شـــوكِه أقداميـــهْ

*   *   *

إقْـــذِفي اللُّعْبـــةَ نـــركُضْ خَلْفَهـــا

نَقْلِـــبِ الكرســـيَّ، نَـــرْمِ الآنيـــةْ

وأنـــا الأَوَّلُ إِنْ نَقْفِـــزْ كمـــا

يَثِـــبُ الـــذِئْبُ وأنـــتِ الثانيـــةْ

ونُحِيـــلُ البيـــتَ فَوْضَـــى مثلَمـــا

تخـــبِطُ الـــريحُ غُـــصُونَ الداليـــةْ

فـــإذا صـــاحوا بنـــا.. طَـــوَّقتِني

وفَررْنـــا نَخْتَبـــي فـــي الزاويـــةْ

وإذا فيـــروزُ غَنَّـــتْ.. ملَكَـــتْ

سَـــمْعَنا، فالبيـــتُ أُذْنٌ صـــاغيةْ

قـــصةُ «المِـــزْرابِ» مـــن ألعابِنـــا

ولْتَكُـــوني اليـــومَ أنـــتِ الراويـــةْ

كَـــسَرَ المِـــزْرابَ «عبـــدُه» فمـــضَتْ

لـــشبابِ الحـــيِّ سُـــعْدَى شـــاكيةْ

رَدِّدي أَلْحانَهـــــــا.. يـــــــا فُلَّتِـــــــي

لثغـــــةً تطفُـــــر حـــــولي لاهيـــــةْ

لــــو يعـــيشُ الكـــونُ طِفْـــلاً ســـاعةً

بَرِئَـــــتْ فيــــهِ الجِـــراحُ القاســـيةْ

1959

*   *   *

سأكتبُ عنكَ

إلى صديقي الشاعر الجزائري مالك حداد

« لو كنت أعرف الغناء لتكلمت العربية»

مالك حداد

سأكتُبُ عنكَ بالجَمْرِ
سأكتبُ عنكَ بالعربيةِ العطشَى إلى الثأْرِ
بحرفٍ من شُوَاظِ العُنْفِ
قَدَّسَ وقدَةَ الشرِّ
أتعرفُ وقدةَ الشرِّ؟
هيَ اللّهَبُ الذي سيُطَهِّرُ الدنيا،
هي الثورَةْ
هي الدّغْلُ الذي يُخْفي كتائِبَنَا
هيَ الصخرَةْ
تُشدُّ بضلع جُنديٍّ رأى أطفالَه العشرَةْ
يعفِّرهم أمامَ الدار رشّاشٌ، فلا شهقةْ
ولا خَفْقَةْ

أُتيحَتْ للعصافيرِ
لتنهَلَ رعشةً أخرى من النورِ
لتسألَ زُرْقَةَ الأفلاكِ، والأشجارِ، والأظلالْ
لماذا يُقْتَل الأطفَالْ؟
لماذا يُقْتَل الأطفَالْ؟

*   *   *

سأكتُبُ عنكَ يا مالِكْ!
سأعجِنُ بالحروفِ الخُضْرِ كلَّ عِطَاشِ آمالِكْ
سأكتبُ عنكَ أنْشودَةْ
تَرِنُّ بأحرفِ القرآنِ، بالأُوراسِ مشدودَةْ
تغُطُّ جناحَها في صدر «مَجْرَدَةٍ»[1] فتلتهبُ
ويشرَبُ وَهْجَها العَرَبُ
بلى، يا شاعري،
سأخطُّ عنك غناءَك الصامتْ
بحرفٍ من شُوَاظِ الثأر، بالعربيةِ الحُرَّةْ
ليَصْدَحَ لحنُكَ الخافِتْ
لِتعرفَ أننا أسْرَةْ
لتعلمَ أن أرضَكَ يا أخي أرضي
ونبضُكَ لم يكن يوماً سوى نَبْضي
وأنّ بَنَفْسَجَ السفّاح يُرْوَى زهرةً زَهْرةْ
بسيلٍ من دَمِ الأطفال،

---

(١) مجردة: نهر في الجزائر.

من أطفالكَ العشرَةْ

*   *   *

سأكتبُ عنكَ..

لا حزنٌ، ولا ألَمٌ، ولا مَنْفَى

سيحملُ غيرُنا - إنْ نَعْيَ نحنُ - الفجرَ والعُنْفَا

سيحملُ غَيرُنا الرايَةْ

ستَنْهَلُّ الجبالُ السمرُ،

تُشْرِقُ آيةً.. آيَةْ

ويَقْرؤني غداً أطفالُ «بِنْ بِلاَّ»[1] وأطفالُكْ

وتضحكُ، مِلْءَ صدرِ النصر، آمالي وآمالُكْ

---

(١) البطل الجزائري أحمد بن بلا.

يُوسف زيغود

من أبطال الثورة الجزائرية

«.. وسيطر على الربوة صمت ثقيل، لم يلبث خلاله زيغود أن لفظ الروح.. وانتظر العدو. ساعات.. ثم تقدم ليفرغ، بجنون وحشي، رشاشاته في جسد قد فارقته الحياة منذ أمد...»

من كتاب «معركتنا في الجزائر»

صَمْتٌ على الوادي، يَرُوعُ الوادي
وسَحَابَةٌ من لوعةٍ، وحِدَادِ
أرْسَى على الهَضَبَاتِ ريشُ نُسورِهَا
وتمزَّقَتْ من بعدِ طولِ جِلاَدِ
هَدأَ الوميضُ.. فلا أَنينُ شَظِيَّةٍ
يُصْمِي، ولا تكبيرةُ اسْتِشهادِ
«أَلحفنةُ» المتشبثونَ بحفنةٍ
ضَؤُلَتْ وهانَتْ من لَظىً، وعَتَادِ
أَلْقَوْا بوجهِ الموتِ آخِرَ صَفْعَةٍ

وتـــــساقَطوا تحـــــتَ الجحـــــيمِ العـــــادي
ألنــــــارُ تأْخُـــــذُهم.. فَــــــسِرْبٌ رائـــــحٌ
مـــــن باصـــــقاتِ ردىً، وسِـــــرْبٌ غـــــادِ
وكتيبـــــــةٌ تتثـــــالُ إثْـــــرَ كتيبـــــــةٍ
كَثُــــــرَتْ هنــــــاكَ كتائـــــبُ الجـــــلاَّدِ
حـــشَدَ الألـــوفَ.. يكـــاد يعتقـــدُ الحَـــصَى
والـــــريحَ ثُـــــوَّاراً.. وحَـــــرْجَ الـــــوادي
حـــشَدَ الألـــوفَ.. لقـــاءُ «ســـيدِ أحمـــدٍ»(١)
رُعْـــــبٌ يـــــشلُّ النـــــبضَ فـــــي الأكبـــادِ
رُعْـــــبٌ يُـــــسَمِّر «بالمدرَّعـــــةِ» الخُطـــــى
فمـــــــدافعُ الـــــــسفَّاحِ كالأَوتـــــــادِ
وتُجَـــــنُّ مـــــن حَنَـــــقٍ، فَتُمْطِـــــرُ موتَهـــــا
حينـــــاً بـــــلاَ هَـــــدَفٍ، بغيـــــر رَشَـــــادِ
وتلعلـــــعُ النيـــــرانُ.. كـــــلُّ حَنِيَّـــــةٍ
لهَـــــبٌ إلـــــى دمِنـــــا لهيـــــفٌ، صـــــادِ
وتُجيـــبُ مـــن وَكْـــر النـــسُورِ رَصَاصـــةٌ
لتُـــــصِرَّ.. هـــــذي تُرْبَتـــــي، وبـــــلادي
لَـــــنْ يُـــــسْلِمَ الـــــوادي ثـــــراه لغاصـــــبٍ

(١) سيد أحمد: هو اللقب الذي عرف به القائد الثائر يوسف زيغود بين رفاقه المجاهدين.

إلاَّ علــــــى جُثَـــــثٍ.. علـــــى أَجــــسادِ

* * *

صَــمْتٌ علـــى الــوادي، كمـــا جَـثَم الـــردى

فــــوقَ المقــــابرِ جُلِّلَــــتْ بـــــسوَادِ

«أَلحفنــــــةُ» المتــــــشبثونَ بـــــصخرةٍ

تَلْقَـــــى الجحـــــيمَ بإصْـــبَعٍ، وزِنَــــادِ

صَــــمَتوا.. فمـــا تَـــسْرِي «لـــسيد أحمـــدٍ»

بـــــين الـــــشعابِ رهيبــــةُ الإرعـــــادِ

ســـــمراءُ.. يُرْسِــــلها هُتافــــاً مـــــارداً

فتفجِّــــــرُ الإعـــــصارَ فــــــي مُـــــرَّادِ

صَــــمَتوا. لقـــد أَلقَـــوْا بـــآخِرِ طلقـــةٍ

وتمزَّقــــــــوا تكبيــــــــرةَ استــــــشهادِ

* * *

ألثائرُ المقْدودُ من نارِ

أغْفَى على الغارِ

كخمودِ إعْصَارِ

كصباحِ نَوَّارِ

ضُرِبَتْ عليه ألْفُ زَوْبَعةٍ،

وسحابةٍ سوداءَ كالقارِ

* * *

ألصّامدُ المقدودُ من لَهبِ

ألفارسُ العربي

عرَفْته أرضُ المجدِ حدّادا

في ركنِ حانوتِ

يحيا على الخَشِنَيْنِ من ثوبٍ، ومن قُوتِ

وسَرَى نداءُ الثأرِ رَعَّادَا

وأهابتِ الثورةْ

وتكلّمتْ آلامُنا غوراً وأنجادا

فإذا الكَميُّ.. فِرَاشُهُ صخرَةْ

وغطاؤهُ صخرَةْ

وإذا هو الثورَةْ

سَيسيرُ مثل رفاقهِ الدّرْبَا

سيخوضُها حَرْبَا

سيخُطّ قصةَ أرضه الحُرّةْ

بالدمع،

بالدّمِ،

قَطْرةً.. قَطْرَةْ..

*   *   *

وتوقّفَ «الزّحْفُ المُبيدُ»، سلِاحُهُ وعتادُهُ

وغُرورُهُ.. وعِنَادُهُ

وتعثَّرتْ بالرُّعبِ غمغمةٌ بصدرِ الطاغيَةْ

ألزّاحِفِ المذعورِ في قلب القلاعِ العاتيةْ

- أتُراهُ ماتْ؟!!!

- أتُرى جَحَافِلَنا أتينَ على حياةْ!!

- أخَلاَ لنا الوادي، فما للموتِ فيه من أثَرْ

- كم يَستهينُ «المارقون»[(١)]

بكل ما يُسْمَى.. خَطَرْ!

* * *

وتردَّدَ «الزحْفُ المُبيدُ» أَيَقْحَمُ الصمتَ الرهيبا

أيجازِفُ «البَطَلُ المُغيرُ»[(٢)]..

فيهبِطُ الوادي دَبيبا؟

كم لَقّنَتْهُ صخرةٌ رَبَضَتْ على السّفْحِ العِبَرْ!

كم يستهينُ «المارقون» بكل ما يُسْمَى خَطَرْ!

* * *

ومشى الدمارُ..

وشقّ عَبْرَ الصمتِ وادينا الشهيدا

حَذِراً، وئيدَا..

---

(١)«المارقون»، «قطاع الطرق»، هي الأسماء التي تطلقها الدعاية الاستعمارية على الثوار في كل مكان.

(٢) قائد الحملة الفرنسية.

أقْدِمْ..

سراياكَ المغيرةُ آمنةْ

أقْدِمْ..

مرابضُنا صخورٌ ساكنَةْ

أقْدِمْ على الجُثَثِ الصوامتِ..

أيها «الزحفُ المُظَفَّرْ»!

أقدِمْ.. «فسيد أحمدٍ»

جسدٌ، كما تَهْوَى،

مُعَفَّرْ..

* * *

صَمْتٌ على الوادي، يَرُوعُ الوادي

وسحابةٌ من لوعةٍ.. وحدادِ

* * *

يا سَفْحَ يوسفَ، يا خضيبَ كمينهِ

يا روعةَ الأجدادِ في الأحفادِ

يا إرْثَ موسى[1]، في النسورِ، وعُقْبَةٍ[2]

والبحرُ حولكَ زَوْرَقُ ابْنِ زيادِ[3]

---

(١) موسى بن نصير.

(٢) عقبة بن نافع.

(٣) طارق بن زياد.

يـــــا شـــــمخَةَ التـــــاريخِ فـــــي أورَاســـــنا
يـــــا نبْـــــعَ مَلْحَمتـــــي بثغـــــرِ الحـــــادي
أتمـــــوتُ؟ تـــــاريخُ الرجولـــــةِ فِرْيَـــــةٌ
كبـــــرى إذاً، ووضـــــاءَةُ الأمجـــــادِ
أتمـــــوتُ؟ كـــــلُّ حَنِيَّـــــةٍ بجزَائـــــري
ميلادُ شعبٍ رائعٍ..
ميـــلادي..

* * *

أرفيق أحلامي

إلى روح صديقي الرسّام أدهم إسماعيل

تَهَــبُ النعــيمَ كمـــا تَـــشاءُ وتُبْـــدِعُ
سِـــيَّانِ ضَـــمَّكَ رَفْـــرَفٌ أمْ بَلْقَـــعُ
تَهَـبُ النعـيمَ.. ومـــا أعَفَّــكَ واهبـــاً
يُعْطِـــي لِيُنْكِـــرَهُ العطـــاءُ ويُوسِـــعُ!
هـــذي الخُطـــوطُ بمُقْلَتَـــيّ تكَـــسّرَتْ
وتوهّجَـــتْ فالليـــلُ جَمْـــرٌ يَـــسْطَعُ
أتمـــوتُ؟ كُـــلّ غِلالَـــةٍ مـــسحـــورةٍ
حولي تُعَـــرِّشُ فـــي الخلـــود وتُمْـــرِعُ
أتموتُ؟ كُلّ ضَفيرةٍ مـــن «خَوْلَـــةٍ»[1]
صـــوتٌ يحـــدثني.. ودنيـــا تَخْـــشَعُ
وأغُطُّ في «غَسَقِ الألوهـــةِ» ريـــشتي
غَـــسَقٌ بأعمـــاق الأُلوهـــةِ يَلْمَـــعُ

---

(١) «خولة»، «غسق الألوهة»، «الفارس العربي»، من لوحات الفقيد الأولى.. في بيت صديقه الشاعر.

بيتـــي، وأغْلـــى مـــا يَـــضُمّ قَـــصيدةٌ
فوقَ الجدار، بـــسحر صـــمتكَ تَـــسْجَعُ
أرنو.. أضيعُ علـــى ضـــفافكَ شـــارداً
وأُهيـــبُ بالماضـــي الـــشريد فَيَرْجِـــعُ
بينـــي وبينَـــكَ عُزْلَـــةُ الأَبَـــد الّـــذي
يجثو علـــى أحْلاَمنـــا.. مـــا يُقْلِـــعُ
حَجَـــرٌ علـــى حَجَـــر أصَـــمّ.. وإنّنـــي
لأَلُمُّ صوتكَ فـــي الخطـــوط وأســـمَعُ
«الفـــارسُ العربـــيُّ» صَـــبْوَةُ شـــاعر
عطـــشانَ يعتـــصرُ الخلـــودَ ويكْـــرَعُ
رُمْـــحٌ يُـــسَمِّرُ فـــي النجـــوم ســـنانَهُ
وعلـــى جَنـــازة كبْـــره يَتَمَـــزّعُ
أرنو.. أضيعُ على الـــضفاف، وأَنْثَنـــي
بصَدى الطّفولة فـــي دمـــي يَتَرَجّـــعُ
الـــسّافحونَ علـــى الـــدروب عُيـــونَهم
وقلُـــوبَهم، والمـــوتُ سَـــوْطٌ يَلْـــسَعُ
الراحلـــونَ مـــعَ الأَصـــيل تَرَعْرَعـــوا
لحنـــاً علـــى شَـــفَة العـــذاب وأيْقَعـــوا
وأَلُـــمّ فاجعـــةَ «اللـــواء»[١] قـــصيدةً
وتَلُمّهـــا لونـــاً يَقُـــصّ فَيُفْجِـــعُ

* * *

(١) لواء الإسكندرون، وطن الفنان الراحل.

يـــا شـــاعراً عَبَـــرَ الوجــودَ سَـــحابَةً
غَدَقاً، وتَخْجَلُ أنْ يُحـــسّكَ موضِـــعُ
عِـــــشْنا، وزادُكَ للرفـــــاقِ تحيــــــةٌ
نُبْـــلُ الإلـــــهِ بِـــصَمْتِها يتـــضَوّعُ
نلقاكَ في صَـخَبِ الحنـــينِ، وصـــورةٌ
تَهْـــوي إليـــكَ، وصـــورةٌ تَتَمَنّـــعُ
وَتُجيـــلُ طَرْفَـــكَ، فالبطولَـــةُ لوحـــةٌ
والحُبُّ، والـــصّبَواتُ كُـــوبٌ مُتْـــرَعُ
وتَروحُ في غَيْبٍ يَعِـــزُّ علـــى الـــرؤى
غَيْبٌ يُضيءُ بـــه الـــشقاءُ وَيُمْتِـــعُ
فـــإذا رجعـــتَ إلـــى الرفـــاقِ فعـــالَمٌ
حُلْـــوٌ مِـــنَ الـــشعرِ المُـــصَفّى يَرْجِـــعُ

*　　*　　*

أرفيـــقَ أحْلاَمـــي.. ونحـــنُ طُفولَـــةٌ
في الدربِ من حَسَكِ المرارةِ تَرْضَعُ
تـــتجهْمُ الـــدنيا.. وتَيْـــبَسُ حولنـــا
ونَـــدُقّ صَـــخْرَ الكِبْريـــاءِ فَيَنْبَـــعُ
مـــا ضـــرَّنا قَبْـــرٌ سَـــلَخْنا عُمْرَنـــا
فيـــهِ، وَقَبْـــرٌ فـــي دُجـــاهُ نُـــودَعُ!
أَيْمانُنـــا تَهَـــبُ الكُنـــوزَ، وبَيْتُنـــا
هـــذا الوجـــودُ.. لَـــنَحْنُ منـــه أوسْـــعُ

سَلْها عُروشَ الــزّائلين.. ألــم تَــزَلْ

عَبْـــرَ القُـــرونِ بِبابِنـــا تَتَـــسكّعُ؟

بقــصيدةٍ ســكْرى، بــضَرْبَةِ ريــشةٍ

تَتَــنَفّسُ الأرضُ اليَبــابُ، وتَــسْمَعُ

* * *

يا فــارسَ اللــون المُخَــضّبِ بالــشّذا

بترابنـــا العربـــيّ وهـــو مُـــوزَّعُ

ما ضعتَ وحدَكَ فــي بــلادي.. كُلُّنــا

لحـــنٌ بزَوْبَعَـــةِ الــصَّغارِ مُــضَيّعُ

وَتَــرٌ تَقَطَّــعَ فــي الــضبابِ، وَرُبّمــا

جَثَتِ العُصُورُ لديــهِ، وهــو مُقَطَّــعُ

* * *

يا شاعري.. حتى يضيقَ بنــا المَــدَى

حتـــى جـــدارُ ســـمائِنا يَتَـــصَدَّعُ

مـــاذا أُعيــدُ؟ وكُــلُّ ذِكْــرى شَــهْقَةٌ

في جــانِحيَّ، وكُــلّ هَمْــسٍ مَقْطَــعُ

أنـــا مـــا أزالُ ثُمَالَـــةً مِـــنْ نَغْمَـــةٍ

بفـــم الـــضَّياعِ غَريبـــةً تتَقَطّـــعُ

أُلْقـــي بـــسرّي للريـــاحِ، لـــصخرةٍ

تَنْهَـــدّ خاتمـــةٌ ويَبْـــدأ مَطْلِـــعُ

قَبْوانِ[1].. أسْـكَرْنا المــرارةَ فيهمـــا
لحنـــاً يُـــضيءُ، وَريـــشةً تتَرَفّـــعُ
قَبْوانِ.. كانـــا كُــلَّ مـــا سَــمَحَتْ بِـــه
أرْضٌ زرعناهـــا النجـــومَ، ونَـــزْرَعُ
الكــــافرانِ.. ومـــــا كَفَرْنـــــا مَـــرّةً
بهما، ونَجْرَعُ منهمـــا مـــا نَجْــرَعُ
الكــــافرانِ.. تُرابُنـــــا وهَواؤنـــــا
صُــــنّاعُ خُلْـــدِهما صَـــدٍ ومُـــرَوَّعُ
يتألّــــهُ الْمَلَـــقُ الغبــــيُّ، وتَنْطَفــــي
شُعَلُ الألوهَةِ فـــي الكهُــوفِ وتُــصرَعُ

*   *   *

يا شامُ.. يـــا هِبَـــةَ الـــسماءِ.. كَبيـــرةٌ
أنْ يُعْوِزَ الإبـــداعَ حولَـــكِ مَـــضْجَعُ
أعْطـــاكِ، لـــم يَبْخَـــلْ، فهـــلاّ بـــسمةٌ
للعبقريــــــةِ، للبــــــراءةِ، تَفْـــــزَعُ!
أعْطـــاكِ، لـــم يَبْخَـــلْ.. وإنّ كُنـــوزَهُ
لأعَـــزُّ مـــا تَهَـــبُ الـــسماءُ وأرْفَـــعُ
ويُحَشْرِجُ الإبْداعُ.. يَـــشْهَقُ.. ينطفـــي
لم تَلْتَفِتْ عُنُقٌ.. وتُـــومِئْ إصْـــبَعُ..

*   *   *

---

(١) بيتا الشاعر وصديقه في دمشق وحلب.

يا شاعري.. تَعِبَ المَـساءُ، وَغُـصَّتي

كلهيبِ لونِكَ فـي دمـي.. مـا تُنْقَـعُ

كَغَـدائرِ النـارِ التـي أرْهَقْتَهـا

حُسْناً، على أسـرارِ «خولـةَ» تَهْجَـعُ

كربيعِ عَيْنَيْهـا، وقُـلْ لـي، بـالهوى

مـاذا سـقَيتَهُما؟ ومـاذا تَـصْنَعُ؟

سِـرٌّ حملـتَ إلـى الخلـود حِجَابَـهُ

وتركْتَ ما يُـذْكِي الحنـينَ وَيُولِـعُ

يا شاعري، ورفيقَ دربي في الأَسَـى

أبْهَى عَطاؤُكَ فـي الـضريحِ وأسْـطَعُ

لي فـي سـماواتي الـصغيرةِ أنْجُـمٌ

ممـا تركـتَ.. بجـانِبَيَّ تُشَعْـشِعُ

أنـا والغَـدائِرُ سـاهرانِ.. وفَوْقَنـا

وَتَـرٌ إلهـيٌّ الـرنينِ يُوَقِّـعُ

وَتُطِـلُّ بَـسْمَتُكَ الخـضيبةُ بالـشَّذا

فالليـلُ كَـوْنٌ بالْعُذوبَـةِ مُتْـرَعُ

4 نيسان 1964

يَا بـدر

وفتحتُ الجريدة لأقرأ نبأ وفاته
إلى روح صديقي ورفيق دراستي ﰲ بغداد
بدر شاكر السياب

غاضَتْ إذاً في زوايـــا الليــلِ جَلْجَلـــةٌ
ومَـــدَّ واحتَـــهُ للمُرْهَـــقِ العَـــدَمُ
لم تَحْمِلِ النخلُ فـــي أعلَـــى ذوائبهـــا
قصيدةً مثلَـــه.. لـــم يَعْـرِفِ الألـــمُ
يا بَدْرُ.. يا زَفْـرةً جفَّــتْ بِحنْجَرتـــي
وفـــي يـــدي نبـــأٌ تَعْيـــا بـــه الكَلِـــمُ
لم أَطوِ ديوانَكَ المكتـــوبَ فـــي شَـــفَتي
ما زالَ في قَـــدَحي مِـــنْ وَهْجِـــهِ نَغَـــمُ
علـــى الـــصحيفةِ تَلْقـــاني إذاً خبـــراً
بعد الضَّيَاعِ، وتَنْعَـــى لحنَهـــا القِمَـــمُ
لم يلمحوا منكَ ــ واعذِرْهم ــ سـوى شَـبَحٍ
للموتِ، في كَفَـــن الأحيـــاءِ، يبتـــسمُ

لم يعرفوكَ، وجـلَّ الفـنُّ عـن سَـقَطٍ

مـن المتَـاعِ بخـزِّ الكِبْـرِ يلتـثمُ

قيثارةُ المَلأ الأعلـى.. ومـا دَرَجـتْ

مُنْذُ المَعَريِّ فـي أرضـي لهـا قَـدَمُ

طَويْتَ ديوانَـكَ المقـدودَ مـن سَـقَرٍ

مِنْ عبقَرٍ، مِنْ عذابٍ لم يذقْـهُ فـمُ

طويتَـهُ بعـدَ أسـفارٍ علـى لُجَـجٍ

على شواطئَ لـم يحلُـمْ بهـا قَلـمُ

ما كـانَ أَظْمـأَ أشـواقي إلـى قَـدَحٍ

بَعـدَ الـسنينَ علـى الآلامِ نقتـسِمُ

ما كانَ أظمأَني يـا بـدرُ، واختلَجـتْ

دنيا، وراحـتْ علـى جَفْنـيَّ تـزدحمُ

حديقةُ الـدار[1] هـل جَفَّـتْ حكايتُنـا

في مُقلَتَيْها، وهلْ لَمَّ الهـوى حُلُـمُ؟

كأَنَّنا أَمـسِ عَبْـرَ الـشطِّ[2] قهقهـةٌ

سكْرَى، وأمسيةٌ بالـشعرِ تـضطرِمُ

كأَنَّنـا أمـسِ فـي بغـدادَ أُغنيـةٌ

علـى الـشفاهِ، وفجـرٌ ظـامئٌ نَهِـمُ

---

(١) دار المعلمين العالية ببغداد.

(٢) شط دجلة.

كأننــــا أمـــسِ.. لا تفـــتَحْ نوافِـــذَهُ

فالـــدَّربُ حَـــشْرَجةٌ مـــا تنتهـــي ودَمُ

* * *

يا بدرُ.. يـــا ريـــشةً غنَّـــتْ روائِعَهـــا

ليسكرَ الجـــوعُ بالـــصهباءِ والـــسأمُ

يا غُربةَ الـــوَحْيِ فـــي أرضٍ مُمزَّقـــةٍ

بقطـــرةِ الأمـــلِ المـــذبُوحِ تعتـــصِمُ

صـــلَّيتَ للمَطَـــرِ الغـــافي بأعيُنِنـــا

للقبـــرِ يَفْغَـــرُ فكَّيْـــهِ ويلـــتهِمُ

صلَّيتَ للمعَبـدِ الـدامي[1].. أَتَرْهبُـهُ

بعدَ الرحيلِ؟ تساوَى البُرْءُ والـسَّقَمُ

مَدينةُ القَحْـطِ مـا زالَـتْ بـلا مَطَـرٍ

وأُتخِمتْ مِنْ سواقي جُوعِنـا الـديَمُ

* * *

يا شاعرَ النبـرةِ الـسمراءِ يحمِلُهـا

إلـى الخلـودِ جَنـاحٌ لـيسَ ينهـزِمُ

غمسْتَ قلبكَ في المأسـاةِ فانـسكبتْ

نُعْمى تُضِيءُ رِحابَ البؤس، تنـتقِمُ

---

(١) «أنشودة المطر»، «والمعبد الغريق» ديوانان للشاعر الراحل.

نحنُ العطاشُ.. وتـــسقي الأرضَ زفرتُنـــا

ويَعْبُرُ الطيـــفُ.. لا شـــكوى ولا نـــدمُ

من شَهْقَةِ الكلماتِ الحمرِ.. مـــن دَمِنـــا

تخْضَرُّ يا بدرُ، تَحْيَـــا.. تُـــورِقُ القِمَـــمُ

حلب: 28 كانون الأول 1964

* * *

نرجيلة بو مخاييل

في قرية «مشتى الحلو»

الشمسُ تَسْحَبُ عــن جَفْنـــي ذوائبَهـــا
والليلُ أُغنيَـــةُ «المَـــشْتَى» وريَّاهـــا
ويَعْبَـــقُ الـــدربُ أَقْـــداماً مُوشوشَـــةً
حُلْوٌ على «الصخرة الزرقاءِ» مُرْسَـــاها
الـــدربُ.. أعرِفُـــهُ شِـــعراً، ويَعرِفُنـــي
ما تِهتُ عن عطْـــرِهِ يومـــاً ولا تاهـــا
وتُومئُ «الشُّرفَةُ البيـــضاءُ» هامِـــسةً
عَرَفْتُ ما خَبَّـــأَتْ لـــي فـــي زواياهـــا
ما أَشعَرَ الليلَ من حـــولي وأَروَعَـــهُ!
قصيدةُ الله، فانهَـــلْ مـــن عطاياهـــا
ســـتون.. تمتَـــدُّ كالأشـــبَاحِ صـــامِتةً
ترنـــو إلـــيَّ.. تُنـــاديني خباياهـــا
سبعون.. تُتْعِبنـــي لـــو شـــئتُها عـــدداً
هذي الـــتلالُ.. وراءَ الظـــن مَرمَاهـــا

*   *   *

رَفَّ المـــساءُ.. فغبنـــا فـــي عبَاءَتـــهِ

ومَدَّتِ الــضيعةُ الخــضراءُ نُعْماهـــا

ورَنَّ في أُذُني صـــوتٌ كمـــا انكفَـــأَتْ

على الجنادلِ عينٌ ضـــاعَ مجراهـــا

تَنْدَى الرُّجُولةُ فـــي أعطـــافِ نبرتِـــهِ

ويُـــورِقُ الليـــلُ زهـــواً فـــي حناياهـــا

نرجيلتي.. سَبَحاتُ الـــسحرِ.. نَمْنَمهـــا

مُنْذُ الغروبِ -كما أَهْـــوَى -وسَـــوَّاها

رقيقةٌ كنَـــدَى «المَـــشْتَى».. كتُربتهـــا

عريقـــــةٌ كـــــسجاياه ســـــجاياها

لبيكَ.. لبيكَ بـــو مْخاييـــلَ.. أَرْهَقَنـــي

مُرُّ السُّرَى، وشكا روحي جناحاهـــا

أُحِبُّ هذا التُّـــرابَ العـــذْبَ يَحْـــضُنُني

خمـــراً، وشِـــعراً، وأَزْجـــالاً نـــسيناها

أُحِـــبُّ شُـــرْفَتكَ البيـــضَاءَ حانيـــةً

تكـــادُ تخْطَفُنـــي شـــوقاً ذِراعاهـــا

هنا جذُوري.. ولـــو أنكرتُهـــا يَبِـــسَتْ

في ريشتي نغمةٌ مـــا كنـــتُ لولاهـــا

لبيكَ.. هيِّئْ ليَ النعماءَ فـــي «نَفَـــسٍ»

تَنْسَى به الزفرةُ الخرســـاءُ بَلواهـــا

أُحِبُّها «جارتي الــسمراءَ».. تَحْمِلُنــــي

علـــى غـــدائرَ مـــن وَهْـــمٍ أرَدْنَاهـــا

دَعْها تقرقِرُ.. لـــو أَطْفــأتَ جمرتَهـــا

أوقـــدتُها ضَـــجَراً.. أَشـــعلتُها آهَـــا

سأنـــسُجُ الليـــلَ أَحْلامـــاً مُنْـــضَّرَةً

وأُغْرِقُ الرَّهَقَ الـصادي بنجواهـــا

دَعْها تَمُجُّ الضبابَ العذْبَ مـــلْء دَمـــي

ما كانَ أصفاكَ لي جاراً، وأصـــفاها

*   *   *

قـــصيدةُ الله.. هـــذا الليـــلُ.. أَقرؤُهـــا

وَحْـــدِي، وتمنَحُنـــي وحـــدي خفاياهـــا

نَرْجِيلتي أَوشـــكَتْ تخبـــو. وتُـــوقظُني

شرارةٌ.. يتحـــدَّى المـــوتَ جنباهـــا

وصلْتُ بالنـــسمةِ الـــشقراءِ أَجْنِحَتـــي

فيـــا تِـــلالُ.. أَضـــيعيني وإياهـــا

*   *   *

مصرَع الفارس

إلى الدم العربي الذي غسل الإهانة، ودَلَّ على الطريق، إلى روح عبد المنعم رياض

بيـــضاءُ، شــــامخةُ الأسَـــى ســـيناءُ
تُـــسْقَى بجرحــكَ رَوعـــةً وتُـــضَاءُ
بيـــضاءُ تَغْـــسلُ أرضَـــها وســـماءَها
بـــسنَا الرُّجولـــة دَفْقـــةٌ حمـــراءُ
بيضاءُ تَـنفُضُ فـــي العَـــراء قبُورَنـــا
فــــإذا الطريـــقُ شَـــهادةٌ وفـــدَاءُ
وأجُسُّ عـــارَ الـــدَّهر، يَجْلـــدُ جَبهَتـــي
بالنَّـــار.. يَـــسْحَقُ رأســـيَ الإغْـــضاءُ
عامــــان.. أمـــضَغُ زفرَتـــي مخنوقـــةً
عامــــان... قـــصةُ ذُلّنـــا الأنبـــاءُ
وأُفيقُ أمـــس.. يُفيـــقُ كـــلُّ مُجَلَّـــل(١)
بالموت.. تُتْلِعُ جيدَها(٢) الـــصحراءُ

(١) مُجَلَّل: مُغطى.
(٢) تتلع جيدها: ترفع عنقها.

نصحو علــى نَبَــإِ الــشّهيدِ: جِباهُنــا

زَهْـــوٌ يُـــضيءُ، ودمعُنـــا خُـــيَلاءُ

مسَحَ الدَّمُ البَطَــلُ الهَــوانَ، وغُيِّبَــتْ

فـــي قـــاعِ نعــشِكَ نكــسةٌ ســـوداءُ

*   *   *

يـــا رافعـــاً عَلَـــمَ التّحَـــدِّي.. بعـــدما

مات التحـــدِّي.. فـــالعَرينُ[1] إمـــاءُ[2]

يـــا نـــاثراً مِـــزَقَ الـــشَّظايا حولَـــهُ

والمـــوتُ تحـــتَ جراحِـــهِ اســـتِخذاءُ

يا صـــارِخاً بالخـــانعينَ علـــى الـــذُّرا

حُفَـــرُ القتـــالِ ذُراكُـــمُ الـــشَّماءُ

أنْزَلْتَ عن صـــدرِ العروبـــةِ صـــخرةً

وتزحزحـــتْ عـــن دربنـــا غَمَّـــاءُ

صُـــلِبَتْ أمانينـــا.. وديـــسَ وجودُنـــا

وتـــــشامخَتْ أســـــطورةٌ نَكْـــــراءُ

القَهْقَهـــاتُ علـــى دمـــي مَحْمومَـــةٌ

ودمـــــي يَـــــدٌ مغلولـــــةٌ خَرْســـــاءُ

---

(١) العرين: بيت الأسد.

(٢) الإماء: جمع أَمة، الجارية التي تُباع وتُشرى.

قـــالوا: ذَرونـــــا أُمَّــــةً مـــــشلولةً

في الـــرِّيح.. قـــالوا: وحـــدَنا الأحيـــاءُ

رَكِبـــــتْ أســـــاطيرَ البطولـــــة حفنـــــةٌ

عـــن كـــل ســـاحةِ نخـــوةٍ غُرَبـــاءُ

وزهَـــتْ صـــيارفةُ القـــرون ببأســـها

وتململـــت غـــصَصٌ، وعَـــزَّ بُكـــاءُ

عِشْرِين.. بَرْقَعَـتِ الجريمـــةُ وجهَـــا

وخيامُنـــــا مـــــا تَعْـــــرِفُ الأنْـــــواءُ

عِشْرِين.. نُلْفَظُ في الدُّروب فلا لَقىً(١)

أجـــــسادُنا حُـــــسِبَتْ، ولا أشـــــياءُ

عِـــشْرِين.. يلهـــو عـــالَمٌ بجنـــازتي

والحَـــشْرَجاتُ علـــى الرِّمـــال هَبَـــاءُ

عشرين.. يُغْمِضُ عينَـــه عـــن جُثَّتـــي

ويمـــــرُّ.. لا خَجَـــلٌ ولا اســــتحياءُ

وأدقُّ تــــابوتي.. بكفـــــي مـــــرَّةً

وبكفـــــه.. وتلفُّنـــــي رقطـــــاءُ

عشرين.. عشتُ على الطريق جُـزَازةً

بَيْـــعٌ مـــصيري كلُّــــه وشِـــرَاءُ

---

(١) لقىً: شيء تافه يُلقى على الأرض.

قـــالوا: ذرونـــــاهم، فتلــــك قبــــورهم

لا نَأْمَــــــةٌ[1] خَلَجـــــتْ، ولا إيمـــــاءُ

كَــــذَبَتْ مزاميـــــرُ الجريمـــــةِ كلُّهـــا

كَـــذَبتْ طبـــولُ جَنَـــازتي الزَّهْـــراءُ

لـــم نَنْـــزِلِ المَيْـــدانَ.. كانـــت أُمَّتـــي

في القَيْـــدِ. فـــي رِئَتَـــيَّ كـــانَ الـــدَّاءُ

ما حاربَتْ سُـــمْرُ الرِّمـــالِ، ولا مـــشَى

للمَـــــوت، إلا الــــرِّيحُ والـــــضَّوْضاءُ

*   *   *

نِمْنا علــى القيْــدِ الهجــينِ ومَزَّقَــتْ

قَيْـــــدي الهجـــينَ شَـــظِيَّةٌ بكمـــــاءُ

ألقَمْتَهـــا صَـــدْرَ الرِّجـــالِ، فزَغْـــرَدَتْ

حطِّينُ. وافْتَـــتحَ الكِتَـــابَ «حِـــراءُ»[2]

إقْـــرَأ علـــى المُتَـــسكِّعينَ رِســـالتي

بــــــدِماكَ فَلْيَطَّهَـــــرِ الجُبُنَــــــاءُ

إقْـــرأْ علـــيهِم ســـورةَ الفَـــتْحِ التـــي

بيعـــتْ، فدفقـــةُ وهجِهـــا ظَلْمـــاءُ

إقرأْ على المُتَراكــضينَ إلـــى الـــدُّجَى

يَتَخَبَّـــــؤُون وتَخْجَـــــلُ الأضـــــواءُ

---

(١) النأمة: الأنّة، الصوت الضعيف.

(٢) غار حِراء: مَهبط الوحي الأول.

إقــرأْ عليْنــا باســم ربِّــكَ، باســمِنا

باســم العُروبَـــةِ.. كُلُّنـــا إصــغاءُ

عَرَفــتْ ملايينـــي بــصدرك جــسْرها

فَلْيَعْبُـــروا، جِـــسْرُ الخلـــودِ مُـــضاءُ

جِـــسْرُ الحيـــاةِ تمـــورُ فـــي أعماقِنـــا

لَهَبـــاً وتُطفِئُهــــا يَـــدٌ شَـــلاَّءُ

حَملـــتْ شِـــعَارَ الفـــاتحين وهَـــدَّها

تحـــت النِّعـــالِ رخيـــصةً إغـــراءُ

* * *

يا فارسَ الـــصَّحراءِ.. يقتلُهـــا الظَّمـــا

والتِّبـــــرُ رَوَّاحٌ بهــــا غَـــدَّاءُ

يا فارِسَ الـــصَّحراءِ.. يُطْعِـــمُ رَمْلَهـــا

دَمَـــهُ، فَحَــرٌّ جحيمِهـــا أنـــداءُ

ما ماتَ تـــاريخي العَظـــيمُ، ولا انطَفـــا

وَهَـــجُ الـــشَّهادةِ فيـــهِ والـــشُّهَداءُ

ما ماتَ، يا صـــقْرَ الـــسُّويسِ، وإنَّمـــا

سَـــرقَتْ نهـــاري ليلـــةٌ لـــيْلاءُ

زَرعوا الجريمـــةَ فـــوقَ قبـــري مَـــرَّةً

بَـــدْءُ النُّـــشورِ جريمـــةٌ شَـــنْعاءُ

زَرَعـــوا علـــى الأشـــلاءِ إســـرائيلَهم

وتحرَّكـــــتْ لِتقاتـــــلَ الأشْـــــلاءُ

المَيْـــتُ يَـــنْهضُ، والقبـــورُ قـــصيدةٌ
والمُنْــــشِدونَ إلـــى النّـــزالِ ظِمـــاءُ
والفِرْيَةُ الكبـــرى التـــي سَـــلَخوا لهَـــا
جِلْـــدِي لِيَـــسْتُرَ مـــا افْتَـــرَوْهُ غِطَـــاءُ
الفِرْيَـــــةُ الكُبـــــرى تَـــصَدَّعَ ليْلُهـــــا
وتناقَلَـــــــتْ بُهْتانَهـــــــا الأرجـــــاءُ
ما ماتَ تـــاريخي العظـــيمُ.. ســـتَنتَهي
إذْ نَـــــسْتفيقُ القِــــصَّةُ الــــصَّفراءُ
يمحـــو دَمٌ صَـــبَغَ القنـــاةَ هزيمتـــي
ويُطِـــلُّ وجـــهُ حقيقتـــي الوَضَّـــاءُ
الآنَ افْتَـــــتِحُ النِّـــــزَالَ بـــــأمَّتي
وتُـــشِعُّ دنيـــا كالـــضُّحَى عَرْبَـــاءُ
دَقَّ الفـــــدائيون بــــابَ نــــشُورِنا
وكـــألفِ بُـــشرَى بالرســـالةِ.. جـــاؤوا
* * *
يا فارسَ الرملِ الخـضيبِ.. تَمَزَّقَـتْ
بفمـــي الـــسلاسلُ فالـــصريرُ غِنَـــاءُ
إفتَحْ جِراحَـــكَ يـــنغَمِسْ فـــي وَهْجِهـــا
جيلٌ، ويـنـــبِضْ فـــي الـــصخورِ إبـــاءُ
بـــدأَ الربيـــعُ يـــدِبُّ فـــوقَ دَمَارِنـــا
ألـــــمٌ يُجَـــــدِّدُ أُمـــــةً ونـــــداءُ

أَتمُــوتُ؟ يَنْبُــتُ ألــفُ ألــفِ مُقَاتــلٍ

من دَفْــقِ جرحــكَ، تُعــشِبُ البيــداءُ

تَلْقَـــى بِـــصدركَ أُمَّـــةٌ مقهـــورةٌ

مَطَـــرَ القـــذائفِ، أُمَّـــةٌ عـــزلاءُ

الآنَ نبتـــدئُ النـــزالَ، وســـاحةٌ

وطنـــي المُمـــزَّقُ.. ســـاحةٌ ولِقـــاءُ

1969/3/12

كلمات خافتة إلى صَديق راحل

في ذكرى الشاعر الصديق المرحوم
محمد جنيدي

يا شاعر الذروة السمراء!

يا رفيق الألم والشعر والطريق المر الطويل.. كان بودي لو مشيت إلى ذكراك قصيدة حلوة من قصائدك التي غنيت بها العروبة، والجبل، والأمل الأخضر، والخد الأسمر..

كان بودي لو ملأت رئتي بنسمة من أنسام الذروة التي ضمتك بين جناحيها، ورحت أتحدث إليك، أستعيد شريط الماضي، وأعبر مدارج الصبا... يوم:

طَلَعْنا علـــى الـــدنيا صـــلاةً جديـــدةً
عطاشاً ويُسْقى من براعتنـــا الجَـــدْبُ
رحلنا... رحلنـــا جـــائعين.. وزادُنـــا
ولو صُلِبت أحلامُنا.. زادنا الشعبُ(١)

ولكن ظروفاً قاهرة حالت بيني وبين الساعة الحلوة التقي فيها رفيق الألم والشعر والطريق المر الطويل.

---

(١) شعر سليمان العيسى - المجموعة الكاملة - المجلد الثالث، ص208.

ديوانك الأخير بين يدي أقلب صفحاته المخطوطة أقرأ فيها لوحة العذاب التي رسمتها وأنت تصارع الموت، وأقف معك هنا.. وأمضي معك هناك.. وإذا أنت تنتزع حروفك من صدري.. وانتزع حروفي من صدرك.. صخور واحدة تلك التي أنبتتنا.. وعين واحدة تلك التي سقتنا.. وقضية واحدة تلك التي وهبناها الطفولة والشباب وما زلنا نحملها في دمنا أحلام أجيال وأمانة تاريخ.

أتُراني أستمطر على مثواك الرحمة، وكل بيت جميل عطرت به ساحلنا الملهم رحمة ونعمة تعطشت لهما الأرض وتمنتهما السماء.

أأحيي ذكراك.. وكل قصيدة من قصائدك حياة باقية.. وذكرى لا تموت..

ستبقى معنا يا صديقي.. وجهاً تضيئه الابتسامة وكلمة مجنحة، وروحاً نبيلاً..

أتظن الداء يقتل الكلمة الجميلة؟

أتظن الموت يقوى على نغمة صادح غريد؟

كأني بك تقرأ علي الآن أبياتك التي تحوم فوق العذاب.

أبياتك التي تقول:

ويكَ يا داءُ خَلِّ عني فما جُرحي

بنبعٍ ولا فؤادي بقاعِ

خَلِّ عني.. أرى الحياة كما كنت

أراها.. بحيرةً لشراعي

يغرفُ اللجَّةَ العريضةَ مجدافي

ويلتفُّ بالرياحِ ذراعي

وصواريَّ في مدى ملعـــب الـــشمس

يُفـــصِّلن مـــن ســـناها قلاعـــي

ويكَ يا داءُ كم رقصتَ على جرحـــي

وأثقلـــــتَ هيكلـــــي المتـــــداعي

عِشتُ عمري على السراب ولم أظمأْ

ونـــــدَّيتُ بالـــــسرابِ بقـــــاعي

فـــإذا كـــلُّ زهـــرةٍ ثَغـــرُ طفـــلٍ

وإذا كُـــلُّ قَـــصْبَةٍ.. فـــمُ راعـــي

ستبقى معنا..

حنجرة صافية تغني العروبة.. تغني الحب.. ترقرق الأمل.. على الدروب التي يبس فيها الأمل. وانطفأ الرجاء.

ستبقى معنا..

ينبوعاً من ينابيع الجبل السخي الذي يغطي الأصالة والموهبة والإبداع..

ستبقى معنا..

صوتاً من أصوات الثورة العربية التي انطلقت مع هذا الجيل.. في يمناها بؤس العرب وشقاؤهم وتمزقهم بين البراثن منذ أجيال.. وفي يسراها خيوط الفجر الوليد الذي سيظل يتحدى أسوار الظلام.. ولو سقط ألف مرة صريعاً تحت أسوار الظلام.

ستبقى معنا يا رفيق الألم..

يا شاعر الذروة السمراء..

ولن تموت الكلمة العربية التي أنبتتها على شفاهنا صخور الضيعة.. وبيادر الفلاحين.

لن تموت القصيدة التي بدأناها مع الظهيرة اللاهبة والغبار المضني.

فما أضاء التاريخ إلا كلمة بريئة..

ولا سقى عطش الإنسانية

إلا نبي.. أو شاعر.

* * *

طفلُنا الكبير الذي فَقَدناه

محمد الحريري

رفيق الصبا والدراسة.. طفلنا الكبير الذي أحبهُ الجميع.. مات.

نقل إليَّ النبأ صديقٌ من حمص كنت في بيته أتناول فنجان القهوة بعد سفر مرهق. ونفضت غبار الطريق.. وغبار السنين عن عيني.. وارتعش فنجان القهوة في يدي.. ووجدتني فجأة أطوي الزمن.. وأعبر المسافات..

متجعداً أسود كان الزمن..

ودامية حمراء كانت المسافات.

كنا معاً في تجهيز حماة.. في أواخر الثلاثينيات.

أنا الطفل القادم من القهر والاغتصاب، من التراب الأول الذي ضاع..

من وطني الصغير الإسكندرونة.

وهو الشاعر الفتى المندفع براءة وحماسة وشعراً إلى المستقبل.. إلى الحلم.

كان الوطن يقاتل المستعمر القديم، يقاتل بكل ما يملك.. يقاتل حتى بعصافيره الصغار.. بالأطفال..

وكنا نحن أطفاله نحشر أنفسنا في قلب المعركة.

شارع المدينة يغص بالمظاهرة تلو المظاهرة.. ما يكاد يمضي يوم أو يومان حتى تغضب المدينة.. ونخرج لنقاتل المستعمر الدخيل. وكنا فتيان

المرحلة الإعدادية شعراء المعركة.. مرة يحملني الكبار على الأكتاف.. فألقي أنا القصيدة الغاضبة.

ومرة يصعد متن الموجة البشرية رفيق الصبا محمد حريري: فيلقي هو أبيات النار في جماهير حماة، وقصائد الطفولة الغضبى تظل ينبوع الحب والشعر والحنين.

ونجتمع بعد غربة طويلة في دمشق. لقد كبر الأطفال.. وكبرت معهم معركة العروبة.. وهمومها.

وألتقي صديقي القديم.. ويبادرني وجه الطفل البريء الطيب الضاحك، أبداً: عندي قصيدة جديدة.. سأقرؤها لك.

ودون أن ينتظر جوابي.. يمدّ يده إلى ورقة تجعدت أطرافها.. وامتلأت بالخطوط الزرق، وقد ركب بعضها بعضاً.. حتى ليخيل إليك أنها مجموعة ألغاز وطلاسم تستعصي على الحل.

ولكن محمد الحريري.. يقرأ.. يقرأ بعينيه ويديه وشفتيه، يقرأ بكل جارحة من جوارحه.. ينبض، يتحرك.. في كل كلمة، في كل حرف، وإذا الورقة المتجعدة المهملة قد استحالت أمامك قصيدة ونغماً وحياة، لا أعذب، ولا أحلى..

كان محمد الحريري أجمل من قصائده وأخصب وأغنى..

كان هو القصيدة.. يضعها في جيبه ورقة متجعدة ثم ينشرها عليك دنيا من العذوبة والحبّ والشعر، وخفة الدم.

سنوات مرت.. وهو جاري في وزارة التربية. هو في مجلة المعلم العربي وأنا في التوجيه الأول للغة العربية.

وما خلا أسبوع من زيارة أو أكثر، يأتي إلى غرفتي.. يفتح الباب بلطف.. تسبقه نظرته الصافية.. تتلوها ضحكته الوديعة: أنت هنا.. حسناً

سأغلق الباب إذاً، وستسمع مني قصيدة جديدة كتبتها أمس، في الشارع.. في المقهى.. في البيت.. أنا واثق أنه لا يدري هو نفسه أين كتبها؟ وأشعر من أعماقي بالفرحة حين أراه.. أعرف أن أمامي نصف ساعة من الشعر والمرح والصفاء الذي ينسيك هموم الدنيا، ويغسل متاعبك كلها. وما يكاد محمد يبدأ قراءة قصيدته بإلقائه الرائع المعروف، حتى تكون غرفتي قد امتلأت أو كادت بالأصدقاء، بمحبي محمد الحريري.. وإذا نحن في مجلس شعر وأدب وفكاهة خصبة مبدعة.. تظلّ زادنا على الأيام.

- لماذا لا تطبع ديوانك (يا أبا جاسم)؟ هذا هو اللقب المحبب الذي كنت به أناديه..

- أنت تعرف يا سليمان أن الشعر حياة.. قبل أن يكون تسجيلاً على الورق، وأنا أحب أن أعيش شعري بنفسي..

- ولكننا سنزول.. ويبقى الشعر الذي هو نبض الحياة الأعلى والأجمل. أنا أصرّ أن تنفض عنك الكسل، وتبدأ فتجمع ديوانك وترتبه، وتعده بنفسك للنشر.

ويضحك محمد الحريري..

- سأفعل.. سأباشر منذ الليلة تبييض قصائدي وترتيبها. ولكني كنت على ثقة أنه لن يفعل، فأنا أعرف رفيق الصبا.. أعرف أنه لن يجمع شعره، ولن ينشره.. لأنه مشغولٌ بالحياة نفسها.. مشغول بطفولته.. مشغول بحبه الذي وزّعه على أصدقائه وصديقاته، على كلّ من رآه وتحدّث إليه.. على كل حبة تراب في هذا الوطن.

بقي علينا نحن يا رفيق الصبا... يا صديق الشعر والحب والذكريات. بقي علينا نحن (يا أبا جاسم) أن نجمع شعرك.. وأن نحيا فيك وتحيا فينا.. بعد رحيلكَ.. أيها العزيز.

العامِلةُ الأولى.. دَعد

مهداة إلى دعد أبيض

نكسة الخامس من حزيران..

مأساة هذا اليوم..

سأكتب عنها بشكل آخر..

سأتحدث عنها بصورة مختلفة.

*   *   *

«العاملة الأولى..

لقد أعطوني لقبَ العاملة الأولى في الطبقة..»(١)

كان صوتها على الهاتف يشَرَقُ بالفرح. يقطر بنشوة الكلمات.

قبل أن تسألني عن صحتي، وعن أخبار الصغار الذين تحبهم، بادرتني بهذه العبارة وهي تزقزق في غبطة الطفل يتلقى أروع هدية يستطيع أن يحلم بها:

«لقد أعطوني لقب العاملة الأولى في المشروع..»(٢)

---

(١) مدينة الثورة الآن.

(٢) مشروع سد الفرات في سورية.

الطبقة.. المشروع.. العمل الدائب الذي لا يهدأ نهاراً، ولا يستريح ليلاً.. أسماء نسمعها نحن من بعيد، فنعجب أحياناً، ونُثني عليها أحياناً، وربما خطر لأحدنا أن يهز كتفيه - مع الأسى والألم - ويمضي غير مكترث بشيء.

أما هي.. أما هذه الأسماء بالذات.. هذه الأسماء التي يأتينا صداها من بعيد، من وراء البادية، من شمال هذا البلد العزيز الجريح، فإنها عندي نوافذ المستقبل، أبواب الغد العريض تُفتَح على مهل ليتدفقَ منها ميلادُ هذا الشعب، لتصلنا بركب الحياة، لتزرعَ الخصوبة في أرضنا، وفي حياتنا البائسة المقفرة على السواء.

«العاملة الأولى.. في المشروع».

وتثب إلى ذهني ذكرى بعيدة..

وأتخيل هذه الممرضة النحيلة تُنفِق زهرةَ الشباب في غرفة صغيرة من مستشفى المواساة بدمشق.. تقف كل ساعة من ساعات الليل والنهار على خدمة المرضى، وإسعاف المصابين.. وتَسهر الليالي الطوال لتخفف زفرة من متألم، أو تكفكف أنة من مُوجَع.. لا تكاد تجدُ لحظة، أو قل لا ترضى أن تجد لحظة تسكن فيها إلى الراحة، أو تتناول فيها لقمة تقيم بها الأَوَد.

الراحة، الطعام، النُزهة، العطلة، لحظاتُ التسلية.. كلُّ هذه الضروريات كانت دعد - وما تزال - تراها أشياء محرمة، أو شبه محرمة عليها.

أربعة عشر عاماً في غرفة صغيرة بالمستشفى.

إلى جوار المرضى والمصابين المتألمين..

لا تكاد تُبيح لنفسها ساعة نوم..

ولا عرفت لحظة هدوء..

تفيء إليها كما يفيء إلى الراحة والهدوء سائر الناس.

* * *

ثم كان مشروع الفرات.

وكانت «الطبقة».. وغادرت دعد المستشفى بعد أن تركت فيه مكتبة صغيرة ما تزال تحمل اسمها. وطارت بجسمها الضامر النحيل إلى المشروع الضخم تهب نفسها للعمل الصامت الدائب من جديد..

ومرت أعوام ثلاثة..

وانغمست هذه «القديسة» الصغيرة في الخدمة..

خدمة الناس..

أليس المشروعُ الضخم خلية عمل وعمال؟

سيكون كثير من هؤلاء الجنود العاملين الذين يبنون مستقبل هذا البلد، في حاجة كل يوم، بل كل ساعة، إلى اليد الحانية المتفانية، تعينهم على ما يتعرضون له من آلام، وتمسح عنهم وعن أسرهم وصغارهم ما يلم بهم من أوجاع.. تعطيهم دون حساب.

وتلفت الممرضة النحيلة المتفانية نظر رؤسائها وهي لا تكاد تعي شيئاً مما حولها إلا عملها..

ويعرض عليها الزواج غير مرة، فتبتسم في غير اكتراث.. وتُعرِض عنه إلى الأبد.

ويحبها الجميع...

ويعرفُ قَدرها وقدرَ تضحياتها الجميع..

ويراها الصغارُ والكبار قريبة إليهم..

تخِفُّ إلى كل من يشكو أو يتألم قبل أن يسألها ذلك أحد، أو يطلب إليها العونَ أحد، فيودون لو كافأوها. ولكن دعد ترفض كل مكافأة.. حتى أيام عُطلتها تُنفقها في العمل.. وتُهدي عملَها - هكذا قررت غير مرة - إلى الفدائيين.

وينشغل زميل أو زميلة في أمر خاص، ويحتاج إلى من ينوب عنه، ويحل محله في العمل، ولا يسأل..

دعد موجودة.. وستأخذ مكانه بالإضافة إلى عملها، أياً كان السبب.

* * *

وتُحِسُّ الممرضة النحيلةُ السمراءُ أن في غير «الطبقة» أيضاً أناساً يتألمون، ويحتاجون إلى الرعاية.

وتعقِصُ شعرها الجَعْدَ وراء رأسها، كي تختصرَ العناية به، فلم يكن لديها في يوم من الأيام وقت لمثل هذه الأمور، وتحمل بيدها كيساً كبيراً تملؤه بالأدوية، ثم تنطلق في القرى المجاورة، وفي خيام البدو، تنتقل بحذاء المطاط العالي من بيت إلى بيت، ومن خيمة إلى خيمة، تسأل عن المرضى قبل أن يسألوا عنها.

ويألفُ الفلاحون والبدوُ الطيبون منظرَ دعد.. تهبطُ عليهم فجأة كأنسام الرحمة، تسألهم عما يعانون وما يشكون، وتسهر مع مرضاهم حتى الصباح، وتبيتُ على الطوى[١] في معظم ليالي الحراسة التي تفرضها على نفسها، وتمشي في الطين و الغبار، والحر والقر، لا فرق عندها بين وعر وسهل، ورطوبة وجفاف.

كانت تخجل أن تقول: إنها مُتعبة. وكلٌّ من حولها يناشدها أن ترتاح.

كانت تخجل أن تقول: إنها جائعة. والطعام وَفر لو شاءت.

وهل يأكل من وهبَ نفسه للعمل؟

هكذا كانت تحاكم الأمور.. وتحكم عليها..

التضحية جوع وحرمان.. فلتزهد إذا حتى في اللقمةِ السائغة، ولتواصلِ الكفاح.

---

(١) الطوى: الجوع.

حتى راتبها الضئيل.. ما تكاد تتسلمه بيد حتى توزعه، أو توزع معظمه على المحتاجين - في رأيها - باليد الأخرى.

* * *

إن لقب العاملة الأولى لَوسامٌ..

وسامٌ كبير تنتزعه ممرضة «الطبقة» النحيلة السمراء، وأنا واثق أنها لم تفكر فيه يوماً، ولا خَطرَ لها على بال.

وإنها لسعيدة باللقب..

سعيدةٌ بهذا الوسام الصامت المضيء..

سعيدةٌ به حتى لتكاد تشرق بالدمعة، دمعة الفرح، وهي تلقيه إليّ مساء أمس في الهاتف من بعيد.

* * *

نعم يا دعد..

اللقبُ ضخم.. والوسامُ كبير..

وإنَّا جميعاً لنَعَتزُّ به وبكِ في صمتٍ ورضاً عميقين.

لقد آثرتُ أن تكون لكِ هذه التحيةُ على الورق. وإنها لأقل ما نستطيع أن نقدمه إليك في مثل هذا اليوم، يوم الخامس من حزيران، نقدمه إليك وإلى رفيقاتك ورفاقك جنودِ «الطبقة»، وبُناةِ المستقبل، وخلايا هذا الوطن الحية التي تجدد شبابَه، وتعيد له العافيةَ والنور والحياة.

من هنا نبدأ.. يا دعد.

من هنا ينبغي أن نبدأ في الرد على العدوان الأسود، والجراح السود التي تنزف من أعماق أمتنا، ووطننا الممزق المنكوب.

إن العمل في صمت لا يقلُّ قدسية وروعة عن الاستشهاد في صمت.

ذلك درس يزرعه في صدور الجيل من يعطي كل ذرة من وجوده ليوقف هذا الطوفان الأسود، ويبدأ على هذه الأرض أرضنا العربية الطيبة خيوطَ صباح جديد.

* * *

لم أكتب عنك شيئاً حتى الآن، لم أذكر من تفاصيل اللوحة إلا القليل القليل. ومع ذلك فقد بَقِيَتْ همسة... أُسِرُّها إليك أيتها «القديسة» الصغيرة، ولا يهمني أن يسمعها أحد.

تتحدث الكتبُ الأجنبية، وننقلُ نحن حديثها إلى أطفالنا وتلامذتنا في كُتُبنا المدرسية، عن ممرضة شابة كانت تتفانى في العمل، وتُنكر ذاتها في أداء الواجب، اسمها فلورنس نايتنجيل.

ويقيناً أنها لم تُعطِ بَلدها، ولم تُعطِ الإنسانيةَ ما أعطت دعد أبيض.

إنها همسة.. مجرد همسة..

ولا يهمني، أو يهمك، أن يسمعها أحد.

حزيران: 1971

* * *

على ضريح رفيق الطفولة

مسعود الغانم

وهكذا.. يا رفيقَ الطفولة.. نُلقي رأسَنا المُتعبَ على حفنة من تراب الوطن.. ونستريح.

صراعاً.. كانت الرحلة..

صراعاً مُرّاً لا يَرحَم..

ولكنه لا يُساوم.. ولا يكفر بشيء.

حفنة من تراب الوطن الذي أحببناه.. وأعطيناه كل شيء.. وأعطانا نعمةَ المرارة والغربة.. في أرض الآباء والأجداد.

حفنةٌ من تراب الوطن.. تُلقي رأسكَ عليها.. وتستريح.

ونُلقي غداً رأسنا.. ولكن.. هل نستريح؟

ويمرُّ الشريطُ الدامي أمامَ ناظريَّ.. يمرُّ الشريطُ الدامي في هذه اللحظات.. لحظاتِ الوداع الأخير، والحب الأخير، يا رفيق الفجر الأول.. يا أبا سنان!

على مقعد نحيل في مدرسة العفَّان الابتدائية..

لقيتُكَ أول مرة..

طفلٌ في الصف الخامس الابتدائي.. نقي كشعاع الشمس في يوم من ربيع أنطاكية.. يجلسُ على المقعد النحيل في مدرسة العفَّان الابتدائية، يفسح

مكاناً إلى جانبه لطفل نحيل آخر.. قادم من القرية.. يبحث عن مقعد في المدرسة لجسمه الضامر، وعن قطرة نور لعينيه الظامئتين.

بحب عميق، صاف، بريء.. ما أزالُ أذكر.. مددت إليَّ يدكَ الصغيرة.. ودعوتني لأجلسَ إلى جانبك.. ما أزالُ أذكر.

كان هناكَ طفلٌ أكبر منا قليلاً.. اسمه: وهيب.. يقفُ إلى جوارنا.. ويحاول بهؤلاء الأطفال.. أطفالِ اللواء.. أطفالِ العروبة أن يدقَّ باب العروبة.. ليفتحَ المستقبل على مصراعيه، ونبدأ منذ تلك اللحظات حملَ النار المقدسة، وبناءَ الوحدة، وتفجيرَ الأرض العربية تجديداً، وحباً وعطاء بلا حدود.

ومن المقعد النحيل..

من مدرسة العفان الفقيرة العظيمة التي فجر فيها أبوك العظيم الشيخ صالح الغانم، وأستاذُك الخالد.. زكي الأرسوزي شرارات الرسالة.. من المقعد النحيل مضينا في رحلة العمر.. بعد أن وأدوا «لواءنا» الأخضر، ووأدوا معه طفولتنا الفقيرة العنيدة التي لم تهادن. ولم تنهزم.

من شوارع العفان انطلقنا نُبَشِّر بالقيامة العربية، بالجذور الباحثة عن الشمس، العائدة إلى الشمس.. بالغد الأخضر الذي يتغذى بالبؤس، ويعيش على الجوع والقهر والعذاب.. وما نزال نحمل غدنا الأخضر، ونحن نُلقي برأسنا، الواحد تلو الآخر، على حفنة من تراب الوطن، ما نزال نحمل أحلامَ هذه الأمة، أمتنا المنكوبة، الرائعة، الممزَّقة.. والموتُ يُصرُّ، ونحن نُصِرُّ على أن المرض الذي من حولنا طارئ، مهما غلغل ومهما استشرى، وأن حلمنا العربي العظيم هو الصحة والعافية.. وأن كلَّ ما عداه باطلٌ.. وقبضُ الريح.

صراعٌ مع الغربة.. في أرض الآباء والأجداد..

صراعٌ مع البؤس والمرارة والحرمان..

في أرض الخير، والحب، والعطاء..

صراعٌ مع المرض.. وقد أصرَّ على أن يَخطفَكَ منا بعيداً بعيداً عن رفاقك وتلاميذك الذين أحبُّوكَ وأحببتَهم، وكانوا أبداً معك.. وكنت أبداً معهم.

صراعٌ مع أنهار الظُّلم والغزو والعدوان.. منذ فتحنا أعيننا على النور.. وأخذنا نعي الحياة.

رحلة مُرةٌ دامية.. من شوارع العفان الفقيرة العنيدة. إلى أقصى نبضة في وطننا العربي الكبير.

نعم.. يا رفيق العذاب.. أطفالُ اللواء الأخضر لم يعرفوا في يوم من الأيام وما أظنهم يعرفون إلا وطناً عربياً واحداً، وهَمّاً عربياً واحداً.. ومصيراً - كيفما كان المصيرُ - واحداً. ولقد كنا ندرك منذ الخطوة الأولى، منذ الغربة الأولى، أن الطريق طويل، طويل.. وأننا جيلٌ منذورٌ للألم.. مولود للعذاب..

ذلك كانَ قَدَرنا..

وإنا بقَدَرِنا قانعون.

* * *

على حفنةٍ من تراب الوطن الغالي..

تُلقي الآن رأسكَ المُجهدَ.. وتستريح..

ويبقى الهمُّ الكبير.. يبقى الحُلُم العظيم.. يبقى نَبَضاتٍ مكدودةً في العروق، وإصراراً في العيون، وطفولةً عربية وُئدت ألفَ مرة.. ولكنها ما تزال تتشبث بالينابيع.. بصَرخات النشور الأولى.. وهي قانعةٌ قناعةَ الشمس بالشروق، وربيع أنطاكية بالجمال، أنَّ العروبة هي الأقوى.. وأنَّ هذه الأمة لن تموت..

أيها المتعب الكبير.. يا رفيق الهمِّ والعمر.. يا أبا نمير[(١)]... مسعود.. الوديع، الطيب، الوفي، لم يكن أخاك وحدك. كان أخانا ورفيقنا جميعاً.. كان أخا الرحلة المُرَّة التي بدأناها معاً وعشناها معاً.. فاسمح لي أختم

---

(١) أبو نمير: الدكتور وهيب الغانم.

هذه الزفرة على ضريح مسعود بكلمة اعتراف ووفاء أنك كنت القلب الذي وسع الجميع، وأعطى الجميع.. وما يزال شجرة الحب التي يفيء إلى ظلالها وأخلاقها رفاقُ الغربة.. من بقي منهم.. ومن رَحَل.

للراحل العزيز.. أبواب السماء.. وأَرَجُ الذكر والثناء.. ولكَ، وللأهل، والأخوة جميعاً.. جميلُ العزاء.

يا بَسمةَ الطفلِ.. يَبقى الأنبيـــاءُ علـــى

عَرْشِ الطفولةِ.. ما شَبُّوا، وما كَبِـــرُوا

اللاذقية: 1981/4/23

* * *

مَن يَذكُرُ ذلكَ الزَّمن؟

كتبت هذه الكلمة لتكون مقدمة لآثار أستاذي المرحوم أديب الطيار عند صدورها آثرت تسجيلها وفاء لذكرى ذلك الإنسان الشفاف، وهي ـ في الوقت نفسه ـ إحدى الصُّوى على طريق العمر

خريف عام 1939

من يذكرُ ذلك الزمن؟

كنا في مطلع العمر، نسمع أصداء من بعيد أن حرباً طاحنة تدق أبواب العالم، وتنذر بالدمار والخراب.

ولكن.. ما لنا وللأصداء القاتمة التي تأتي من بعيد؟

حَسبُنا ما نحن فيه..

كاتبُ هذه السطور فتى صغير مشرَّد..

يُسلَخ مهده الأول عن جسد الوطن الأُم.

فيقطع المسافة من مدينة انطاكية إلى جسر الشغور[١] مَشياً على قَدَمَيه.. وتَدمى قدماه في الطريق..

(١) جسر الشغور: بلدة صغيرة في شمالي سورية.

ويُلح عليه الجوعُ والتعب..

ولكنه يُصر، هو وأخوه الكبير، على أن يلتحقا بجسد الوطن الأُم، وأن يظلا مرتبطين بالجذور.

عام 1939

من ينسى ذلك الزمن القاتم؟

وبنصف ليرة سورية يستطيع الشقيقان المشرَّدان أن يمتطيا شاحنةً عتيقةً إلى جانب السائق، وأن يصلا إلى اللاذقية، عروسِ الموج، وزُمُرَّدةِ الشاطئ العربي، منذ كان الموجُ وكان الشاطئ..

علـــى قــــدمَيكِ أختـــصِرُ العــــذابا
وأســــتجدي الطفولــــةَ والــــشبابا[(١)]

خريف 1939

من يستطيع أن ينسلخ عن شقائه الأول..

عن الحسك المرِّ الذي يُفرض على الأطفال..

أن يكون قوتَ الأطفال، ونصيبهم من الحياة؟

فلأوجزِ إذاً قَدرَ ما أستطيع..

ولأُسرِع إلى ما أُريد.

*   *   *

في قرية محرومة بائسة من قُرى اللاذقية يستقر أخي معلماً.. وفي ثانوية «جول جَمَّال» - تجهيز البنين آنذاك - يستقرُّ الشاعر الصغير المشرَّد في الصف الثالث من المرحلة المتوسطة - الإعدادية -.

---

(١) البيت مطلع قصيدة «عروس الموج» التي أهداها الشاعر إلى اللاذقية، وأنشدها في مهرجان ثانوية «جول جمال»: شعر سليمان العيسى - المجموعة الكاملة - المجلد الثالث ص187.

المدرسة يديرها مديرٌ عربي، ويعلِّم فيها أساتذةٌ عرب.

ولكن عدداً من الأساتذة الفرنسيين يشرفون عليها، يحاولون أن يضعوا يدهم على كل صغيرة وكبيرة، في المدرسة وخارج المدرسة، ويشددون الخناق على كل همسة وطنية تدور فيها.

وتتمرد المدرسة على الخناق المضروب عليها..

وتمتلئ بالطلاب الشباب الذين يحملون أحلامهم العربية الغضة ناراً من حماسة وتطلُّع عطشان.

وكان التطلُّع العطشان في عروس الموج، وفي غيرها من مدن سورية العربية، يتلخص في عبارتين اثنتين.

جلاء الغاصب.

الحرية والاستقلال.

انطلاقاً منهما إلى حلم العرب الأول، وهدفهم المنشود:

الوحدة العربية.

* * *

خريف 1939

في نَبَضات الذاكرة التي لا تموت يعيش ذلك الزمن.

من يستطيع أن ينسى؟

أكثر من أربعين طالباً يحتشدون في حجرة صغيرة من الطابق الثاني في «التجهيز» الذي يغص بالأحلام العربية الغضة، والتطلُّع المتمرد العطشان.

شجرة ضخمة خضراء، ما زالت في رأسي، تقوم أمام النافذة، وتطل بفروعها الشامخة في كل اتجاه، حتى لتكاد تقتحم علينا غرفة الصف.

الطلاب الفتيان الأربعون يشدون أعينهم في المنبر، وينصتون في لهفة إلى مدرّس نحيل أشقر، تتدلى خصلة شعر على جبينه العريض، وهو يُلقي درساً في التاريخ.

كان الدرس عن معركة اليرموك.. ما أزال أذكر.

المدرّس النحيل الأشقر لم يكن يلقي علينا مادة تاريخ. كان يحاول أن ينقل صليل السيوف، وصهيل الخيل، ونار الفروسية العربية إلى طلابه الأربعين.

كان يحاول أن يجعلَ الصف ساحة المعركة..

وأن يجعلنا نحن الفتيان الأربعين جنود اليرموك.

وأدير رأسي قليلاً إلى زميلي في المقعد وأهمس:

ألم تقل لي إن الأستاذ مدرِّس لغة عربية؟

- بلى، هو كذلك. ولكنهم صرفوه عن اللغة العربية إلى التاريخ، ليبعدوه، في رأيهم، عن إشعال الروح الوطنية في الطلاب.

- الحمقى.. ألا يعرفون أن تاريخنا براكين نار ونور؟

وأعجبتْ زميلي في المقعد عبارتي الأخيرة: «براكين نار ونور»، وهزَّ رأسه موافقاً، ورحنا نتابع معاً مدرسنا النحيل الأشقر في حديثه الحي الملتهب عن اليرموك.

كان ذلك أول لقاء لي بالمدرّس العربي الشاب أديب الطيار، في الصف الثالث الإعدادي، من تجهيز البنين في اللاذقية - ثانوية جول جمَّال .

ويمضي أسبوع أو أسبوعان.. لا أذكر.

ويُجري لنا مدرّسنا العربي الشاب اختباراً تحريرياً في التاريخ.

ويدخل الصَّف ذات صباح بعد الاختبار، وفي يده ورقة قد فصلها عن بقية أوراق الطلاب. ويسأل وهو يرفع الورقة في يده، وعلى وجهه المشرق ابتسامة هادئة مشرقة تغمر قوامه الضامر النحيل كله:

من منكم الطالب سليمان العيسى؟

وأُطرق برأسي خجلاً، وفي أعماقي تمشي قُشَعْريرةُ زهوٍ وعنفوان..

ويومئ زميلي في المقعد إلى الأستاذ، مشيراً بإصبعه إلي:

هذا هو يا أستاذ.

ويضيف دون أن يتوقف:

إِنه شاعر جاء من اللواء السليب ليتابع معنا النضال.

ويترك المدرس الشاب المنبر، ويتقدم إليّ بخطىً وئيدة، وورقة الاختبار ما تزال في يده، ويقول لي على مسمع من رفاق الصف كله:

هذه ورقة رائعة. أعطيتها عشرين من عشرين. ويُردف قائلاً:

لماذا لم أعرفك حتى الآن؟ ستأتي إليّ بعد الدرس، فإني أُريد أن أتحدث إليك، وتتحدث إليّ.

ثم يلتفت إلى زملائي، ويلخص لهم ما كتبته في إجابتي، ويقرأ عليهم بعض المقاطع.

كانت الإجابة تتمة لحديث الأستاذ الحي الملتهب..

كانت شيئاً من التاريخ والثورة والألم والماضي والحاضر.. حشَدَ فيها كل ما يستطيع أن يحشده من حماسة وعفوية طالب شاعر في مطلع العمر، يحمل غربته على كتفيه، ويحاول أن يدق باب المستقبل العربي بكل ما يملك من صبوات وأحلام.

* * *

التقيت أُستاذي الشاب أديب الطيار بعد الدرس، وتحدثت إليه، وتحدث إلى تلميذه الشاعر الصغير طويلاً.

وعُقدت بين المدرس المتَّقد وطنيةً وعفويةً وحماسة، وبين تلميذه القادم من البلد القتيل، عُرى صداقة فيها الكثير من الحب والبساطة والألم المشترك.

كانت صداقة أحلام واحدة، ومصير واحد يشدنا جميعاً. بخيوطه الخفية دون أن ندري.

مصير واحد ربما غفلنا عنه، وربما أنكرناه، بل ربما أعملنا فيه الخناجر ذبحاً وتقطيعاً، كما يفعل أهلُنا العرب المرضى في أكثر من بقعة على أرض العرب، في هذا الزمن الذي تعوّد هؤلاء المرضى أنفسهم أن يسموه الزمن المحزِن التعِس.

ولكنه يظل مصيراً واحداً يشدنا جميعاً بخيوطه الخفية. إنه المصير الذي لا يتقسم ولا يتجزأ ولا يموت.

* * *

وأُغادر ثانوية «جول جمَّال» إلى دمشق.

ثم إلى بغداد.. أُتابع دراستي وغربتي في أرض الأجداد.

وتبقى ذكريات عروس الموج..

ذكريات اللاذقية، وثانوية جول جمَّال..

ودروس بعض أساتذتي الذين حملتهم في خاطري عروبةً وأحلاماً بعيدة. وفي مقدمتهم المدرّس الضامر، المشرق القَسَمات أديب الطيار.

وتمضي الأعوام..

لا أرى أُستاذي القديم، ولا يراني، لسوء الحظ.

ولكني لا أفتأ أتتبع أخباره ما وجدت إلى ذلك سبيلا.

أسمع أنه يقيم في تلك البقعة الخضراء التي احتشد فيها الشعر والقمة الشامخة والنسمة النقية والجمال المتمرد على الحدود.

أعرف أنه يقيم في صافيتا..

وأنه يواصل حياة التدريس والشعر والأدب والنضال.. على تلك القمم الخضر من بلادي..

وأنه يخوض معارك الانتخابات من حين إلى حين دفاعاً عن أحلامه العربية التي كان يحملها شاباً في ثانوية «جول جمَّال»..

وأن تلاميذه الفتيان قد شبوا عن الطوق، وحملوا راية الكفاح القومي، واندفعوا في الطريق إلى الهدف العظيم.. بعث الأُمَّة العربية، وعودتها إلى مسرح التاريخ، أُمَّة عربية واحدة، ووطناً عربياً واحداً.. يأخذ مكانه الجدير به تحت الشمس.. وأن من هؤلاء التلاميذ من أمسك بدفة السفينة في هذا الوطن العربي الممزق الكبير، وراح يصارع الأمواج العاتية، صامداً متحدياً كل شيء.

وأقف أحياناً في لحظات تأمل طويل عميق..

أستعرض الماضي، وأقف عند الجراح العربية التي يبس بعضها، وما يزال بعضها ينزف..

ينزف حتى اليأس.. ولن نيأس.

ينزف حتى الموت.. ولن نموت.

وأرسل زفرةً من الأعماق..

وأبقى متشبثاً بالجذور..

* * *

ومنذ أيام..

بعد أربعين عاماً ونيف من بدء الخيوط الأُولى لهذه الذكريات.. يدخل عليّ صديق كريم يحمل بين يديه إضبارة من الورق ليقول لي:

هذه آثار أُستاذك المرحوم أديب الطيار، أو بعض من آثاره، نريد أن نخرجها إلى النور مطبوعة في كتاب.

ونريد أن تكون لك في مقدمتها كلمة..

*   *   *

آثار أستاذي، أو بعض آثاره.

يا للذكرى الحلوة المُرَّة!

ويمتد أمام عيني بلمح البصر شريط من الأيام، طوله أربعون عاماً ونيف، عانينا فيه ما عانينا، وتجرعنا فيه ما تجرعنا من كوارث ومحن.. فماذا أكتب؟ وماذا أقول؟

كان أديب الطيار ببساطة واحداً من هؤلاء الذين يحملون الكنوز الإنسانية في قلبهم، في حياتهم، أكثر مما يتركونها مدونة على الورق.

كانت حياته كتاباً خصباً حلواً مفتوحاً لتلامذته، لأصدقائه، للوطن، للحب، للناس أجمعين.

وما أصعبَ أن يتجسد مثل هذا على الورق!

ومن المحزن ألاَّ يبقى بين أيدينا إلاَّ ما يُسجَّل ويُدوَّن..

إن أوراق الخريف التي تتناثر على الطريق ليست إلا الشيء الزهيد اليسير من حياة الشجر الأخضر المورق الفينان.

دمشق: 1981/9/16

*   *   *

صدقي إسماعيل

في ذكرى رحيله

يَلُمُّــكَ القبــرُ عــن جفنـــي، وتبتـــسمُ
فالليـــلُ صـــوتُكَ.. لا مـــوتٌ ولا عَـــدَمُ
يَلُمُّــكَ القبــرُ عــن جفنـــي.. وتَــسكبني
قـــصيدةً فـــالفراغُ المـــرُّ منهـــزمُ
وتـــستفيقُ علـــى أَهـــدابِنا مَرَحـــاً
مـــن راحتيـــهِ كنـــوزُ الأرض تُقْتَـــسَمُ
وضـــحكةً حلـــوةً تَهمـــي الـــسماءُ بهـــا
كأنمـــا أنبيـــاءُ الحـــب مـــا خُتِمـــوا
يسافرُ الجرحُ فـــي صـــدري وتَـــصْحَبني
لا الصحوُ يَطويكَ عن جفنـــي ولا الحُلُـــم
هذا شريطُ الهـــوى.. مـــن أيـــنَ أبـــدؤُه
من أينَ؟ اضـــعفُ مـــن أخبارنـــا الكَلِـــمُ
أرثيـــكَ؟ يعـــصرني عُمْـــرٌ بقبـــضتهِ
فـــالعودُ بـــالمطلع المجـــروح مـــنحطِمُ

* * *

قصائدُ الـــريح فـــي دمعـــي وحَنْجَرتـــي
إليـــك يـــا طفلهـــا العمـــلاقَ تحـــتكمُ
أرثيك؟ تحتـــرق الآهـــاتُ فـــي وتـــري
وأنـــتَ بالبـــسمة الزهـــراء تعتـــصمُ
صـــدقي.. ينابيعنـــا الخـــضراءُ تـــسألني
لا الدمعُ رَدَّ علـــى الـــشكوى ولا الـــنغمُ
تركتَهـــا فـــي هجيـــرِ الـــشوق واجمـــةً
والعاصـــفاتُ وراء الـــصمتِ تحتـــدمُ
رحلـــتَ، والـــدربُ صـــحراءٌ مجرَّحَـــة
والغيمـــةُ البكـــر مـــلءَ الأفـــقِ ترتـــسمُ
رحلتَ، والجِيـــلُ مـــصلوب علـــى ظمـــأٍ
والـــنجم بالمحنـــة العميـــاء يلتـــثمُ
ما كـــان أظمـــأَ صـــحرائي إلـــى مطـــرٍ
مـــن البـــراءة لـــم تحلُـــم بـــه الـــدِّيَمُ!
اللاهثـــون علـــى أمجـــاد عوســـجةٍ
قتلـــتَ نفـــسكَ ضـــوءاً فاديـــاً لهمـــو
تساقطوا فـــي بريـــق الـــدرب وانطفـــأوا
فهـــاتِ ركبـــاً لهـــذا الـــشوط غيرَهمـــو

*   *   *

صدقي.. وتنهمر الأعوام في حدقي

عطشى، وتستبقُ الذكرى وتزدحمُ

أدق بابكَ ملهوفاً فيفتح لي

قلبُ السماوات في عينيكَ ينسجمُ

ونستريحُ على شطآنِ غربتنا

سيانِ في جَسَدينا البرءُ والسَّقَمُ

سيان.. يا جوعَنا الدامي وزفرتَنا

دربُ الرسالةِ.. لا شكوى ولا ندمُ

ضريبةُ الفكرة الأولى.. سنزرعها

تمزقت رئةٌ، أو أُحرِقت قَدَمُ

تَلَقَفَّت ضفةُ - العاصي - طفولتها

والأنبياءُ صغارٌ.. والطريقُ دمُ

البعثُ.. غمغمةٌ أُولى تؤرقنا

وزادنا الهجرة السوداءُ والظُّلَمُ

نُصرٌ أنَّا ملايينٌ مصلَّبةٌ

على الرمال.. وأنا النَّذْرُ والقَسَمُ

في كِسرةِ الخبزِ كنا صوتَ أمتنا

غضبانَ.. يُشرق فيه النبلُ والكرمُ

في لسعة البرد.. كنا فجر وحدتها

وما نزال.. وظهر الفجرِ منقصمُ

نُــصِرٌ أنَّــا علــى الــصحراء أغنيـــةٌ
تجــوع، تَعْــرَى، ولكــن لــيس تنهــزمُ
نُصِرٌ أَنَّ ــ أبــا ذر[1] ــ قــد انحــسرت
عن جلدهِ الأرضُ، فهــو الأرض والقــيمُ
البعث.. ســله، رضــينا مــن مــسيرته
عــودَ الــصليبِ.. رضــينا أننــا الألَــمُ
ضـــريبة الوحـــدة الكبـــرى.. وزائلـــةٌ
كــلُّ الوحــول، ويبقــى ســيلُها العــرِمُ
ينـــام فـــي رحـــم التـــاريخ معجـــزةً
ينام فــي ضــحكة الأطفــال وحــدهمو
ينـــام.. مـــا انـــدثرت إلا خنـــاجره
ومـــات إلا جبـــان منـــه ينـــتقمُ
ضـــريبة الوحـــدة الكبـــرى.. ســنزرعها
والــسيف فــي زنــدنا المبتــور منــثلمُ
والـــساخرون.. تركنـــاهم وســـخرهمو
واللاهثـــون.. أَلِفنـــاهم وجوعهمـــو
نُــصِرٌ.. والنكــسات الــسود تــسحقُنا
أرض النبوات لــم يَيــبسْ بهــا الــرَّحِمُ
دم الفـــداءِ طـــريٌّ فـــي خنادقنـــا
مــا نــام عــن ثــأره شــعب ولا عَلَــمُ

(1) الثائر العظيم أبو ذر الغفاري.

نـــسورنا.. ويُجَـــنُّ الـــشوطُ منتظـــراً
لو قُطِّعَــتْ مــرةً عــن خيلنــا اللُّجُــمُ!

*   *   *

يـــا فـــارسَ القلـــم الأَعلـــى.. تُحَمِّلُـــه
مـــا لـــيسَ يَحملُـــه جهـــد ولا قلـــمُ
قاتلـــتَ بالكلمـــاتِ الخـــضر ســـاحرةً
شـــبابُها بـــشباب الـــدهر ملـــتحمُ
قاتلـــت بالحـــب قنـــديلاً تـــضيء بـــه
من آثروا ضوءكَ الصافي ومــن رَجَمــوا
تبـــارك النبـــعُ يَـــسقي.. لا ســـؤالَ لـــه
عَفَّ العطـــاشُ علـــى جنبيـــه أم أَثِمـــوا
طفولـــــة لوَّنـــــت بالحـــــب رحلتنـــــا
حتـــى انتـــشى بـــالعبير الـــسفح والقمـــمُ
دم العروبـــــة.. يـــــا ســـــاقي محابرنـــــا
يـــا جمـــرة برمـــاد العمـــر تـــضطرمُ
بـــه كتبنـــا.. لـــه غنـــت قـــصائدنا
فحرفنــــا بحنــــين الرمــــل يَتَّــــسمُ
لـــم نلتـــزم لـــون عَيْنَيْنـــا بريـــشتنا
لـــم نلتـــزم جلـــدنا يومـــاً إذا التَزَمـــوا

تنفــست رئـــة الـــصحراء فـــي دمنـــا

فـــنحن أطفالهـــا أنـــى ارتمـــت بهمـــو

لأننـــــا لــــم نبـــع بالــــشمس وقفتنــــا

نحاســـب الــــشمس إنْ حــــادت ونَـــتَّهِمُ

* * *

صدقي.. حديث الهوى جمر على شــفتي

فكيف أُســكت عــودي.. كيــف أختــتمُ؟

لنـــا قـــصائدُ لـــم تُكتَــبْ.. لنـــا سَــمَرٌ

لنــــا رفـــاقٌ بـــــلا ليــــلٍ تَرَكْتَهمـــــو

يـــا بـــسمةَ الجـــرح فـــي أعماقِنـــا أبـــداً

متـــى تعـــودُ؟ متـــى يـــا جـــرحُ تلتـــئمُ؟

12 تشرين الثاني 1972

* * *

فنان من تالين

يعيدني إلى طفولتي

-لم تزر معرضي بعد. تمنت فيروز لو أنك كنت معنا في حفل الافتتاح.

ألقى الفنان الشاب هذه الكلمات كما تلقي طفلة كلمات عتاب إلى أبيها حين يعدها «بهدية» في عيد ميلادها.. ثم ينسى أن يأتيها بها في الوقت المحدد.

- أعدك يا وليد ألا تغرب شمس هذا النهار قبل أن أطوف «بلوحاتك» كلها.. وأسرق ما أستطيع من متعة بمشاهدتها.

وبدا لي أن العبارة الشاعرة التي ختمت بها اعتذاري قد راقت صديقي الفنان الشاب، فحياني بابتسامة مهذبة.. وأغلق باب غرفتي في وزارة التربية، وعاد أدراجه.

كان الفنان الشاب قد لقيني أكثر من مرة في مقر عملي في الوزارة، وعلى الرصيف.. أي رصيف في دمشق تعودنا أن نمشي عليه، أن نمارس هوايتنا المفضلة، أنا وزوجتي، منذ بدأنا رفقة العمر، في أول مشوار، تحت ضوء القمر.

وطويت أوراقي المكدسة أمامي.. وقررت أن أنهي عملي اليوم، وأن أخرج مبكراً لزيارة معرض صديقي.

الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً.

أوراق الخريف تنثر ألوانها وزفراتها في شارع أبي رمانة.

وشمس تشرين تلهث وراء قطع من الغيم الرقيق الأبيض، فتبث من الحرارة في هذه الفترة من النهار ما يذكرك بحرارة الصيف الذي ودعته دمشق منذ أمد قريب.

«وبين تشرين وتشرين صيف ثان» كما يقول أهل البلد عندنا.

ها أنذا على عتبة «المركز الثقافي العربي» الذي يحتل صدر الشارع في أعلى «أبي رمانة» ..

الصمت يلف كل شيء في مدخل البناء..

صالة المعارض في الطابق الأسفل.. يلفها الصمت أيضاً..

لم أجد أحداً أُحييه لا في المدخل.. ولا في الصالة..

بادرة حلوة.. أن يفتح الفن ذراعيه، ويستقبل «مريديه» وحده.. بلا حركة ولا ضجيج.

«لوحات» صديقي الفنان الشاب تملأ جدران الصالة التي أعرفها وتعرفني منذ أمد بعيد.

منضدة صغيرة تتوسط الصالة نثرت فوقها بعض الأوراق.. سَلٌّ طويل من الورد الأحمر والأبيض يقبع في زاوية من زوايا الحجرة.. تحية للفنان ولمعرضه بعث بها أحد الأصدقاء عشية حفل الافتتاح فيما أظن، وظلت هناك تحيي بدورها الزائرين في صمت رقيق.

ودخلت الصالة..

«اللوحات» مثبتة بخيوط دقيقة متوازية تتدلى من أعلى الجدار.. تذكرك لأول وهلة بتلك القلائد الحديثة التي تزين بها الحسان صدورهن في هذه الأيام.

وبدأت مشواري في صمت مع ريشة صديقي الشاب وليد علي.

هذه «تالين».. قرية الرسام القادم من الخضرة والينابيع والطير والشجر.. من الجبل الذي تحاور قممه البديعة كتاب الأزل، تسجل فيه

هدوءها، وشموخها، ورقتها.. كما تسجل كفاحها مع الأيام.. وصلابة أهلها، وبؤس فلاحيها وشاعريتهم في آن معاً.

وبمثل ارتداد الطرف تنقلني لوحة صديقي إلى قريتي الصغيرة.. «النعيرية» النائمة وراء الأسلاك والحدود.. في لوائنا السليب.. تنقلني إلى طفولتي.

أنْ ترتبط ريشةُ الفنان بينابيعه الأولى، بتراب المهد، بنبضات الحلم البكر، بالطفولة.. تلك هي ملامح الإبداع الأولى، وذلك هو خط الأصالة، وسرها العميق، إذا لم يخطئ ظني.

«تالين».. هذه البيوت البسيطة الحالمة، الضائعة بين الصخر والظل والشجر، على هضبة من تلك الهضاب الآسرة التي تغازل البحر وتطل على الشاطئ بالقرب من مدينة بانياس تحملني على جناحيها، بكل ما في جناحيها من دفء وحب وشعر إلى بيت القرميد، وشجرة التوت، وعناقيد الدالية التي أظلت شاعر القرية الصغير، في حارة «بساتين العاصي» التي ألهمتني الشعر والغناء منذ فتحت عيني على الشعر والحياة.

أية عذوبة تغلّف هذه الظلال الهائمة بين العين وبين الحلم.. بين دبيب الإحساس وبين هذه «البقع» المتناثرة على أرض اللوحة أمامي.. والتي لابد أن تكون بيوت الفلاحين في قرية صديقي الرسام.

فلاح عريق.. يلتقي أحلامه وذكرياته القديمة هنا.. في أول خطوة من الصالة.. يناجيها وتناجيه لحظات من عمر هذا النهار تصل ماضياً بحاضر، وتحرك شريطاً من العمر المثقل بالجراح والشوك والرحيل، على امتداد نصف قرن من الزمن.

أليس هذا كافياً لأن تبقى «تالين» في الذاكرة، في أعماق الحنين يا صديقي.. ولو لم أعرفها ولم تعرفني حتى الآن؟

تحية الطفولة لقريتك الضائعة وراء الخضرة والظل واللون..ومعي إلى الصفحات الأُخرى من «كتابك» الجميل.

*   *   *

الصفحات الخضر تتوالى..

الطبيعة الشاعرة في تلك المرتفعات ترف بأجنحتها على ريشة الفنان الشاب.. «تملأ وجوده بألوان الفصول الأربعة» كما قال صديقي القديم الفنان الكبير فاتح المدرس.

وأخطو مع المشاهد المعلقة أمامي..

وأقف عند مشهدين، لا أُريد أن أُبارحهما..

الغداء في الحقل..

والعودة إلى القرية..

مرة أُخرى.. أراني أطير في لمحة عين إلى مرابع طفولتي.. إلى حقلنا في «بساتين العاصي».

*   *   *

كان أبي معلماً للقرية.. شيخ «كتَّابها» الذي زرع قطرات الضوء الأُولى في عيون أطفالها وأطفال القرى المجاورة، ولكنه كان في الوقت نفسه فلاحاً يحرث الأرض ويَبْذُرها، ويزرع فيها القمح والذرة.. ويعرف جيداً كيف يغرس فيها أشجار التين، والزيتون، والدالية.

كان يخرج بمحراثه مع الفجر «والطير ما تزال في وُكُناتها» كما يقول شاعرنا القديم. ويظل يعالج الأرض البور التي تعطي بعد الجهد والعرق ما يقيم الأَوَد، ويدفع العَوَز.. فإذا ما علت الشمس حتى قبة السماء نادتني الوالدة، وحمَّلتني طعام الغداء للشيخ أحمد، ولمن يعمل معه.. كان بعض الأقارب يساعدونه أحياناً في الحقل.. اثنان أو ثلاثة من الذين علَّمهم الشيخ أحمد

القرآن والخط وشيئاً من الإملاء مجاناً، يتبرعون بمعاونته في أيام الفلاحة والزرع وفي مواسم الحصاد.

- احملْ هذا الغداء إلى أبيك ومن معه.. فقد صرنا في الظهيرة. ولابد أنهم تعبوا وجاعوا. واحملُ صرة الطعام.. بعض أرغفة الخبز مع إناء من اللبن الذي مازجه الماء حتى غلَب عليه، وحتى كاد مذاقه يضيع في هذا «الإناء» المترع حتى حافته بالسائل الذي سميناه لبناً. وإلى جانب أرغفة الخبز تقبع صرة من التين المجفف منذ الموسم الماضي، وقلما رافقها بعض حبات من الزيتون الأسود.

أحمل صرة الطعام وأنطلق إلى الأرض التي تجاور الساقية، وتحتل سفح الهضبة القريبة.. أرض (ابن نور الدين).

وما أن يراني الشيخ أحمد حتى يأمر البقرتين اللتين تجران المحراث بالوقوف. يخاطبهما في هدهدة وديعة تعوَّدتاها.. وصارتا تعرفانها منذ زمن بعيد.. كأنما يخاطب صديقين قديمين زالت بينه وبينهما كل أسباب الكلفة والمجاملات.. ثم يركز المحراث العتيق بقوة في التراب وينفضُ يديه مما علق بهما، ويأتي ظلَّ شجرة قريبة فيجلس هو ومن معه من الشباب الذين تبرعوا بمساعدته في ذلك النهار..

ويبدأ طعام الغداء..

أية ذكريات حلوة!

وأي حلم قديم صاف تنسجه في البال خيوط هذه اللوحة المعلقة أمامي.. لوحة غداء الحقل. يا وليد!

إننا من نسيج واحد.. من حقل واحد..

ألوانك التي ترفٌ علي بكل ما تملك من وداعة وحب هي غمغمات القصائد الأُولى التي كنت أنظمها وأُغنيها وأنا في طريقي إلى أرض (ابن نور الدين) أحمل (زوَّادة الغداء) لوالدي الشيخ المعلم والفلاح العريق.

وفلاحوك المتربعون على التراب، الملتصقون بالأرض، المتشبثون بالجذور هم أنفسهم فلاحو قريتي الذين أعطوني أول أشعاري، وزرعوا في حياتي بذور الثورة والتمرد على واقعنا العربي الأليم منذ أحسست شرارة الثورة، ورددت أُنشودة التمرد الأولى.

* * *

- خطيبتي فيروز تمنت لو كنت معنا في حفل الافتتاح!

ولكني آثرت أن أكون وحدي مع ريشتك يا صديقي.. أُرافقك في عودتك إلى القرية.. اللوحة التالية التي تحتل ساحة من مشاعري وذكرياتي العتيقة.

آثرت أن أكون وحدي حفل الافتتاح.. أنا وقريتك الوديعة.. وطفولتي.. ولتعذرني العزيزة فيروز..

ودعني أروي لك ما قصته علي لوحة «العودة» هذه وأنا أتأمل هذا القروي الطيب، وزوجته المثقلة بحمل من أعشاب الحقل على كتفيها. وهما يدفعان أمامهما ما يملكان من ماشية لم تكن أكثر من عنزين وخروف صغير.

مثلهما.. كنت أعود إلى القرية قبيل المغيب أكثر أيام الصيف.

ومثلهما كنت اصطحب الخروف الوحيد الذي كانت الأُسرة تمتلكه، اصطحبه إلى المرعى، إلى أرضنا التي تجاور الساقية، وأقضي معه سحابة النهار.. هو يقضم العشب.. وأنا أقرأ فصلين أو ثلاثة من «تغريبة بني هلال»، ثم استظهر قصيدة من ديوان قديم أمرني الوالد باستظهارها قبل النوم.. ثم أشرد في السماء الزرقاء، وقمم الهضاب المجاورة حتى تنحدر الشمس إلى الغروب وراء التلال الخضر التي تحيط بقريتي.. عندئذ أُنادي الخروف، صديقي الوديع الجميل، فيرفع رأسه، ويتوقف عن قضم العشب وكأنه يقول: أنا معك.. لقد حان وقت العودة فعلاً إلى البيت.

وفي ذات اليوم.. شردت في السماء الزرقاء، وفي قمم الهضاب المجاورة أكثر مما ينبغي، وعدت متأخراً بعد أن لمت الشمس آخر ذيولها عن الحقول. كان المساء قد بدأ يهبط على الدرب رقيقاً شفافاً. ورحت أسرع الخطى، فقد كان للظلام رهبته في قلب الفتى الصغير في ذلك الطريق الموحش الذي خلا من المارة منذ الغروب.

وكان الخروف، صديقي الوديع الجميل الذي أحببته وأحبَّني حتى خلته يشاركني ما أقرأ وما أحفظ من أشعار، كان يمشي ورائي، ويتبعني في صمت وهدوء، وأسمع وقع خطواته غير بعيد عني، فاطمئن إليه، ويطمئن إليّ، ويأنس كلانا بالآخر، ويدفع شيئاً من رهبة حلول الظلام عن نفسه.

وفجأة.. يعترض طريقنا سلك من تلك الأسلاك الشائكة التي اعتاد بعض الفلاحين أن يسوّروا أرضهم بها، والتي كنا نعرف كيف نجتازها في ضوء النهار من فجوات معروفة، دون أن نعرض أنفسنا للأذى.

وقفزت بخفة فوق السلك الشائك..

وتبعني صديقي الوديع الجميل.. فقفز من فوق السلك أيضاً.. ولكنه ما لبث أن أطلق صراخاً حاداً مؤلماً.. وأخذ يجر رجله وهو يهم باللحاق بي، والدم يسيل من باطن رجله الجريح على الأرض، أذهلتني المفاجأة.. فتلقيت صديقي المخضب بالدم، بكلتا يدي، ورحت أبحث عن موطن الجرح.. وإذا السلك الشائك اللعين قد انغرز بقوة في جلد المسكين، وشق باطن رجليه الخلفيتين شقاً بالغاً عميقاً.

وبسرعة.. عمدت إلى كم قميصي الذي ارتديه فانتزعته بجذبة عنيفة من حذاء الكتف، ومزقته قطعتين، ورحت أعصب رجلي الصديق الجريح المسكين، وهو مستسلم لي في لهفة ورجاء. وأنا أُحاول أن أشد قطعة القماش على الجرح، وأوقف النزف المخيف.

لا أدري كيف وصلت مع صديقي الجريح إلى البيت، ولكن بقع الدم التي كانت تزرع دربنا ما تزال ماثلةً أمام عيني. وما تزال سحابة حزن هادئ شفيف تمر في البال، كلما تذكرت الحادثة، بعد كل هذه السنين.

لم أعرف طعم النوم في تلك الليلة.

بقيت ساهراً إلى جانب صديقي الوديع الجريح حتى الصباح..

في اليوم التالي.. ذبح أهلي الخروف..

قالوا لي: إنهم يريدون أن يريحوه من العذاب..

ولكني بقيت زمناً اختلف إلى شجرة في البستان كان الخروف ينام في ظلها، وأقضي هناك الساعات الطوال في غم، وحزن عميق.

* * *

وفي هدوء.. انتزع نفسي من أمام اللوحة.. وانتقل إلى استعراض اللوحات الأُخرى.

لا أدري أين أقف؟

هل نستطيع أن نفرَّ إلى الطبيعة وحدها، نلوذُ بها مما حولنا؟

أنت مثلي، يا صديقي الشاب، تتنفس المأساة العربية..

تغمس بها ريشتك الطرية، تطعمها خطوطك وألوانك.. شئت أم أبيت.

نحن جميعاً أبناء هذا «المخاض» الدامي العسير الذي كلفنا حتى الآن أكثر مما كلف أي شعب من شعوب العالم.. دماً ودمعاً وتضحيات وآلاماً لا تنتهي.

فلأنتقل بسرعة..

الشريط في عيني.. وفي صدري.. وفي أعصابي.

لقد عايشنا وعايشناه منذ فتحنا أعيننا على هذه الحياة.. خالط السمع والبصر، واللحم والعظم، حتى غدا طعامنا وشرابنا اليومي.

متى تتفجر هذه الأرض العربية عن حشرها الموعود؟

متى تنطلق هذه «الطاقات». المهدورة، المفتتة، الضائعة، لتصب كلها في نهر المصير العظيم؟

لا أدري.. ولا أحد يدري حتى الساعة..

صبرا.. وشاتيلا من بعض ما عرضت علي ريشتك.

ولكن الأرض العربية كلها صبرا، وكلها شاتيلا، في خرائط «المجرمين»، وحرابهم المسنونة أبداً، المتربصة أبداً بهذا الوطن العربي الممزق، الرائع، المنكوب..

إما أن نكون كلنا..

وإمَّا ألاَّ يكون أحد منا..

تلك هي الحقيقة الصامتة، القابعة وراء أنهار الدم والدمع والعذاب وقوافل الضحايا التي لا نهاية لها.

تلك هي الحقيقة التي لخصت حياتي وشعري..

والتي أراها تبدأ خطوطاً حادةً، حزينة على ريشة واحد من شبابنا.. من جيل الحلم والعذاب.

هل ينحدر الحلم؟

هل نيأس.. ونلقي بكل شيء إلى الهوَّة..

هوَّة العدم والضياع التي يريدونها لنا؟

إنني ما أزال أتشبث بطفولتي.. مثلك..

بأحلامي العنيدة.. بينابيعي التي لا تنحدر..

ما أزال أعيش بنبضات القادمين..

بجذور سنديانة عتيقة، عتيقة كالدهر.. مختبئة في أعماق الأرض.

تحت صخرة من صخور «تالين».

دمشق: أواخر تشرين الأول 1983

يوم في «المنتَجَع»

منذُ ساعات الصباح الأُولى، يرنُّ الهاتف في بيتنا، وقبل أن نرفع السَّماعة نعرف يقيناً أن التي ستكلمنا الآن هي السيدة أُم إبراهيم، حياة، شقيقة، زوجتي.

إنه يوم جُمُعة.. يوم عطلة، ولابدَّ من قضاء هذا اليوم في «المُنتَجَع». هكذا عوَّدَنا العزيزان أبو إبراهيم وأُم إبراهيم.

تتابع حياة الهاتف:

لقد هيأنا كل شيء. ينقصنا بضع «ليمونات» وبعض البقدونس «للتبولة».. خذوها معكم إذا توافرت لديكم. سنمر في العاشرة والنصف بسيارتنا الصغيرة لنصحبكم معنا.

وتقفز حفيدتي الصغيرة كندة صائحةً:

سأذهب معكم إلى «المنتَجَع»..

سيرفعني عمو جودة بيديه إلى الأعلى، وأقطف الجوزات من شجرة الجوز التي تغطي السطح.

كندة الصغيرة التي جاءت مع أُسرتها من دبي، تقضي إجازتها الصيفية معنا في دمشق، لا تجد متعةً في الإجازة أجمل وأغلى عندها من أن تصل إلى أغصان الشجرة الضخمة التي تطل على السطح، وتقطف بيديها ما شاءت من ثمر الجوز الأخضر الشهيّ.

- نعم، يا صغيرتي، سنصحبك معنا بالتأكيد، وسيكون هناك عدد من رفيقاتك ورفاقك الصغار تلعبين معهم، وتصعدين أية شجرة تشائين من أشجار البستان المجاور، أنت وأخوك كنان وابنة خالتك رشا.

وما هي إلا ساعة أو ساعتان نكون قد هيأنا أنفسنا بهما «لنزهة اليوم» حتى تكون السيارة الصغيرة قد أطلقت بوقها مرتين، إيذاناً بوصولها، ونخرج إليها لِتُقلَّنا إلى «مصطافنا» القريب الذي لا نعدلُ به شيئاً منذ أعوام.. إلى «منتجعنا» المتواضع الجميل الذي يقبع على ضفة بردى، في أعماق الوادي الأخضر، قريباً من دُمَّر.

على طريق «الربوة».. في الوادي الهادئ الضيق الذي ينساب فيه الفرع الرئيس من فروع بَرَدى السبعة، تنطلق بنا السيارة الصغيرة، يقودها أبو إبراهيم الذي لا ينسى مرةً أن يضع في المسجِّلة بعض أشرطة عبد الوهاب القديمة: «أحب عيشة الحرية».. «شجاني نوحك يا بلبل».. «إيمتى الزمان يسمح يا جميل».. ونرافق نحن بأصواتنا مطرب الملوك والأمراء، وهو يصدح بين الخضرة والظلال وسقسقة النهر المجاور. ولِمَ لا؟ كل شيء من حولنا يدعونا إلى الغناء في هذا الصباح المشرق البهيج الذي سنخلّف فيه وراءنا عناء أسبوع كامل من الكدح والشقاء.

دقائق عشر.. أو أقل.. ونصل إلى «المنتجع» الذي سمته حفيدتي رَمْلة «بيت الغابة».

بيت ريفي صغير يلامس جداره النهر، ويخاصره فرعان من بَرَدى من الشمال والجنوب، لا أدري كيف تدبَّر أبو إبراهيم أمره وابتاعه من أحد السكان منذ بضعة عشر عاماً. لا شك أن أُم إبراهيم التي تدير نفقات البيت وتُعِدُّ لكل شيء عُدَّتَه، بحكمة يحسدها عليها جهابذةُ رجال الاقتصاد، قد كان لها اليد الطُّولى في شراء هذا «الملجأ» الصيفي الذي تعودنا أن نطرح فيه همومنا ومتاعبنا منذ أعوام، كل يوم من أيام الجمعة، بل في غيره من أيام

الأسبوع، كلما خطر لنا أن نتخفف قليلاً من جو المدينة الصاخب، ونرتشف فنجان قهوة في هدوء على سطح «كوخنا» الجميل. الضائع بين أغصان الكرمة والجوز والحور.

لابد أن أذكر كيف أطلقنا عليه هذا الاسم: «المنتَجَع»؟

كانت مؤامرة «كامب ديفيد» في تلك الفترة قد أُعِدَّت، ونُفِّذت حَلَقاتها على فلسطين والأُمة العربية جمعاء. و«كامب ديفيد» منتجع صيفي يؤمه الرؤساء في أمريكا كما يعرف الجميع. سيكون لنا «منتجعنا» إذاً في ربوة دمشق الخالدة. ولكن شتان ما بين المكانين: هذا للشذا.. وذاك للأَذَى.. هكذا كنا نعلّق مازحين ونحن نردّد الاسم حتى أصبح عَلَماً للبيت الصغير، بين الصغار والكبار.

وتقف بنا السيارة الصغيرة على باب البيت، بعد أن تكون قد اجتازت جسراً ضيقاً لا يزيد طوله على أمتار، كانت مهارة أبي إبراهيم وحدها في القيادة هي التي تجعلنا نطمئن على اجتياز هذا «الصراط» العجيب[١] سالمين.

نتعاون معاً في نقل «الأشياء» التي أُعدت لنزهة اليوم من مأكلٍ ومشربٍ إلى الداخل، وخلال دقائق نكون قد غسلنا «المنتجع» ــ أعلاه وأسفله ــ بخرطوم الماء الطويل، وجلسنا نستمتع بفنجان القهوة اللذيذ، في باحة البيت الصغيرة، أو على سطحه الضائع بين أغصان الكرمة والجوز والحور كما ذكرتُ قبل قليل.

- لقد قلبتُ «فنجاني» يا حياة.. وهيأتُه للقراءة. لابد أن تقرئي لي حظي فيه. وآمل أن يكون في هذه المرة أحسن من المرة السابقة.

تقول زوجتي هذا لشقيقتها أُم إبراهيم كلما تناولنا القهوة معاً. وحياة في رأيها قارئة فنجان لا تُخْطِئُ فألاً، ولا تفوتُها قسمة.

---

(١) قيل لي: إنهم قد وسَّعوه وأصلحوا من شأنه كثيراً فيما بعد.

- في فنجانكِ طريقان: قصير وطويل، الطويل يبدو متعباً بعضَ الشيء، ولكنه مملوء بالمُتَع والمفاجآت الحلوة. تصلك رسالة سارة عما قريب.. وربما هدية.. العلامة غير واضحة في أسفل الفنجان...

وتستمرُّ القراءة.. ونتابع نحن التعليق مازحين:

- أليست لي «سمكة» في هذه المرة يا أُم إبراهيم؟

- لا تأتي السمكة كل مرة.. يا أبا معن! حَسْبُكما الرسالة السارة والهدية هذه المرة.

في هذه الأثناء يكون الصغار قد قلبوا «البيت الريفي» صعوداً وهبوطاً على الدرج من حولنا، وانتشروا بين الأشجار المحيطة بنا، يتعلقون بأغصانها، ويتبارون في تسلُّقها إلى الأعلى غير عابئين بشيء.

الشمس تتكبد السماء، والحرارةُ قد أخذت تشتدُّ عند الظهيرة، ولكن الأنسام الحلوة التي تتسلل إلينا عذبةً رقيقةً من الشجر المحيط بنا في الوادي لا تترك مجالاً للضيق أو الشكوى، «فالمنتجع» يظل يحنو على رواده بجو ناعشٍ رطبٍ لا تحلم به المدينة الضخمة التي أكل الإسمنتُ الحديث رطوبتَها وخضرتَها الناعشة أو كاد.

فجأةً.. تهتف أُم إبراهيم:

جودة.. انهض وهيّئ لنا النار. الوقت يمضي.. وقد آن نُشعل الحطب الذي سنشوي عليه «الكُبَّة» اليوم.

اليوم يوم «الكُبَّة» المشويَّةِ إذاً.

وأؤكد للذين يتباهون بأنهم عرفوا مطاعم العالم الفاخرة، أؤكد لهم بأنهم لم يذوقوا في حياتهم أشهى وألا ألذَّ طعماً من أقراص «الكبَّة» الشامية التي تعودنا أن نَنْعَمَ بها يوم الجمعة في «منتجعنا» الهادئ البسيط من حين إلى حين.

ويسارع أبو إبراهيم، هذا الإنسان الذي يُجيد كل عمل تمتدُّ إليه يده من الرسم المتقَن الذي يمارسه في الوظيفة، إلى صناعة الخزف والزجاج الملوَّن.

إلى إصلاح أي خلل طارئ في السيارة التي يقودها، إلى إعداد «منقل النار» الذي ستُصَفُّ عليه الأقراص بعد قليل، وتعبق رائحتها الزكية في الجو، ونشرع في التهامها وهي ما تزال على الجمر.

واختار لنفسي وظيفةَ «المعاوِن» في هذا العمل الجميل، أُساعد في جمع الحطب، وإيقاد النار، وتسلية أبي إبراهيم ببعض الطرائف، وهو مُكِبٌّ على «المنقل» يقلِّب «الأقراص» الشهية، وينظر في ما نضَج منها وما لم ينضج، ولا ينسى طبعاً أن يكافئني، فيمدَّ إليَّ بأول «قرص» ينضج، التهمُه على عجل، وكلِّي امتنانٌ وعرفان[1].

المائدة تُهَيَّأُ.. والغداء جاهز الآن. والصغار والكبار يَنْعَمون بـــ«الوجبة» الدسمة الشهية، والمنتجع يمدُّ ظلاله السخية فوقنا راضياً، ناعم البال.

ما نكاد نفرغ من غدائنا حتى يتهيَّأَ قسم منا للمسيرة..

ومسيرة ما بعد الظهر لم تكن سهلةً ولا يسيرة..

إنها تعني ببساطة صعود الجبل المجاور، ارتقاء التلال التي تحيط بالمنتجع.. المشي ساعة أو ساعتين في مسالك وشعاب ضيقة تتلوى بين الصخور الوعرة، نجتازها ونحن نتحدث، نروي الطرائف، نغنِّي، حتى نبلغ قمة الجبل.

لم أُشارك هذه المرة في «المشوار» المرهِق الذي كنا نعده رياضةً لا غنىً عنها. كنت مشغولاً بموضوع آخر، أخذ عليّ فكري وهواجسي طَوالَ النهار.

لقد تلقيت منذ يومين دعوةً لحضور المهرجان الكبير الذي سيقيمه اتحاد المؤرخين العرب في مدينة بنغازي ــ بالتعاون مع إخوتنا في الجماهيرية الليبية طبعاً ــ لإحياء ذكرى شيخ المناضلين والشهداء العرب عمر المختار. ولابدَّ أن تكون لي في هذا المهرجان قصيدة استلهم كل حرف فيها من سيرة هذا البطل التاريخي، هذا المقاتل العظيم الذي يملؤني اسمه اعتزازاً وشعراً وقوةً كلما مرَّ في خاطري.

---

(١) يجب أن أعترف أن عديلي الآخر أبا بشار كان يقوم بهذه المهمة على خير وجه.

وأتناول ورقة وقلماً، وأخلد إلى ركن ظليل على السطح، تحت غصن من أغصان شجرة الجوز الضخمة التي تملأ المكان، وأخطُّ مطلع القصيدة التي سأقولها في عمر المختار:

دَمُـــــكَ الطريـــــقُ.. ومـــــا يـــــزالُ بعيـــــدا
عَلِّـــــقْ برمحـــــكَ فجرَنـــــا الموعـــــودا(١)

وما يكاد فريقُ المُشاةِ يعود من «نزهة الجبل» حتى تكون معظم أبيات القصيدة قد تجسدت على الورق، في سطور مضطربة مشوشة، لا يستطيع أحد قراءتها غيري.

شمس الأصيل تتكئ على الجبل رويداً رويداً، والظل يغمر الوادي، والمنتجع يزداد رطوبةً وبرودة في ذلك الحر اللافح الذي استغرقَ جُلَّ ساعات النهار. لقد حان وقت الراحة والحديث يشارك فيه الحاضرون جميعاً قبيل الغروب. إنها أجمل فترات اليوم الذي سميته: يوم المنتجع. الصديق أبو عمر يستعد لصنع القهوة، قهوة الغروب، تحثه على ذلك أُم عمر التي عادت لتوها متعبةً من مسيرة الجبل.

لقد عُرِفَ بيننا بمهارته في تنفيذ هذه «المهمة» التي اتفقنا على أن نكلَها إليه كل مرة في مثل هذا الوقت، حتى أطلقنا عليه اسم «القهوة المثلى»(٢) وكان هو فخوراً بأداء «المهمة»، ما نكاد نذكرها له حتى يبادر إلى تحقيقها برضا وطيب خاطر.

---

(١) الأعمال الشعرية، المجلد الثالث، ص202.

(٢) والقهوةُ المُثلى أبو عمرٍ لها		فاصدَحْ على فنجانه نَغَمَيْنِ

انظر قصيدة «المنتجع» في «الديوان الضاحك» ص222 وما بعدها. وكان ينبغي أن نثبت بعض مقاطع القصيدة في هذه الذكريات. وأبو عمر هو الصديق مرعي شحيبر، وأم عمر الصديقة نلا هارون.

تلملم الشمس أذيالها عن الربوة، ونهمُّ نحن بالعودة إلى بيوتنا، تاركين وراءنا نهاراً زاخراً بالحركة والمتعة والحياة. نعود ليغرق كل منا في عمله أُسبوعاً آخر، وهو ينتظر صباح الجمعة القادم، أملاً بيوم آخر في «منتجعنا» الصيفي الجميل، الذي يظلُّ أبداً فاتحاً ذراعيه في تواضع وحب عميق لكل رُوَّادِه ومحبّيه.

*   *   *

إلى حَفيدي كِنان

أنا قادِمٌ..
سأكونُ ضيفَكَ في دُبَيٍّ يا كِنَانْ
هَيِّءْ ليَ الشمسَ التي هيَ رَمزُنا
هيِّء لي البَحرَ الذي هو كَنزُنا
هيِّء ليَ الرملَ النَّقيَّ على شواطِئِكَ الحسانْ
خُذني.. لنسبَحَ في الخليجِ أنا وأنتْ
نَنسى بِزُرقةِ موجةٍ
شَجَنَ النهارَ.. أنا وأنتْ
ونغيبُ عَمَّا حولَنا
ويذوبُ في يَدِنا الزمانْ
أنا قادِمٌ..
والشعر مِلءُ ربابتي، غَدِقَ البيانْ
هو كلُّ ما تركَت ليَ الدنيا.. وحَسبي يا كنانْ
ما باعَ جَدُّكَ نبضةً
حَرَّى.. بِزَهوِ الصَّولجانْ
هَيِّءْ ليَ الصحراء، إني
يا حفيدي جارُها

ونشيدُها منذُ اصطفاني
للهوى قِيثارُها
أنا قادمٌ بالباقياتِ من الرؤى والعُنفُوانْ
يتَقَصَّفُ العُمُر الجريحُ،
وفي الجوانحِ خَفقَتانْ
لكَ، للطفولةِ يا صَغيري
وَحدَها.. تَسْتَسلِمانْ
وَحدي سآتي..
مَن تُشاطرني غَرامَك[1]
وتُخبِّئُ اللحَظَاتِ ضاحكة لِتَنثُرها أَمامَكْ
ألقَى بها سَفَرٌ على أفقٍ فنحنُ الضائعانْ
هَيِّءْ ليَ «اللُّعَبَ» التي
تختارُها.. هَيَّأْتُ ألفَ حكايةٍ
لكَ حينَ آتي
بخيالِ جدِّكَ عابقاتِ
وبحُلمِه مُتوشِّحاتِ
وبحبِّه مُتلألِئاتِ
وأنا وأنتَ معاً سنَمْلأُ بالأراجيح المكانْ
ومعاً سنلعَبُ بالقطارِ،
ونمتطي مَتْنَ الحِصَانْ
وإذا أبوكَ وأمكَ اعترضا..

(١) جدتك الحلوة.

شَغَبَنا باتِّزانْ
للعقلِ سطوتُهُ..
وتأسُرني الجيادُ بلا عِنانْ
أنا قادمٌ.. وأحَبُّ أسفاري
في قلبِ مَن أهوَى
في صوتِ مَن أهوَى
في لمحةٍ تسقي بعطرِ الحُبِّ أشعاري..
وتختصِرُ الدِّنانْ
هَيِّءْ ليَ الأمواجَ يَنعَم بالطفولةِ شاعرانْ
أنا قادمٌ..
لأكُونَ ضيفَكَ في دُبَيٍّ يا كِنانْ!

دمشق: 1982/10/25

*   *   *

الشهيد والصَّنَوْبَر.. الخالدان

إلى العميد الشهيد محمد حرفوش

أهدي هذه الذكريات

-١-

«عميدٌ من شبابنا..
من ألمع شبابنا في الجيش
يسقط شهيداً
ويقام له قريباً حفلُ تأبين
على الذروة الخضراء
تحت ظل الصنوبر القديم.
هل تشارك في الحفل؟
إنه واحد من تلامذتنا..
من نَبضَات الحلم الرائع
هل تشارك في التأبين؟»
وأصمتُ واجماً..
ويُقْفِل صديقي القديم أيضاً سمَّاعة الهاتف
ونختم كلانا الحديث..

لا أدري كيف؟
حفل تأبين..
وشهيد من ألمع شبابنا في الجيش
والذروة الخضراء..
ورائحة الصنوبر القديم
وتشرد بيَ الذاكرة إلى أودية سحيقة
إلى صفحات بعيدة بعيدة..
إلى بدايات الحُلم، والنُّبوءَة، والينابيع.
أرجع إلى الماضي الذي ما يزال الشعرَ والحبَّ والعزاء
لأكتب هذه السطور..
ومن حق الذروة الفقيرة، الكريمة، الخضراء
التي احتضنَتْ خطواتِنا الأولى
وحُلْمنا العربي الأول..
من حق رائحةِ الصَّنوبر القديم الأصيل
من حق القرية التي أحَبَّتْنا، وأحببناها
ونحن في أول رحلة الدم والدمع والعذاب..
من حق تلميذنا الشهيد الرائع
من حقهم جميعاً.. وحقي
أن أعود إلى الماضي..
وأن أسجل هذه الذكريات

- 2-

أواخر صيف 1943
قافلة البعث الأولى..

ستة أو سبعة من الفتيان في مُقْتَبل العمر
يقطعون الطريقَ الجبليَّ الوَعْر
بأقدام شبهِ حافية..
وثيابٍ لا غربةَ فيها عن هذا الريف البائس ولا انقطاع.
ستة أو سبعة من الفتيان..
الشعرُ والمَرَحُ كلُّ ما يملكون
يتدافعون بين الشوك والصخر
في طريقٍ متعرجٍ ضيق..
وإنك لكريمٌ جداً حين تعطي تلك الحجارة المسنونة
المتناثرة بين قدميك كلمة طريق.
ستة أو سبعة من الفتيان - لا أذكر العدد بالضبط -
يريدون أن يبلغوا القرية قبل الغروب.
لقد ساروا طويلاً بين الشوك والصخر
منذ ساعات الظهيرة الأولى..
وكاد العطش والتعب يَنْهَكانِهم
لولا زادُهم العنيد الحلو الذي لا ينضب
والذي يَتَحدَّونَ به كل شقاء الدنيا وآلامها:
الشعرُ والمَرَح..

* * *

- أمَا تزالُ «المقرمدة» بعيدةً يا علي[١]؟

---

(١) الصديق الراحل علي عباس حرفوش.
وللوفاء والتاريخ لابد من ذكر الأسماء هنا.

- هناك، على الذروة، ربع ساعة.. لا أكثر ربع ساعة.. وتصلون يا شباب.

شِـــــكِّي القرنْفُـــــل شِـــــكِّيه
عاصَـــدْرِكْ.. وتِغَـــاوِي فيـــه
هـــالِّلي جـــايي فجـــر البعـــث
ومـــــن إِيـــديكِ راح تِـــسْقِيه

ينطلق واحد من الشعراء الفتيان بهذه اللازمة الحلوة من الزَّجَل الذي كانت القافلة تنثره أينما حلّت، وحيثما مشت. والقافلة كلها من الشعراء الذين لا يعجزهم الكلام الجميل المنظوم. ويعلّق الشاب المُضيف علي:

ستستقبلكم سلمى بأحلى من القَرَنْفُل والورد عندما تصلون إلى قريتها.

إنها شاعرة..

كل ما في القرية شاعر، متعطش إلى الحياة

من أصغر نبتة زعتر عَبقة..

إلى أعتق سنديانة.. على هذه التلال.

ويُضيف أحدنا(١):

أمامنا اليوم سهرة حلوة إذاً.. سهرة رائعة.

ويعلّق شاعر القافلة(٢) المرشح أبداً لتمثيلها صوتاً ونغماً:

سنكمل هذا المطلع من الزَّجَلية..

سنشارك جميعاً في نظم القصيدة

وسنهديها إلى سلمى..

سلمى المتعطشة كقريتها إلى الشعر، والحب، والحياة.

---

(١) الأديب العربي الراحل صدقي إسماعيل.

(٢) الشاعر سليمان العيسى.

-٣-

كنا جميعاً أبناءَ العطش العربي

العطش الأزلي..

وكانت الجمرة الخضراء.. في بدايات الوميض

بدايات التحدِّي العنيد الأعزل

إلا من الشعر والحب والمَرَح.

-٤-

- أنت دليلنا إلى هذه القرى النائمة على الشعر والبؤس. والجمال، القرى التي تنتظر البعث..

أنت دليلنا.. يا محمد[١]..

سنواصل الطريق حتى قريتك..

ولو دَمِيَتْ أقدامُنا..

ألم تَعِدْنا بسهرة حلوة، ولقاء رائع مع الشباب

في «برمانة المشايخ»؟

ويبتسم الشاب محمد، أحد فرسان القافلة، قافلة الوميض الأول، ويهز رأسه موافقاً ومؤكداً.

ويهتف صدقي:

لماذا جئنا إذاً من دمشق؟

لماذا قطعنا كل هذه الأشواك والصخور

إذا لم ننشر تباشير فجرنا المتمرد على هذه القمم

ونحن نسهر، ونرقص، ونغني.. مع الفلاحين؟

(١) الصديق الأستاذ محمد الحسن..

ويقاطعه مسعود[1]:

سنغني مع الناس..

مع أبناء شعبنا الطيبين..

مع الفقراء الذين ينتظروننا..

مع الصبايا والشباب..

- وتمشي نشوة على وجهه عند كلمة الصبايا -

مع الشجر والحجر..

إننا نشيد البعث الذي لابد أن يتردد في كل مكان. وأعلق على الهتاف:

ولو طاردنا سَدَنَةُ الظلم، وحُرَّاسُ الظلام في كل مكان. ويتابع صدقي في فرح وسعادة منشداً، وهو يرمي ببصره إلى الهضاب البعيدة الساكنة، صدقي.. هذه القصيدة الشفافة، الطائرة أبداً صوب المجهول:

بــــي حنــــينٌ إلــــى الـــــسفوح.. ومَـــــسْرَى
نَـــــسَمَاتِ الــــــسفوح.. فــــوق البطــــائحْ
بــي حنــينٌ إلــى الــذُّرَى.. ينقــضي الــدهرُ
وتبقـــــى منهـــــا بنفـــــسي لـــــوافحْ
بــــي حنــــينٌ إلــــى مــــصادريَ الأولــــى
التــــي أَســــتمدُّ منهــــا الملامــــحْ
يــا بْنــةَ الــسفح.. لا تَغُــضّي، فلــن يبــزُغَ
إلا لــــــكِ «الـــــسِّمَاكُ الـــــرامحْ»
بعـــد حـــينِ.. أزولُ عـــن هـــذه الأرضِ
وتبقـــــى بعـــــدي الكـــــؤوسُ طـــــوافحْ

---

[1] رفيقنا الراحل مسعود الغانم.

فَــــــأَتِميِّ النــــــشيدَ، ولْتُـــــروِ كأســــــي
بالمـــــــسَراتِ كـــــلَّ غـــــادِ ورائـــــحْ
علِّمـــــي النـــــاس أَن يمـــــروا علــــى الأرض
نَـــــشَاوى.. مـــــرَّ الطيـــــورِ البـــــوارحْ[١]

ويحتج علي.. مضيفنا الشاب:

«برمانة المشايخ».. سنذهب إليها غداً أو بعد غد.. أما اليوم فهو لنا.. للمقرمدة. أليس هذا اتفاقنا؟

القرية أمامكم..
وها هم أولاءِ أهلنا أمام البيوت الطينية
يرحبون بكم من بعيد..

-٥-

«هل تشارك في حفل التأبين؟
إنه واحد من تلامذتنا..
من نبضات الحلم الرائع
من صخور القمة الخضراء
ورائحة الصنوبر القديم..
من المقرمدة..»

* * *

أيها الجسد المفتت على الجبهة
لكي تبقى لهذا الجبل..
للأجيال العربية القادمة

---

(١) صدقي إسماعيل - المؤلفات الكاملة - المجلد السادس ص224 وما بعدها.

جبهة نقية.. وجبين مرفوع
أيها العميد الفقير الشهيد..
وإنك لَتُغْنِي برجولتك الأجيال..
وتوزّع بيمينك الكنوز على كل من أظلته السماءُ منا
نحن الأحياء الذين لا نملك من الحياة إلا الجسد
ومن الثروة الحقيقية إلا الغُثَاءَ وإلا الزَّبَد..
أيها الجسد الممزَّق على أطراف الجبهة..
مع مئات الأجساد الصُّلْبة القوية التي تمزقت مثله
دعوةً باقيةً إلى الحياة..
وتحدياً عنيداً للغزو والغزاة..
أيها الحلم العربي الشجاع.. محمد حرفوش
هل تأذن لشاعر الصَّنَوبر القديم
ومُغنيٍّ الذروة الناعمة الخضراء
أن يواصل الطَّوافَ معك..
في رحاب الطفولة..
وأن يتابعَ الحديث؟

-٦-

ونُلقي رحالنا في الضيعة الفقيرة الجميلة الشاعرة
وعلى مَصْطَبة من مصاطب البيوت الطينية..
يجلس فرسانُ القافلة، وقد نَهكَهم التعب والعطش.
وتبادر سلمى إلى إبريق من الماء العَذْب
ماءِ العين الذي يُروي العطشان، ويفجِّر الألحان

سلمى الصبيَّة السمراء الحلوة..

ابنة الذروة التي تعيش على النسمة الصافية

ونبضةِ القلب الصافية..

وتطوف علينا بالماء

وهي تغض البصر، حَيِيَّةً، رائعةَ القَسمات

ولكنها لا تُخْفي ابتهاجها وسرورها بالقادمين.

القريةُ لا تعرفُ تعقيد المدينة وتقاليدها السخيفة البالية

التي أورثتنا إياها عصور المرض والظلام.

- هنيئاً يا شباب! لقد كانت رحلتكم متعبة في هذا النهار الحار.. أليس كذلك؟

يعلق أحد الشيوخ الوقورين الذين كانوا في استقبالنا وهو يبتسم ببراءة طفل كبير.

- حياتنا كلها ستكون رحلةً متعبة يا عمي الشيخ! هذا هو اختيارنا.. وتلك هي إرادتنا.

ويهز الشيخ الوقور رأسه، وكأنه قد فوجئ بهذه الكلمات الجديدة على الأسماع، والتي أحببت أن أسبق رفاقي إليها وأن أبدأ الحديث. وتابعتُ في لهجة مرحة، وأنا أحاول أن أكثف حماستي في عبارات متوهجة:

نحن حَمَلَةُ قضية..

والتعبُ والعطش أول شرط من شروطها

وأول ما وطّدنا أنفسنا نحن الشباب له.

فلا هَمَّ.. ولا خوف.

ولمحت بارقة سرور وتأييد ترتسم على وجوه الفلاحين الذين تجمّعوا حولنا من أهل القرية. فقد كانوا يتوقعون - على ما يبدو - شيئاً جديداً من هؤلاء الشباب الجدد الذين جاؤوا الضيعة ضيوفاً.. مع رفيقهم طالب الثانوية.. علي عباس.

وينبري رفيقنا محمد للحديث

يلتقطه بسرعة مني..

مخاطباً الحاضرين جميعاً..

وإن كان الشيخ الوقور ما يزال مركز الاهتمام الأول:

الشباب رفاقنا.. من لواء الإسكندرونة السليب.

إننا ندرس معاً في دمشق..

ونناضل معاً من أجلكم..

من أجل كل الكادحين، وكل المحرومين على أرض العرب

من أجل وطن عربي واحد.

وأمة عربية واحدة..

ألقى رفيقنا الفكرة هكذا.. على هؤلاء القرويين الطيبين.. في كلمات موجزة.. بصورة مباشرة.. وبلا مقدمات.

من أجل كل الكادحين..

وكل المحرومين على أرض العرب

وطن عربي واحد..

وأمة عربية واحدة..

ويسود الصمتُ لحظات..

منذ ثورة الشيخ صالح العلي، في هذه الشِّعاب الوَعرة المُهْمَلة.. وعلى هذه الأرض المحرومة البائسة لم يسمع أحد مثل هذه النبرة الجديدة العنيفة الواثقة.

منذ أن ثَبَّتَ الأجنبيُّ وطأتَه في هذه الديار وأعطى زبائنه وأعوانَه رقابَ هؤلاء الفلاحين لم يتحرك صوت يبشر بالتمرد.. ويحمل رائحة الثورة على هذا الواقع الراكد.

هذا الشعب الطيب البائس المحروم..

يختزن في أعماقه دائماً كل مقومات التمرد

وكل عوامل الثورة..

إذا وَجَد أمامه من يُشعل الشرارة، ويصل إلى الأعماق.

* * *

ويتكلم أحد الفلاحين من أبناء القرية، وهو يلف بيديه لُفافةَ التبغ المألوفة في الريف:

أهلاً بالشباب.. ضيوفنا الأعزاء!

نحن معكم.. وما جئنا إلا لنسمع ونستفيد.

إنني أسمع بأفكاركم..

حدثني عنها صديق لقيكم في دمشق..

نحن معكم يا شباب.. ومرحباً بكم في ضيعتنا،

في المقرمدة.. وفي كل مكان.. فقد شبعنا شقاءً..

شبعنا ذلاً تحت أقدام البكوات..

ويعلق أحد الشباب:

البعثُ سيُنهي البكوات..

سيخلّصكم من هذا الشقاء..

ستكونون سادة هذه الأرض، وسادة أنفسكم.

-٧-

لا أدري يا شهيدنا البطل..

أيها الفارس المبعثر على أطراف الجبهة

لا أدري أين كنت في تلك الفترة بالذات من عمر الزمن؟

لا أستطيع أن أحدّد..

الزمن يستعصي على الذاكرة بعد كل هذه الأعوام

وأحداثُ العمر.. يلفها الضباب..
رويداً.. رويداً.. يطويها النسيان.
ولكني ما أشك أن الطفولة كلها كانت معنا..
وأننا حين كنا نتحدث..
نلقي بذور التمرد الأولى..
كنا نتوجه إلى جيلك من الأطفال
لأننا كنا منذ الخُطُوات الأولى نعلم
أن الطريق طويل طويل..
وأن المعركة ستأكل عمر الجيل بعد الجيل
وأنا سَنُمَزَّق أوصالاً وشظايا على كل خط
وفي كل بقعة من هذه الأرض العربية
ولكننا كنا - وما زلنا -، بعضُنا على الأقل ما زال،
نؤمن أن عواصفَ الثلج الرهيبة..
وعواصفَ النار التي تلاحقنا في كل زاوية
وعلى كل منعطف..
غيرُ قادرة على إطفاء الوميض الأول..
غيرُ قادرة على اجتثاث الجذور.

من جُـذُورِ الأرضِ جِئْنَـا   مِـن صَـمِيم الأَلَـم
بالـضحايـا.. مـا بَخِلْنَـا   بالعَطَـاءِ الأكْـرَمِ[1]

أيها الفارس المبعثر على خط النار
دفاعاً عن أطفالنا.. وأطفالِ العرب..

---

(١) نشيد البعث.. شعر سليمان العيسى.

أيها الحلم العربيُّ الشجاع الذي سقَطَ
مع مئات الفتيان السُّمر الذين سقطوا معه..
وما زالوا يسقطون..
لكي يستمر الياسمين والحبُّ والشعر في بلادي
لكي تكونَ لنا حصتنا في خيط الشمس
وفي حَبَّةِ القمح التي روَّاها الأجداد بدمهم.

أيها العميد الفقير البطل.. محمد حرفوش
الحديثُ.. حديثُ البدايات الحلوة المُرّة..
ما يزالُ ذا شجون..
مرةً أُخرى..
هل تَأذَن لشبَّابة الذروة الناعمة..
لشاعر السنديانة العتيقة العنيدة..
أن يواصل الرحلةَ معك، في رحاب البدايات
أن يتابعَ الحديث؟

-٨-

لا أدري، يا أبا أُسامة!
وأُسامةُ طفلُكَ الذي لم أره ولم أعرفه بعد
ولكني أكاد ألمح في عينيه أطفال أمتي العربية أجمعين.
طفلك الذي تركته قَدَماً في اليتم..
وجبيناً - حين يُذكر أبوه - في الشمس
امتدادُكَ وامتدادي الرائع على هذه الأرض

أمانتُكَ لجيلنا الذي كادت فيه «الطحالب المريضة»

أن تلغي أوكار النسور..

وتَعِسَةٌ حياةُ «الطحالب».

وتَعِسٌ ما تَجلبْبَتَ به من «عزٍّ» ذليل

والمجدُ لحُطامِ جسدك على خط النار الأول

دفاعاً عن أطفالنا.. وأطفال العرب

المجدُ.. والشمسُ.. والبقاءُ لأوكارِ النسور

لا أدري - كدتَ تُحرق ريشتي بلهبكَ المقدَّس - كما استمرَّ لقاؤنا مع أهل قريتك في ذلك اليوم الذي حدثتكَ عنه، على مَصْطَبة من مصاطب بيوت الطين.

رُبَّما كانت مَصْطبةَ بيتكم المتواضع الكريم.. بالذات.

من يدري؟

لم نكن نسأل.. يا أبا أسامة!

كانت كلُّ البيوت الفقيرة بيتنا.

وكل المحرومين والمعذَّبين أهلَنا..

لا أذكر.. كم طالت جلستُنا.. وكم استمرَّ حديثُنا ذلك اليوم كلُّ ما أذكره أن لقاء المَصْطَبة لم يمرَّ بسلام.

ودعني أوجزْ لكَ الحادثة..

التي كادت تنتهي بالصدام..

صدام لم نكن نريده آنذاك..

ولكننا لم نكن - بالتأكيد - نخشاه.

كانت الشمس قد ودَّعت القمم السُّمر منذ ساعات..

وكان المساءُ يحمل على كتفيه نجوماً لا عَدَد لها.. تلمع في تلك القبة الصافية فوقنا.. وقمراً يملأ بنوره الفضي الفضاء ويغمر جَنباتِ القرية الساكنة الوادعة..

وكان معظم أهل الضيعة قد تجمعوا حولنا صغاراً وكباراً، رجالاً ونساءً، يشاركون جميعاً في اللقاء..

وفي خفة ورشاقة.. كان بعضُهم قد جمع كومةً من الحطب وأشعل فيها النار أمامنا، خوفاً من أن تصيبنا لسعة البرد التي هبطت على الضيعة مع المساء.

وفجأة.. قطَع علينا الحديثَ أحد الجالسين في ركن من أركان الحشد، وهمهم بصوت مسموع، فيه نبرةٌ من الوعيد والتهديد لم تَخْفَ على أحد:

«إنكم تغامرون بحياتكم يا شباب..

ألا تخافون على مستقبلكم؟

إنكم ما تزالون فتياناً..

ما لكم وللسياسة؟

البكوات الذين تهاجمونهم أدرى منكم، وأعْرف بشؤوننا..

أنصح لكم أن تكفُّوا عن مثل هذه الأحاديث.. وإلاَّ..»

ولم يدعه رفيقنا محمد يُتم الجملة..

ابتدره بعنف وغضب صائحاً:

هل تَخْرَس؟

وتَحرَّكَ من مكانه يريدُ أن ينقضَّ عليه..

ولكنا آثرنا ألاَّ نعكّر أمسيتنا الجميلة.. وهَدَّأناه.

لقد كان الجميع يعرفونه جيداً..

ويعرفون سلفاً ما يريد أن يقول.

كان واحداً من «أذيال» إقطاعي كبير، من أشرس «بكوات» المنطقة، وأشدهم فتكاً بهؤلاء المساكين.. الفلاحين.

لم يكن من أبناء القرية ــ كما قالوا لنا فيما بعد ــ ولا يدري أحد كيف اندسَّ في تلك الأمسية الجميلة الحاشدة بين الناس.

الذي أذكره أن هذا الرجل الذي كان يرتدي سروالاً عريضاً أسود يعلوه قميص أسود أيضاً.. قد انسحب فوراً من الجلسة بعد أن أحسَّ حرارة الجو، واستعدادنا للصدام.. ومضى.. لا أدري إلى أين؟

- ٩ -

شِـــــكّي القرنْفُـــــل شـــــكّيه
عاصـــــدرِكْ.. وِتْغَـــاوي فيـــه
هـــاللّي حَـــدّكْ.. فجـــر البعـــث
ومـــن إيـــديْكِ راح نـــسْقِيه

إلى الغناء والشعر.. يا شباب!

إلى المَرح والحب والسَّهَر مع ضياء القمر والنجوم

إلى الرَّبابة.. والزَّجَل المرتَجَل

ولْيَسْكَرْ كل ما حولنا.. حتى الشجر والحجر

لقد بدأت السهرة..

الشباب والصبايا ينتظرونها منذ ساعات

كفانا حديثاً وأفكاراً وحماسةً اليوم.

سنجعل الناي والشعر والزَّجَل يتحدث عن البعث.

سننقل أفكارنا على أهازيج «الدبكة».. وخطواتها الرائعة. إلى الغناء.. والدبكة.. يا شباب!

وفي لحظات تتحول باحة الدار التي أُوقِدَتْ في وسطها النار إلى ساحة عرس من أعراس الريف.

في لحظات.. تتشابك أيدي الشباب والصبايا..

في شاعرية عجيبة.. وقوة.. وحب.. وجمال.

ونندمج نحن في العقد.. فقد كنا نجيد رقص الريف وغناءه كما يجيده أهلنا المبدعون..

أَنَا فـــي المَوْعــدِ.. هــذي نَــسْمَةٌ
حلـــوةٌ تهمـــسُ: إِنَّـــا أقربـــاءُ
عُقِــدَتْ كـــفٌّ بكـــفٍّ.. وحكَـــتْ
بالمناديـــلِ عــــروقٌ ودمـــاءُ
وارتَمـــى شـــالٌ علـــى كوفيَّـــةٍ
رَوْعـــةُ العِقْــدِ: فُهــودٌ وظبــاءُ
الـــصبَّايا.. هَمـــسَاتٌ بَـــضَّةٌ
والزُّنودُ الــسُّمرُ.. زَهْــوٌ وانْتــشِاءُ
ويمــوجُ «النــايُ» فـــي أُغْــرودةٍ
فـــإذا الأقـــدامُ رَجْـــعٌ وانتخـــاءُ
ثـــورةٌ حينـــاً.. وحينـــاً هَـــدْأَةٌ
فـــضلوعُ الأرضِ رِيٌّ واشـــتهاءُ
إِنَّهـــا الدبكـــةُ يالَيَّـــا.. هنـــا
يركعُ الفــنُّ.. ويجثــو الــشعراءُ..

ونتألَّق سلمى.. الفراشةُ الصغيرة السمراء.. تتألَّق في الدبكة حوريةً من حوريات الغابة المسحورة.. نسمةً من نَسمات القمة الأزلية الشاعرة.. شالاً عربياً ساحراً يطير من نجم إلى نجم.. ومن فضاء إلى فضاء..

ونغني لها.. ولرفيقاتها من صبايا القرية الصغيرات.

ونغني.. نحن شعراءَ القافلة التي آلتْ أن تزرعَ الشعر والحبَّ والتمرُّد أنَّى حلَّت، وحيثما رحلَتْ..

وفي كل بيت من أبيات الزَّجَل الحلو الذي كنا نُرسله ارتجالاً كانت أحلامنا العربية تنغرس.. وتتردَّد.. لتتلقفها الأعينُ والقلوبُ العطشى.. قبل أن تتحرك بها الشفاه.

لم يكن في حياتنا أي فاصل بين المَرح والفكرة التي نقاتل من أجلها، بين الأغنية التي نعقد عليها «الدبكة» والقضية التي جئنا نبشر بها. كانت حياتنا وقضيتنا شيئاً واحداً.

وجود عربي انطمر تحت ظلام القرون منذ أمدٍ بعيد..

يريد أن يُبْعَث.. يتجدَّد.. يحمل المستقبل كله حنيناً متوهجاً.. إلى الأجمل والأنبل والأكرم.

- ١٠ -

التشرد.. الفقر.. الجوع.. الشقاء..

والحرب العالمية الثانية دائرة تطحن العالم وتطحننا معه..

كل ما يخطر على البال من ألوان البؤس والحرمان وقسوة الزمان بلوناه.. عشناه.. لم نشعر به إلا كما يشعر السابح بين الغيوم والنجوم بالهُوىَ التي تَفْغَرُ أفواهها تحته. وإنه ليكاد يهوي إلى أعماقها في كل لحظة فيتحطم، ويتمزق.. ولكنه لا يملك إلا أن يسخر منها.. ويواصل رحلته في فضائه الذي اختاره.. في أحلامه الرائعة:

قَــــسَماً بغـــــدائِرِك الـــــسُّودِ

عُنقـــــــــودٌ لاذَ بِعُنْقـــــــــودِ

وبِرَفَّتِهـــــا فـــــوق الجيـــــدِ

خُصَلاً تتَعطَّـــفُ فـــي كبْـــرِ

لم تَبْرَحْ أطيـــافُ الماضـــي

أغرُودةَ شوقٍ في صـــدري

*   *   *

أحـــــلامٌ زاهيـــــةٌ أَبـــــدا

عاشت لهبـــاً فينـــا ونـــدى

وتركناهـــــا لحنـــــاً غَــــرِدا

وحيــــاةً ضـــــاقت بالأَسْـــــرِ

فمـــضت لِتُفجِّـــرَ ثورتهـــا

في أحضان الجبـــلِ الـــوَعرِ

ولم يكن الجبلُ وحده يا صديقي الشهيد النجيد هدَفَنا..

كانت مساحة الحُلُم أكبر في عيوننا، وفي نبضات قلبنا..

كانت ذَراتُ الأرض العربية الراكدة تتحرك كلها بين جوانحنا..

وكنا مقتنعين إلى حد المطلق أننا نحن النداء الذي تنتظره هذه الأرض الراكدة، وأننا لابُدَّ أن نحرّكَ هذا المستنقعَ الآسنَ ونزلزلَ هذه الهياكل النَّخِرة، ونبدل هذا الواقع المريض.

والآن.. بعد كل هذه الرحلة على طريق الدم والدمع والعذاب،

بعد كل هذه الأعوام الطويلة العِجاف السِّمان،

هل حَرَّكْنا «المستنقَعَ» الآسِن؟

هل زلزلنا «الهياكل» النَّخِرة؟

هل بَدَّلنا هذا الواقعَ العربيَّ المريض؟

هل استطعنا أن نفعل شيئاً لهذه الأمة العظيمة المنكوبة الممزَّقَة الرائعة؟

هل نحن قادرون الآن أن نُقْنِعَ أطفالنا بنا؟

أسئلة ما تزال، يا شهيدي البطل، تُحرق ريشتي..

وتُدمي شفتيَّ.. وتنغرس كالشفرة في حلْقي، وفي حلْق كل عربي يحاسبُ نفسَه، أستغفر الشجاعة والحساب، بل يخطر له في لحظةٍ من اللحظات أن يخلو إلى نفسه، وأن يتأمل ما حوله قليلاً:

الصادقون يَتَامَى في مدينتنا

في جيلِنا.. يمضغون الليلَ والألما

أعداءُ هذه الأمة العربية العظيمة المنكوبة الممزَّقة يخططون لها صباحَ مساء، ليجعلوا منها فُسَيْفِساءَ العصر.. ليعملوا من «أشلائنا» الثلاثة والعشرين - لا أحفظ عدد أشلائنا - مئةً وثلاثةً وعشرين شِلْواً، أعني مئةً وعشرين دولةً.. إذا استطاعوا.

ولكنني، يا شهيدي النجيد، سأظل أردِّد معك. ومع رفاقك الشباب الأبطال الذين زرعوا أجسادهم الفتية على خطوط النار الأولى، ليُقْنعوا أطفالنا بنا، بأحلامنا العربية، بأغانينا الأولى تحت ظل الصنوبر القديم.. سأظل أردِّد.. أهتف في وجه الغزو والغزاة الذين يأكلون جسدي قطعةً قطعة:

رَحْبَةٌ مَقْبَرتي.. لا تُزْدَرَدْ

وستَبْقَى كحكاياتِ الأَبَدْ

وأنا المَيْتُ الذي ينتفِضُ

آمـــــلاً أو يائـــــساً.. ينــــــتفِضُ
مُقْـــــدِماً أو هاربـــــاً.. ينــــــتفِضُ
ومـــــن الـــــسجنِ الـــــذي يَخْنُقُنـــــي
ومـــــن المـــــوتِ الـــــذي يـــــسحقني
ومن الناب الذي يمْضَغُني، يَبْـــصُقُني
عربياً.. سوف أَبْقَى..
شاعراً للأرض، إنساناً سأَبْقى
كجذورِ السنديانْ
كالصحارى.. كالزمانْ
سوف أبقى.. سوف أَبْقى

-١١-

وتبقى فكرة.. تلمع في الخاطر، وتُلِحُّ على القلم
في ظل السنديانة العتيقة..
في باحة داركم الريفية الكريمة المتواضعة..
أقمنا يا شهيدي البطل أعراس البعث الأولى.
وعلى خط النار الأول..
على جبهتنا مع العدو..
أقمت أنت ورفاقك أعراسَ الدم الأخيرة.

وإني لألمح الصلة الوثيقة والقربى العميقة بين أعراس البدايات، والحلم والينابيع.. وبين أعراس الشهادة النقية، والرجولة التي لا تموت..

أليست الأولى بشارة الثانية.. وميلاد برقها الذي ما تزال أرضنا تختزنه للخلاص؟

كل قوى الشر واليأس والدمار تريد أن تُقنعنا ليلَ نهار. يا شهيدي الرائع، أننا انتهينا.. وأَنْ لا جَدْوى.. وأن كل طاقات هذه الأرض العربية، وهذه الأمة الضاربة الجذور في أعماق التاريخ، هباء وباطلٌ وقبضُ الريح.

ويضربون لنا كل يوم من «الطحالب» التي تعيش بيننا على شظايا جسدك الممزَّق العظيم.. يضربون لنا ألفَ مثل: أَنْ لا جَدْوَى.. وأن المستقبل وهم.. وأَنَّ الركوع تحت أقدام الاحتلال والنهبِ هو لبُّ الحكمة وعين الصواب.

* * *

وتظلُّ عيوننا، وعيونُ أطفالنا، في مَشارقِ الأرض العربية ومغاربها عالقةً بك، وبأمثالك من فهودنا الشباب الذين يتحدَّون بأَجسادهم كل قوى الشر واليأس والدمار، ويقبضون بأيديهم على ناصية العلم، وناصية الموت، ويقولون لأرقى أسلحة الفتك وأحدثها: إننا قادرون على أَنْ نستخدمك أحسن.. ونضرب بك أحسن.. وفي آخر الشوط لا في أوله ينكشف الشجاع من الجبان. والنسرُ من الأُفْعُوان.

-١٢-

أيها الفارس المبعثر شظايا في ضمير العرب
الذين انطفأ فيهم الحس ومات الضمير،
والذين يحاولون صباحَ مساءَ أن يُنْسُونا شهداءنا..
وأَنْ يطمسوا ذكراهم.. ويمحوها من الأذهان..
أيها الطفل العربي الخالد..
تحيةً لك.. ولرفاقك الأبرار
من كل ذرة تراب على أرض العروبة..
تنتظر ميلادك وبعثك الآتي - لا محالة -
طوفاناً يكتسح هذا العار..

ويختم هذا الذلَّ والزيفَ والانكسار

ويفتح باب الحياة الحرة الكريمة على مصراعيه أمام أجيالنا التي ملت الانتظار..

تحيةً لكم.. أيها الخالدون..

وإِن يوماً في حياة أمتكم الحرة الموحَّدة لخيرُ من ألف سنةٍ مما يَجُرُّون ويَجْتَرُّون..

كانون الثاني: 1993

*   *   *

العُشّـاق

إلى صديقي الكاتب الفلسطيني رشاد أبي شاور

على هامش روايته «العشاق»

تمتَدُّ آهَتُهُمْ بِصدري
يَسْكنون عرائشَ الحُلُمِ المُضَرَّجِ بالعِنَادِ
هُمْ بَعْضُ مَنْ نَسلَتْ عشيرتُنا
على حدِّ الفجيعةِ والزِّنادِ
هُمْ بَعضُ زادي
إِنْ أَقُلْ شعراً، وأمضَغْ جمرتي،
هُمْ كُلُّ زادي

هم يا رشادُ أنا وأنتَ..
الباحثانِ عن الطفولةِ..
والتوهُّجِ.. والعروبة.. في الرَّمادِ
أرأيتَ مِقْصلَتي التي ماتَتْ على عُنُقي..
وما ماتَ القتيلُ؟
إنّي أُحاصِرُها..
وتعرفُ - وهي تَذْبَحني -
منِ الباقي؟ ومَنْ منا يزولُ؟

وهمٌ؟
سأكتبُ قصتي وَهْماً يزَلْزِلُهم،
ستكتُبُها..
وأعرِفُ ما أقولُ
هُمْ يا رشادُ القاتلونَ الغالبونَ الظافرونَ،
ونحن لسنا غيرَ أغنيةٍ، ومَجْزرةٍ،
وجَذْرٍ في التراب..
ومن لِدَاتِ الدهرِ جَذْري في الترابِ،
وكلُّ ديواني غليلُ

*   *   *

العاشقاتُ العاشقونَ..
على جفونِكَ يَسْهرون، على جُفُوني
إني أُجيدُ غِناءَهُمْ،
وأجيدُ رَقْصَتَهم.
واسكَرُ مثلهم والموتُ يَقْصِفُني،
يُعربِدُ عن شمالي، عن يَميني
إنِّي أُحِبُّ هُتَافَهم،
وأُحِبُّ «دَبكَتَهُم»،
وأَعشقُ ليلَهم حتى الجنونِ
اللاجئانِ أنا وأنتَ،
الحالمانِ أنا وأنتَ،
العاصرانِ الشعرَ من حَسَكِ السنينِ

نَأْسَى؟

نَخافُ؟

على مَ نأْسَى؟

والمشاويرُ العِذَابُ من المَنونِ إلى المَنونِ

هُمْ يا صديقي الخائفون من الذبيحةِ..

من رُؤانا..

إِي وحقِّ نَدى[1]، وفارسِها المُدجَّجِ بالشقاءِ،

هُمُ الغزاةُ الظافرونَ..

النائمون بلا عيونِ

للعشقِ مثْلَكَ والتحدِّي

سوفَ أُهْرِقُ ما تَبقَّى في دَوَاتي

من قصائدَ، من عَتَابا، من حنينِ

للعشقِ.. عاشَتْ آخِرُ السَّهَراتِ

في كَرْمي الذي سَرَقُوه..

عاش الحُلْمُ يا يافا..

وقادمةٌ قيامَتُنا العظيمةُ،

قادمٌ عشّاقُ يافا..

صَدِّقيني..

دمشق: 1983/2/25

---

(١) ندى: بطلة رواية العشاق لرشاد.

أغنية للشيخ إمام

إلى صوت المقهورين في وطني العربي

الكبير الشيخ إمام

شَـــــمْسُ الــــــصعيدِ.. أَعَـــــارتْني أَنَاشِـــــيدي
ومِــــــنْ دِمَاهـــــــا.. زكيّــــــاتٍ عَنَاقيـــــــدي
فـــــي ريـــــشتي تَتَعــــرَّى مِـــصرُ.. غَـــضْبَتُها
وجُوعُهــــا زَفْـــــرَةٌ حَـــــرَّى عَلَـــــى عُـــودي
يا مِــصرُ.. يــا نَبْــضَةَ الحُــبِّ التــي انْــسَفَحتْ
تَـــــسْقِي العُروبــــــةَ.. أُمْلُــــــوداً بـــــأُمْلُودِ
مــا زِلْــتِ خَــضْراءَ فــي هَمِّــي وفــي وَتَــرِي
وبَعْــــضُ صَـــوْتِكِ إِنْ تَكْبَـــــرْ أَغَارِيــــدي
لَــكِ الحَنَايــا.. علـــى مَـــدِّ الـــضلُوعْ
لــكِ العُروبــةُ دُنيــا مُزقَــتْ ورُبُــوعْ
يــا بَــسْمةَ اللَّــهِ فـــي ليـــلِ الـــدُّموعْ
يا مِــصرُ.. يــا خَمْرتــي الغَــضْبَى وعُنْقُــودِي!

*   *   *

سُلالَةُ القَهْرِ.. فـــي صَــوْتي وفـــي نَغَمِـــي
وكُلُّ ما نَسَلتْ في القَيْدِ تَــرْدِ يـــدي
يا مِصْرُ.. نَحْنُ لُهَاثُ الأَرْضِ، نَحْــنُ هُنَـــا
باقُون.. أَنّةُ رَفْــضٍ فـــي الأَخاديـــدِ
ومَنْ تَرَبّـــعَ عَرْشـــاً فَــوْقَ زَفْرَتِنـــا
فَلَنْ يَكـــونَ سِـــوَى ذِكْـــرَى عَلَـــى عُـــودِي

دمشق: 1984/11/15

* * *

صباح نيلة

«إلى حفيدتي الصغيرة نَيِّلة»

صباحاً.. يَفْتَح أبوها[1] البابَ ويدخل.
العصفورةُ بين يَدَيْه..
حفيدتُنا الصغيرة.. نَيْلة.
أَسمعُ صوتَها وأنا ما أزالُ في فراشي
استيقظُ مع الزَّقْزَقات.. ويستيقظُ كلُّ ما حولي.
تَسْبِقُنِي جَدَّتُها - الطفلةُ الكبيرة - إلى استقبالها.
هل هناكَ ما يُجَدِّدكَ أكثر
من طفل يَرْتمي بين يديكَ؟
هل هناكَ أمتعُ وأَبْهج؟
الحزنُ كثيرٌ حولي..
يَبْسُط جناحيه القاتميْن بعيداً بعيداً
حتى يَشُلَّ وطني الصغير، وطني الكبير.
يَشْملَ العالَم.

---

(١) ابني غيلان.

نَيْلَة لم تُكمِل عامها الثاني بعد..
إنها لا تعرفُ الحزن إلا حين تبحث عن كُرَتِها الصغيرة، فلا تَجِدُها في مكانها.
منذُ الصباح الباكر.. تدعونا - أنا وجَدَّتها - إلى اللعبِ بالكرة الصغيرة..
دعينا نفتَحْ أَعْيُنَنا يا عُصْفُورتي..
حَسْبُنا أننا كُرَةٌ يلهو بها العالَمُ..
ألاَ يكفينا هذا؟
العصفورةُ لا تعرفُ العالَم.. ولا تَأْبَه له..
هذا العالَمُ الشّرِس. الباغي، الذي لا يَرْحَم.
إنه يتعامَلُ بلؤم وخِسّةٍ حتى مع الأطفال
بل إن لؤمَه لَيَتَجلّى بكل دَمامته وهولِه مع الصِّغار.
سأطردُ الخاطرة السوداء من خيالي..
وأعودُ إلى نَيْلة..
البيت الذي كان نائماً منذ قليل
استيقظَ كلُّه.. تحرَّكَ كُلُّه..
الأثاثُ فيه قليل.. الأدواتُ محدودة..
ولكنَّ شيئاً منها لا يريدُ أن يبقى في مكانِه
بل هو لا يستطيعُ أنْ يَبْقَى.
العصفورةُ تمارسُ هِوايتَها: أَنْ تقلبَ البيتَ الصغيرَ رأساً على عَقِب.. وإني لَعَوْنٌ لها في الخفاء.
كُتُبُ الرفِّ الأوّل من مكتبتي..

أُلْفَةٌ عميقة قامت بينها وبين نَيْلَة..

تسحَبُ المُعْجَمَاتِ الصغيرة، وما حولها من كُتُب،

تدورُ في حُجرة الجلوس.. تَنْثُر بعضَ أوراقها.

يَغْضَبُ أبوها، يَصْرُخُ بها مؤنِّباً،

إبني يُريد أن يرمي ظلالَ هيبتِه على ابْنَته.

نَيْلَة تتردَّد قليلاً.. تتهيّبُ الصوتَ الزَّاجر،

ولكنها تعرفُ أن جَدَّها سيَحْميها

اعبثي يا عُصفورتي ما شئتِ بأوراقي وكُتُبِي

التي أرهَقَتْني، وأرهَقَتْ جَدَّتكِ الأعوام الطِّوال.

العالمَ يَعْبَثُ بنا..

تعودُ إليَّ الخاطرةُ السوداء.

مَنْ ذا الذي يستطيعُ أن يهربَ من خواطرِه السُّود؟

إنه لَسعِيدٌ حقاً!

* * *

وأخيراً.. حانَ وَقْتُ الفَطُور..

نَيْلَة تُريد الكرسيَّ الأوَّلَ لها على المائدة.

آخُذُها بِفَرح بين يديَّ.. وأضَعُها حيثُ تُريد.

المَقْعد الأول يَنْبغي أن يكونَ أبداً للأطفال.

هذا رأيُ جَدِّكِ.. يا نَيْلَة.

ولقد قالَ في ذلكَ شعراً كثيراً..

ستحفظين بعضَه ذاتَ يوم..

هاتي قُبلةً لي..

وقُبْلةً لــ «تيتا»[1]..

ولْنَبدَأْ طعامَ الصباح!

تشرين الثاني 1984

(١) تيتا: هي الجدة في الشام عند الأطفال.

أقدامهن قصائد

إلى الفنان العربي عبد الحليم كركَلاَّ

في صميمِ التُّـــرابِ.. كنـــتَ تُغَنـــي
مِنْ صَمِيم التُّـــرابِ قُلْـــتَ الـــشواردْ
الجُسومُ اللِّـــدَانُ.. كيـــف اسْـــتَحالَتْ
صلَواتٍ.. تَمـــورُ فيهـــا المعابِـــدْ؟
والصَّبايا.. كيفَ اخْتَرقْتَ. بِهِـــنَّ -
الشِّعرَ.. صارَتْ أَقْـــدَامُهُنَّ قـــصائِدْ؟
الجذُورُ التي أفاقَتْ علـــى الـــضَّوْءِ
قُـــدُوداً ســـكرانةً.. وســـواعِدْ
أنـــتَ رَقْرَقْـــتَ فوقَهـــا لُغَـــةَ -
العصرِ، وفَجّرْتَ بالحيـــاةِ الهَوامِـــدْ
كَيْـــفَ أَطْلَقْـــتَ مُهْـــرةَ المُتَنَبِّـــي
فـــي ســـماواتِنا.. بوثبـــةِ ناهِـــدْ؟
برفيـــفٍ مـــن الأَنَامِـــلِ يَهْمِـــي

يَمْــــلأُ الليـــلَ فِتْنـــةً وقَلائِـــدْ؟

كيفَ؟ دَعْني في الخيمةِ البِكْــرِ[1] -

سَهْرانَ، وأَمْطِرْ في مُقْلَتَيَّ الفراقِــدْ

حينَ يَنْــشَقُّ جَــدْوَلٌ فـــي بِــلادي

فأَنَـــا القَفْـــرُ والظَّمَـــا والـــوارِدْ

آهِ.. يـــا أَرْضَـــنا التـــي تَخْـــزِنُ

المِيلادَ.. هذا دفقٌ على الفجرِ شـــاهِدْ

دمشق: 1985/1/7

(١) كانت الأمسية: الخيام السود لكركلاَّ.

كانَ واحداً منا..

إلى روح الأخ والصديق الراحل، أبي خلدون خليفة عبد العزيز المبارك، سفير الإمارات العربية المتحدة في دمشق وباريس أهدي هذه الذكريات..

كانتِ الشمسُ قد لَمَّتْ أذيالَها الجميلةَ الهادئةَ عن ذُرَى قاسيون(١)، وضفافِ بَرَدَى منذُ قليلٍ.

وفي زاوية من مَعْرِض دمشقَ الدوليّ كان هناك احتفالٌ صغيرٌ أقامه جناحُ الجزائر الشقيقة، ودعا إليه عدداً من الأصدقاء، وممثلي الدول العربية والأجنبية. وكنتُ أحدَ المدعوين إلى ذلك الاحتفال الصغير الذي احتلَّ مكانه على ساعد بَرَدى الأخضر.

مساءٌ ناعم من أَماسيِّ الخريفِ كان يَرِفُّ علينا، يمشي ما بيننا في خَطْوٍ شاعري أليف. وأجملُ ما في دمشق خريفُها الزاخر بالألوان والشعر والهدوء، باعتراف الجميع.

وفي ركنٍ من الجناح وقفتُ أتحدثُ إلى بعض الزائرين، ويتحدثون إليَّ.

---

(١) قاسيون هو الجبل المطل على دمشق.

أذكُر أنَّ الحديث كان يدورُ حول همومنا العربية - وما أَكْثَرَها! - وأنه كان مُفْعَماً بالحيوية، كِدْتُ أقول: الحماسة.

وفجأةً.. خطرَ لإحدى السيدات من ضيوف الحفل أن تسألني وأنا في غمرة الحديث:

من أيّ بلدٍ أنت يا شاعرنا؟

قلتُ بسرعة وكأنني أُريد أن أُوجزَ مأساةً مرت منذ زمن بعيد ببضع كلمات:

أنا من لواء الإسكندرونة، ذلك الجزء الذي اقتطعه الحلفاء من جَسَد سورية العربية، وقدموه هدية للجارة تركيا في مطلع الحرب العالمية الثانية.

أقول: الحلفاء.. وأعني فرنسا وإنكلترا بالدرجة الأُولى.

وراحت السيدة التي طرحت سؤالَها الأول تستزيدني من الحديث، تريد أن تعرف شيئاً عن قصة لواء الإسكندرونة، هذه البقعة الجميلة التي سُلِبَتْ من سورية، وشُرِّدَ الكثير من أهلها.. وكنا نحن الفتيان الصغار من بين الذين شُرِّدوا، ونُكبوا..

كنا قافلة العذاب الأُولى..

وضحايا المأساة التي ذابت في غيرها من المآسي حتى طُمِست، وكادت تضيع في غياهب النسيان.

وأذكرُ أني استرسلتُ يومئذٍ في الحديث، ورحت أقص في لمحات موجزة مركَّزة قصة اللواء مهد الشاعر الصغير، ومسقط رأسه، وكيف كان واحداً من الجراح التي حملتها هذه الأُمةُ في صدرها. وما تزال المصائب تتوالى..

والنصالُ تتكسر على النصال..

* * *

على قَيْدِ خطوةٍ مني.. كان هناك شاب أسمر، ممدودُ القامة، يَشْبكُ يديه على صدره، ويُصغي إلى الحديث في جدٍّ، ويتابعه باهتمام.

ولم أنتبه إلى الشاب الأسمر، الممدود القامة، أول الأمر، فقد أحاطَ بنا عدد تجاوزَ العشرة من الضيوف، وراحوا يتابعون مثله الحديث.

ويبدو أني كنت أزداد حماسةً وتدفقاً في القصة، قصة اللواء السليب، كلما طُرِح عليّ سؤال جديد، محاولاً - فيما أذكر - أن أربطَ الفاجعة بسلسلة الفواجع التي مرت بها أُمتنا، ووطننا العربي الكبير منذ مطلع هذا القرن إلى الآن..

لم أُعِرْ كبير اهتمام للعبارات الرسمية، ولم أحتَطْ في كلامي.. كنت أتحدثُ بلغة الجرح الذي نُكِئَ، وانفتح على ماضٍ مؤلمٍ، محزن، تملؤه الذكريات المرة، والعذاب الطويل.

ويبدو أن هذه النبرة العفوية هي التي شدت الشاب الأسمر، الممدود القامة إليَّ، وإلى كل كلمة رحتُ أُلقيها على الحاضرين والحاضرات الذين تحلّقوا حولي في تلك الأُمسية.. وجعلته أشَدَّهم اهتماماً بالموضوع، ولو لم ينطق بحرف، ولا تَدَخَّلَ بكلمة..

وانتهى الحديث أو كاد..

وأخذ العقد الملتئم حولي ينفرط..

كأسُ عصيرِ البرتقال ما تزال في يدي.. لم أرشف منها إلا رشفةً واحدة. وكأسُ عصير أُخرى ما تزال في يد الشاب الأسمر، لم يرشف منها رشفةً واحدة فيما لاحَظْتُ.

وتقدَّم إليَّ في هدوء، ومَدَّ يده مصافحاً، ثم أردف قائلاً في صوت وادعٍ أَليف:

سفيرُ الإمارات العربية المتحدة في دمشق.. يسرني أن أراك هنا.. وأن أتعرف عليك.

كانت نبرةُ الود والإخاء في كلماته تَطْغَى على كل الألقاب والعبارات.

كان أخاً عربياً يقدّم نفسه إلى أخٍ وشاعر عربي. بكل ما تحملُ هذه الألفاظ من معانٍ وأبعاد.

هكذا أحسستُ منذ اللحظة الأُولى.. وهكذا كان شعور الشاب الأسمر الهادئ الأليف في يقيني.

شعور بالأُخُوَّة يُلْغِي المسافات، ويهدمُ الحواجزَ في طَرْفَة عين، ويذيبُ كلَّ ما تراكمَ عبر عصور الظلام والاستعباد والقهر والتجزئة على امتداد هذه الأرض العربية الممزَّقةِ المنكوبة الصابرة..

لم أسألْه عن اسمه.. فقد أحسستُ يومئذ في نبرة صوته الحميمة، التي هَدَمتِ الكلفةَ بيننا منذ اللحظة الأُولى، أنه أخٌ قريب.. من ملايين الأُخوة الذين أحملهم في صدري، وأكتبُ لهم شعري، في هذه الدنيا العربية المنثورة بين المحيط والخليج.

وماذا تهمُّ الأسماء بعدئذ؟

وماذا تعني الألقابُ والمجاملات؟

حَسْبُنا أننا خلايا في جسدٍ واحدٍ.. مهما تشَتَّتَ، وتفرَّقَ.. ومهما توالت عليه الطَّعَنات.

ولكنَّ الشاب الأسمر الهادئ الرصين لم يترك الفرصة تمرّ دون أن يعطيني اسمه، وعنوانه، وحتى أرقام هاتفه:

أنا خليفة بن عبد العزيز المبارك..

احفظُ العديد من قصائدك القومية يا شاعري. وأرجو أن نتلاقي في أقرب فرصة في داري، أو في دارك، لا فرق.. نتعارف جيداً، ونتحدث طويلاً..

وشَدَّ على يدي مرةً أُخرى.. مودِّعاً هذه المرة.. ثم انتقل إلى ركن آخر من الجناح.. قبل أن تُتاحَ لي بضعُ لحظات أردُّ فيها التحية الأخوية - كما ينبغي - وأُحدّد موعداً للِّقاء القادم.

* * *

غادَرْتُ مكان الاحتفال بعد قليل.. ترنُّ في أُذني كلمات الشاب العربي الأسمر الذي أُخِذْتُ بصدقِه وعفويته وهدوئه منذ تلك الدقائق القليلة التي

قضيناها معاً. كنتُ على يقينٍ أني قد حملتُ معي من هذه المناسبة ذكرى ثمينةً، وصداقةً جديدة، ولو كان عمرها دقائقَ من الزمن.. في ذلك المساء الناعم الجميل من أماسيِّ الخريف في دمشق.

* * *

ما كاد الأُسبوع ينقضي على لقائنا العابر في احتفال المعرض.. حتى رنَّ الهاتف في بيتي ذات صباح:

- أستاذ سليمان.. السيد سفير الإمارات يريد أن يكلمك..

ثم جاءني صوت الأخ أبي خلدون:

- متى تريد أن نلتقي يا شاعرنا؟ عندي أو عندك.. لا فرق.

ورَحَّبْتُ بالنداء في حرارة قائلاً:

نلتقي مساء اليوم عندي، أيها الأخ العزيز، عندي هذه المرة، أنت ومن تحب من الإخوة والأصدقاء.. إني في انتظاركَ.. ومرحباً بك!

واتَّصلتُ بعدد من الأصدقاء الذين أُحبُّهم، ودعوتهم للاجتماع بهذا الشاب العربي الذي يهدم الحواجز، ويصل ما انقطع من نَسَب وأُخُوَّة، وهو إلى ذلك سفير يمثل دولة، ويشغل منصباً لابد أن يكون فيه الكثير من الاعتبارات والرسميات كما هي طبيعة الأشياء في مثل هذه الحال.

وكان لقاء في بيتي المتواضع..

ودارت أحاديث.. كان للشعر فيها النصيبُ الأوفى.. الشعر الذي يحمل همومنا العربية، ويتحدث عن آلامنا وآمالنا الواحدة.

لَكَمْ كان أبو خلدون يتأثَّر بالشعر الذي يغمس ريشته بالجراح، جراح هذه الأُمة الثكلى.. ثم ينتفض، محاولاً أن يبعث العزائمَ، ويضيءَ طريق الخلاص.

لقد أَصَرَّ عليّ في ذلك المساء أن أقرأَ على الحاضرين قصيدتي في أبي الطيب المتنبي.. كنتُ قد ألقيتُها منذ أمدٍ قريب في مهرجان المتنبي، شاعرنا الخالد، في بغداد. وكان أبو خلدون قد سمع بها، وقرأها في الصحف.

ولبَّيتُ رغبتَه، ورحتُ أُنشد، مخاطباً أبا الطيب شاعرنا الكبير:

أَعومُ في نبضكَ الجبَّــارِ، لا تَعَــبُ
يَمْشِي إِليَّ، ولا الــشُّطْآنُ تَقْتَــرِبُ
أَعُومُ، يَلْفَحُني يَأْسي، وأَحْمِلُــهُ
دِرْعاً، ويَعْصِرُنا في جَمْــرةٍ لَهَــبُ
مَنْ أنتَ؟ يا أَرَقَ التاريخ، يا أَرَقــي
دَعِ السُّؤالَ بصدرِ النــارِ يَغْتَــرِبُ
مَنْ أنتَ؟ يَحْتَرِق التاريخُ في شَــفَتي
على السُّؤالِ، ويَبْقَى السرُّ والحُجُبُ

ثم أُتابعُ:

يا صانِعَ النارِ.. صُبَّتْ مــرةً وَتَــراً
وغَرَّدَ السيفُ في الصحراءِ والغَضَبُ
مِنْ أَيِّ أَبْراجِكَ الخُضْرِ التي شَمَختْ
أَمُدُّ رأسي، وأيَّ الــضوءِ أَغتَــصِبُ
آتٍ إليــكَ، حنينــي مِثْلَمــا عَرفَــتْ
أُولَى الكؤوسِ، وأنتَ الكَرْمُ والعِنَــبُ
آتٍ إليــكَ،
ولا تَسْــأَلْ!
ســأَتْرُكُها
بَقيَّةَ العُمْرِ فوقَ النِّطْــعِ تَــضْطَرِبُ
واحَرَّ قَلْباه! شاخَ الجمرُ في شَــفَتِي

وما التَوتْ زفرةٌ عَطْشَى، ولا عَصَبُ

رَبِيتُ في حَرِّها، لم تَنْأَ عن رَهَقِـــي

بيني وبينَكَ مــن أَوْجاعِنـــا نَـــسَبُ

وأفرغُ من إنشاد القصيدة، ويحملُها الأخ والصديق خليفة في شريط مُسَجَّل بصوتي إلى إخوتنا في الخليج.

كان حريصاً أن يحملَ إلى إخوتنا في الإمارات العربية، وفي غير الإمارات، نبضات قلوبنا، وأشعارنا، وهمومنا، لأنه كان قانعاً من الأعماق أن العطش العربي واحد في كل مكان، وأن القصيدة العربية لا يمكن أن تكون إلاَّ لأبناء العروبة في كل مكان..

* * *

وتتوالى الزياراتُ بيننا..

ونلتقي في داره في دمشق..

ويتصل حديث الشعر والأدب والكفاح.. والهم العربي الواحد..

ويَدْرُجُ طفلُه الصغير خلدون بيننا، كأنه يريد أن يلتقط مبكراً بعضَ الشعرِ الذي يُقال.. أليس للأطفال حصةٌ فيه؟ أليس صديقُ أبيه وضيفُه شاعِرَ الأطفال؟.. يغنِّي لهم، ولهم يكتبُ.. ولذلك «يورقُ قَلَمُه، ويُعْشِبُ دفترُه»، كما يقول في إحدى أغانيه للصغار.

أجَلْ.. يا خلدون.. يا صغيري العربي الذي كبِرَ قليلاً على تخوم رمالنا السمراء.. على شواطئ خليجنا المكلوم..

ما يزالُ صديقُ أبيكَ الراحل الأخَ الوفيَّ، والشاعر الذي يغنِّي لك، ولرفاقِكَ الصغار، أطفالِ اليوم، وشباب الغد، إلى أن تجد أُمتنا العربية ذاتَها، وتحقق وَحْدَتَها، وتقول كلمتها الجديدة للإنسانية.

وما يزالُ الطريق طويلاً أمامنا يا بُنَيّ!

وما زلتُ أمتلئُ يوماً بعد يوم إيماناً وثقةً بالأجيال العربية القادمة، التي ستحمل الأمانة، وتواصل الرسالة.. حتى يتحقق الحُلم العظيم، والهدف المنشود.

وتمضي أعوام..

وينتقلُ أبو خلدون سفيراً للإمارات في باريس.

ويحتشد الأصدقاء، من كل مكان لوداعه في دمشق.. في أُمسية يقيمها هو للوداع.. وأكون أحد الحاضرين في تلك الأُمسية.. وأُودِّعه مع أصدقائه ومحبّيه الكثيرين.. ويشد على يدي في ختام الحفل قائلاً:

سنتلاقى أينما كنا.. لا تنسَ أن تزورني في باريس.. لك هناك أخٌ لا سفير.. سأُتابع قصائدك الجديدة.. أَرسِلْ إليَّ كلَّ شريطٍ يُسَجَّل فيه شيء من شعرك..

وأعِدُه أن تكونَ القصيدةُ أبداً رسولي إليه.. وأن نتلاقى أبداً على الطريق الذي أراده لنا القدر.. طريق الهم العربي الذي يفرض نفسه على الجميع، ويلتقي فيه الجميع، مهما اختلفت المواقع، وتعددت الآراء.

* * *

ماذا أنشرُ من شريطِ الذكرى، وماذا أطوي؟

لم يَنْسَ أبو خلدون صديقَه الشاعر في دمشق، ولا نَسِيَ أحداً من أصدقائه ومحبِّيه الكثيرين.

كان يُرْسِلُ إلينا تحياتِه وأخباره مع كل قادم، ويسألُ عنا، واحداً واحداً. كلما أُتيح له أن يزور دمشق، عاصمة الأمجاد العربية وسجلَّ التاريخ العربي.

وكنا نَسْعَد بتحيته، ولقائه الخاطف من حينٍ إلى حين.

وتمضي الأيام..

وأفتح مذياعي الصغير ذات يوم، لأسمعَ كعادتي كل يوم إحدى نشرات الأخبار. وأُفاجأُ بالنبأ المؤسف الأليم:

سفير الإمارات العربية المتحدة يُغْتَال في باريس.

وتختنق زفرة في الصدر..

وتطفر دمعة صامتة في العين..

لقد ذهَبَ إذاً الشبابُ الذي يملأ القلبَ والعين، والصديقُ الذي يهدم الحواجزَ كلَّها بينك وبينه منذ اللحظة الأُولى.. ذَهَبَ خليفة المبارك ضحية الدوَّامة الرهيبة التي تحاول أن تبتلعَ أُمتنا ووجودنا، وتمحونا، إذا استطاعت، من هذه الأرض العربية، أرضِ الآباء والأجداد.

وأُسارع فأبعث ببضعة أبيات أجعل منها برقية تعزية إلى أهله وذويه المصابين، وإن كنا نحن جميعاً أهلَه وذويه المصابين. وأتلوها ببضعة أبيات أُخرى إلى طفله الصغير خلدون.. شاعر الأطفال لا يجوز أن ينسى أطفاله المفجوعين.

وألتقي بعد حين عم الفقيد الغالي الدكتور راشد المبارك.. الشاعر والأديب العالم.. ونستعيد شريط الذكريات من جديد حيةً، حلوةً، حزينةً، وإذا نحن نحمل الهم نفسَه، والجرحَ العميقَ نفسَه. وأقول لأخي وصديقي الدكتور راشد:

لقد كان أبو خلدون -رحمه الله -واحداً منا.. وكنا جميعاً أهله وأُسرتَه.

ومنذ أيام.. تصلني رسالة كريمة من والد الفقيد الراحل، الشيخ الجليل أحمد بن عبد العزيز المبارك يدعوني فيها إلى المساهمة بما أملك من خواطر وذكريات في كتاب يضم ما قيل في الفقيد الراحل.

وأُحِسُّ أني بحاجة إلى أن أُسجِّل بعض ما في نفسي من أشجانٍ قديمةٍ جديدة، فآخذ القلم المُتْعَب، وأخطُّ ما بقي في أعماق الذاكرة من خواطر، ومواقف لا تُنْسَى..

وأشعر أنَّ القلم المُتْعَب لم يلتقط من هذه الأشجان القديمة الجديدة إلا القليل.. ولم يسجِّلْ إلاَّ بقايا.. وإلاَّ وَمَضات.

رحمك الله يا أبا خلدون..

وعوَّضَ هذه الأُمةَ المنكوبةَ العظيمة الصابرة بأمثالك من الرجال..

وما عَقِمتْ هذه الأرضُ العربية يوماً..ولا بَخِلَتْ بالرجال..

دمشق: 1986/11/17

* * *

كيف تحوّلت الوردة
إلى صاعقة

حكاية من بلادي للصغار والكبار مهداة إلى الشهيدة البطلة سناء محيدلي، ورفاقها الأبطال

نَبَتتْ في الوَهَجِ الأَحْمَرِ، كانَتْ كالصَّباحْ
حُلْوَةً، كالقُبْلةِ العذراءِ كانَتْ، كالأَقَاحْ
من بِلادي، من بِلادِ القَهْرِ والعِطْرِ،
وتارِيخِ الجِراحْ
نَبتَتْ بينَ الحرائِقْ
اجْعَلُوهمْ - هكذا قالوا - طَعاماً للحرائِقْ

* * *

كانَ جيشُ الغَزْوِ والحِقْدِ يَجُوبُ الوَطَنا
يَذْبَحُ الأَخْضَرَ واليابسَ.. يغتالُ القُرى والمُدُنَا
كانتِ الوَرْدَةُ تَنْمو في اللّهَبْ
حلوةً. كالقُبلةِ العذراءِ، تحيا في اللَّهَبْ
وَجْهُها أجملُ من إشراقةِ الشمسِ على أَطلالِ تَدْمُرْ
هل رأيتَ القُبلةَ الأُولى من الشمس لِتَدْمُرْ؟

كان جيشُ الغَزْوِ والحِقْدِ الجَبَانْ
يُحْرِقُ الأَخْضَرَ واليابسَ، يغتالُ الندى والأُقْحُوانْ
وهو مَذْعورٌ من الوردِ الذي يَنْبُتُ في ليلِ الدُّخَانْ
أَبَداً يَنْبُتُ في قلبِ الحرائقْ
كيفَ؟ لا يَدْرِي.. ولا يُمْكِنُ أَنْ يَدْرِي..
ويَمْضِي في الجرِيمَةْ!..
يَنْسِفُ الأَخضرَ واليابسَ.. قد تَسْتأصِلُ الزَّهْرَ
الجَريمةْ

*   *   *

وتُطِلُّ الوردةُ الحُلْوَةُ مِنْ أَنْقاضِ دارْ
وبقايا من جِدارْ..
نَسَفوهُ قبلَ ساعَةْ
ويَغَصُّ العِطْرُ بالدمعِ، ويُخْفِي السرَّ، تُخْفِيه
الوَدَاعَةْ
والصِّبا.. والكِبْرِياءْ
يا لَثَاراتِ الصّبا والكِبْرِياءْ!
يا لَثاراتِ الشقائقْ!
ودَمِ الأطفالِ والأَهْلِ، دَمُ الأطفالِ والأَهْلِ
النداءْ
سوف يَدْرِي الجُبَناءْ
كيفَ تَنقَضُّ الزنابقْ
بالصواعقْ

*   *   *

تَحْزِمُ الوردةُ آلامَ الجَنُوبْ
كلُّها في بسمةِ زَهْراءَ.. إِصْرارَ الجَنُوبْ
وتُدوِّي صاعِقَةْ
وردةُ الفجرِ.. اسْتَحالَتْ صاعِقَةْ
فوق رأسِ الغَزْوِ والحقْدِ الجَبَانْ
يا أعاصيرَ الندى والأُقْحُوانْ
ليسَ للمُحْتَلِّ في أَرضي مكانْ
فَجِّريهمْ، لَقِّنيهم أَوَّلَ الدرسِ، ورَفّتْ كالصَّبَاحْ
فوق تاريخ الجِراحْ..
وانتَهتْ دَفْقَةَ عِطْرٍ.. في كتابِ الشُّهَداءْ
يَشْمَخُ الشعرُ إذا رَفَّ اسْمُها.. يحلو جُنونُ الكِبْرياءْ
اسْمُها كانَ.. سَنَاءْ
أَوَّلُ الغَيْثِ سَنَاءْ

1985/5/9

*   *   *

على هامش «أحزان البنت ميّاسة»(١)

إلى القاص العربي المبدع الأخ والصديق

زيد مطيع دماج

إِني لأَبحثُ عنها.. منذ أَنْ هربَتْ
مني الطفولةُ والقَرميــدُ والــسَّكَنُ
البنتُ ميَّاسةُ الــسمراءُ.. ضــائعةٌ
بيــن الرُّكـــام.. ومــن آبائِهــا
تمشي على الجمــرِ منــذ الفجــرِ
وما تزالُ على الرمضاءِ تُمْــتَهنُ
بحثتُ يا زيــدُ عنها كلَّ زاويــةٍ
من المدينةِ.. طاشت دونها الظِّنَنُ
وجدتُها في حروفي..
نصفَ حَشْرَجةٍ
وبعضَ عاصفةٍ.. يغتالُها الزمنُ
يا زيدُ.. لم يبقَ إلا ما يُجــسِّدُهُ

(١) مجموعة قصصية ظهرت مؤخراً للكاتب.

على الصحيفة هذا الرائعُ الـــشَّجَنُ
لم يبقَ إلاَّ الصراعُ المرُّ..
نصنعُهُ
حُلْماً.. يُضيء على شطآنِه وَطَـــنُ

تعز: 1990/12/15

* * *

يا ساقيَ الجيل..

إلى الموسيقار الراحل محمد عبد الوهاب

الصَّوتُ صوتُكَ..
مِلْءَ الخلدِ ينهمرُ
يا ساقيَ الجيلِ أَصفى ما سَقَى وَتَرُ
تَفْنَى الكرومُ..
وتبقى أنتَ خمرتَنا
تُقَطِّرُ الْمَلأَ الأَعلى وتعتصِرُ
يا ليـــل!
وانسكبَتْ في الليلِ حَنْجَرةٌ
وعَطَّرَ الشرقَ نبضٌ ساحرٌ عَطِرُ
الصوتُ صوتُكَ..
والدنيا مِساحَتُنا..
عُمْرٌ يُجدِّدُهُ في نَبْرةٍ عُمُرُ
قلتُ: الينابيعُ..
قالت: لم تَذُقْ شَفَةٌ
هذا السُّلافَ..

ولم يطمَعْ به سَكَرُ
يا ساقيَ الجيلِ..
غاضَتْ أَلْفُ ساقيةٍ
وأنتَ بالنَّــشْوة العــذراءِ تَــأْتزرُ
تَصُبُّ سحرَكَ في أَعمارنا سَــفَراً
تذوبُ فيه القِفارُ الغُبْــرُ والــسَّفَرُ
وتَزْرعُ الدربَ واحــاتٍ مُنَــضَّرةً
يخضَرُّ في كل لحنٍ شاعرٍ قَمَــرُ
بغدادُ والشامُ مثلُ الأرزِ غمغمــةٌ
سكرى.. وموجةُ حبٍّ ليس تنْحسِرُ
ويعطَشُ المغربُ الأقْصى..
فَتُنْتَزِعُها
كَأْساً..
ويشربُ حتــى الظــلُّ والــشجرُ
الصوتُ صوتُكَ..
مَدَّ الأرضَ أُغنيةً
فالشعرُ يَطْوِي جناحَيْهِ..
ويعتذِرُ..

* * *

الطَّـــائِرُ انْـــداحَ فـــي الآفـــاقْ
وامتـــدَّ كالنيـــلِ فـــي الأعمـــاقْ

كالـــسحرِ، كـــالمَطَرِ المِـــدْرارِ، يجتـــاحُ
تهفو الملايـــينُ عطـــشى.. وهـــو يجتـــاحُ
نُعمى السماءِ ونُعمَى الأرضِ هذا الـــصوتْ
فـــي كـــل بيـــتٍ.. يعـــيش الـــصوتْ
يوزّع الحبَّ فـــي كـــل القلـــوبِ الـــصوتْ
ونحـــن أَطْفالُـــه.. نقتـــاتُ حُلْـــمَ الـــصوتْ
نجـــري وراءَ الـــصدى.. واللحـــنُ ينـــداحُ
كالـــسحرِ، كـــالمَطَر الـــدفّاقِ، يجتـــاحُ
تهفو الملايينُ عطـــشى.. والـــصَّدَى نَهَـــرُ
يـــوزّع الحـــبَّ.. بالأكبـــادِ ينـــصهرُ

* * *

ما زلتِ يا «جارةَ الوادي»[1]...
طُفولَتَنا..
تَنْساحُ في الحارةِ الأَحلامُ والذِّكَرُ
والحيُّ حولكِ مشدودٌ على نَغَـــمٍ
جِنٌّ تُرقرِقُ فيكِ الآهَ.. أم بَشَرُ؟

عَرَّشْتِ في بيتنا.. والعمرُ سوسنَةٌ
لم تنفتِحْ.. وذُرَا قرميـــدِنا خَـــدَرُ
ورُحتِ تمشينَ في أحـــداقِنا أَرَقَـــاً

(١) إشارة إلى رائعة عبد الوهاب المعروفة «يا جارة الوادي».

وَيَنْتَشي الصَّمتُ والجدرانُ والحَجَرُ
يا ساقيَ الرَّغَدِ الــصافي مَرارتَنـــا

طفلاً عشقتُكَ.. والآمالُ تــشتجرُ
البائسون الحَزَانى..
أهلُ قريتِنا[١]..
على لياليكَ..
كم عاشوا.. وكم سَهِروا!
كم قَلَّدوا الصادحَ الجبَّارَ.. عَلَّ سناً
من السماءِ.. على الأفواهِ ينكــسرُ
أَعْطيتَهم لَذَّةَ النُّعْمَى.. ورَوْعتَهـــا
وما لِبَاسِـــمَةٍ فـــي عيــشهم أَثَــرُ
يَنْسَوْنَ عندكَ دنياهم..
وما حَمَلَتْ
من الشقاءِ.. فلا شكوى ولا ضَجَرُ
ينسابُ صوتُك في أَوجاعهم فَرَحاً
ويورقُ الغمُّ في الأضلاعِ والكَــدَرُ
أَحْلَى من الرَّغْدِ..
وَهُمُ.. يَفْرشون به
بُسْطَ النعيم..

(١) النَّعيرية.. قرية الشاعر في شمال سورية.

وتعلو الجنَّةَ السُّرُرُ

وأُرسِلُ الشعرَ في «كُرَّاستي» زَغَباً

وفي سماواتكَ الخــضراءِ انغمــرُ

أَوَّاه.. يا جارتي.. ماذا فعلتِ بنـــا؟

غَطَّى جديبَ الرمالِ العُشْبُ والزَّهَرُ

* * *

ويَكْبَرُ العمرُ والسُّمَّارْ

وتصمتُ الدارْ..

تنأى العصافيرُ عنها.. تُقْفِرُ الأغصانْ

لكنَّ أحزاننا تبقى هيَ الأحزانْ

ونلتقيكَ.. إذا ما غابتِ الشطآنْ

وأبحرَ الهمُّ فينا.. حيثُ لا نجمَةْ

في الأُفْقِ..

لا رنوةٌ جَذْلَى.. ولا بَسْمَةْ..

تُطِلُّ في ليلنا الداجي فتملؤُهُ

شعراً وخمراً، ويحلو الوِرْدُ والصَّدَرُ

كم «رُدَّتِ الروحُ» في أعطافِ أغنيةٍ

وطارَ فينا شراعٌ مُونِقٌ نَضِرُ

* * *

أَبا الذُّرَا..
كلما غادرتَ واحدةً
أَبْدعتَ أُخْرَى..
ويُعْيِي القاطفَ الثَّمَرُ

قَرْنٌ من التَّعَبِ الخَلاَّقِ.. تتركُه
إِرْثاً.. كأنَّ العناءَ المُشْتَهَى قَدَرُ
اللاَّهثونَ وراءَ المجد.. أنتَ لهم
دَرْسٌ.. إذا فَتَحتْ أمجادَها السِّيَرُ
تَطُوفُ حيناً على التاريخ.. تبعثُه
قصيدةً.. وتهزُّ العابرَ الصُّوَرُ
وما سمعتُكَ إلاَّ ضعتُ عن رَشَدي
في غيمةٍ ضاعَ في أَرجائِها السَّحَرُ

الصوتُ صوتُكَ..
خالطتَ الحياةَ به

سِرٌّ على المُعْجِزِ العُلْوِيِّ مقتدرُ
يمرُّ بالنسمةِ السمراءِ هامسةً
في آهتَيْنِ.. وبالشلاَّلِ ينحدرُ
تغوصُ في «المعبدِ»[1] الغافي على
فَيُنْصِتُ الأَزَلُ الغافي ويدَّكِرُ

---

[1] إشارة إلى قصيدة «الكرنك».. إحدى قمم عبد الوهاب الخالدة.

اللَّيلُ ساجٍ..
وأُصغي.. والهديلُ على
جَفْني.. وفي عَصَبي..
يبدو ويستترُ
وأنتَ تهتِفُ بالأَسرارِ.. تمنحُها
نبضَ العروقِ..
وتَهْوِي دونَكَ السُّتُرُ..

غلغلتَ في رَهْبَةِ المجهولِ هينمــةً
صحا بها الجندُ، والأَطلالُ، والسَّمَرُ
وكاد «آمــونُ» أَنْ يلقــاك تمتمــةً
وكاد يغسلُ ليــلَ الرهبــةِ المَطَــرُ

* * *

يا صادحَ الجيلِ..
كم جيلٍ مررتَ بهِ
مُغَرِّداً.. ما وَنَى عــودٌ ولا وَتَــرُ
مَهْرتَهــا بــدماءِ الفــنِّ ملْحَمَــةً
ما تنتهي أَنْجــمٌ فيهــا ولا غُــرَرُ
تَظَلُّ فينا..
على أَهْدابِنا أبداً
أُسْطُورةً في المدى العُرْيــانِ تنتشِــرُ
إذا تعبنــــا.. تَرشَّــفْنَاكَ هدهــدةً
سكرى.. وراح الضبابُ المرُّ يندحرُ

مُسافِرٌ أنتَ؟

لا.. لا..

أنتَ في دَمِنا

والصوتُ صوتُكَ..

مِلْءَ الخُلْدِ ينهمِرُ

تعز - أوائل أيار (مايو): 1991

* * *

خُذْني إلى الشَّجَنِ الحَميم..

إلى الأخ والصديق الرائع الدكتور راشد المبارك

بِاسْمِ الشَّميمِ.. - عَرَارُ نَجْـدٍ خالــدُ[١]
لي مِـلْءَ ذاكـِرةِ الأَريــجِ قـصائِدُ
تَهَــبُ الجُــذورَ حنينَهـا.. وتَرُدُّهـا
وَهَجـاً.. ويَحْتَـرِقُ الخَيـالُ الـشارِدُ
وأَظَـلُّ أَسْتَـسقي الـسَّرابَ.. لأنَّنـي
آمَنْـتُ.. أَنَّ سَـرَابَ قَفْـرِي واعِـدُ
لـم أُلْـقِ لِلْيـأسِ المُـدَمِّرِ ريـشتي
حَطَباً.. تَحَـدَّى الليـلَ بَـرْقٌ خامِـدُ
مَعَ كُلِّ نَبْضٍ مـن صَـحَارَى أُمَّتـي
لي مَوْعِـدٌ.. وأنـا القَتِيـلُ الـشاهِدُ
أَحْبَبْتُ مَوْتي..
فالنشيدُ نُبُوءَةٌ

---

(١) تَمتَّعْ من شميمِ عَرَارِ نجدٍ.. فما بعد العَشِيَّةِ من عَرَارِ«شاعر عربي قديم»

بِقيـــامتي.. والعُمْـــرُ حَـــرْفٌ ســـاهِدُ
ويَمُرُّ مِنْ فــوقي صَـــهيلُ فَــواجعي
وأُصِــرُّ.. أَنَّ سَــرابَ رَمْلــي واعِــدُ

* * *

لَكَ في جَنَاحي خَفْقَةٌ.. يــا شــاعِري
سَـــبَحاتُها بـــينَ النجـــومِ شـــوارِدُ
إِنـــي لأَبْحَــثُ عَــنْ يَنَــابيعي التـــي
أَبَــتِ الرحيــلَ وأَنْــتَ منهــا واحِــدُ
وتَغِيبُ في الحَلَــكِ الرهيــبِ ســمَاؤُنا
وتَظَلُّ فــي كَفِّــي الخـضيبِ فَراقِــدُ
قَطَّـــرْتُ أَوْجـــاعَ العُروبـــةِ نَبْـــرةً
وهَتَفْـــتُ بالأَجْـــداث: إِنّـــي عائـــدُ

* * *

بِاسْمِ العَــرَارِ.. يَعــيشُ فيمــا بَيْنَنــا
نَسَبٌ علـــى عَبَــقِ الأَصـــالَةِ خالـــدُ
بِاسْمِ الشميمِ..
ولو «عَشِيَّاتُ الحِمَى»
غارَتْ.. سَــنُبْدِعُها.. ونحــنُ نُكابِــدُ
نحنُ الشَّذَا..

والأَرْضُ فيما حَوْلَنا

غابٌ.. يَجُــوسُ بــهِ «إِلــهٌ» حاقِــدُ

* * *

ويَجِيءُ صوتُكَ.. مِلْؤهُ شَجَنُ الْهَــوَى

هَــمٌّ.. يُطارِدُنـــا مَعـــاً.. ونُطـــارِدُ

هل كـــانَ حُلْــمُ العاشــقينَ ضَــلالةً؟

أَمْ أَنَّنـــا خَـــيْطُ النهـــارِ الرائـــدُ

نحـــنُ الـــذين تَلَقَّفَـــتْهُم نَغْمَـــةٌ

مِنْ نـــاي راعيـــةٍ.. وبيـــتٌ شـــارِدُ

نَخْضَرُّ فـــي صَـــدْرِ القَـــوافي مثلمـــا

تَخْضَرُّ فـــي صَـــدْرِ الربيـــعِ نَواهِـــدُ

الـــشَّاربون سُـــلافَةً.. مـــا ذاقَهـــا

إلاَّ فَـــمٌ بِكُـــرومِ «عَبْقَـــرَ» زاهِـــدُ

نَظْما.. لِتَنْــبجِسَ الــصخورُ جــداولاً

ونجوعُ.. كي يُثْري البيــادرَ حاصــدُ

* * *

لَكَ في جَنَاحي خَفْقَةٌ

هِيَ هَمْسَةٌ

مَهْزُومـــةٌ حينـــاً.. وحينـــاً مـــارِدُ

آلَيْتُ انْتَجِــعُ الــصَّفاءَ.. ولــو نَــأَى

خَلْــفَ الطِّبَــاقِ الــسَّبْعِ.. إنّــي وارِدُ

كُنَّا الطُّفُولةَ..

والبشائِرَ..

والرُّؤَى

غَنَّى مَلاحِمَنا «زَمَانٌ» جاحِدُ

لا هَمَّ.. نَنْتَجِعُ الصفاءَ..

ولو نَأَى..

عِطْــرُ الْبَــراءةِ والأُلُوهــةِ واحِـــدُ

*   *   *

خُذْني إلــى الــشَّجَنِ الحمــيمِ.. بَقِيَّــةً

مــن جَمْــرَةٍ.. والــذارياتُ هَوامِــدُ

بِاسْمِ الــشميمِ.. أَعُــبُّ آخِــرَ قَطْــرَةٍ

وأَقُــولُ للأَحبــابِ: إِنّــي عائِــدُ

مونتريال - كندا: 1992/8/4م

*   *   *

لُغَـة الرمـال

إلى أبي محمد الدكتور إبراهيم المديميغ

حَمَل الصَّباحَ على يَديهِ،
وَجاءني
يوماً.. يُشاطرني هُمومَ صَباحي
لم تَنطفِئْ صحراؤُنا.. همسَتْ يدي
هذي بقايا الشمسِ..
تَعْصِرُ راحي
اكتُبْ معي لُغَةَ الرِّمالِ.. فإِنَّها
لُغَةُ الخُلودِ.. ولُفَّني بِجراحي

الرياض: 1994/2/22

*   *   *

ليالينا القُدامى
على هامش بطاقة(١)

إلى الصديق د علي القَيِّم

أَنَا.. ومَلَكْ
ونَجْمٌ.. في سديم فَلَكْ
يَشُدُّ إِلَى
ليالينا القُدَامَى
أَعِنَّتَنَا.. يَتَامى
نَظَلُّ بِلا دِمَشْقَ.. بِلاَ أَحِبَّتِنا القُدَامَى
بلا صَيْفٍ..
ولا «متحَفْ»(٢)

وقَهْقَهةٍ مِنَ الأَعماقِ..
فوقَ جِرَاحِنا تَزْحَفْ

(١) بطاقة عيد أرسلها الصديق د. علي القيِّم ذات يوم إلى صديقه الشاعر من دمشق إلى تعز، مترعة بالحب.

(٢) متحف الطب والعلوم عند العرب (بيمارستان نور الدين زنكي) في دمشق وفنائه الجميل.

بِلاَ «قِدِّيسَةٍ» رَقصَتْ معي يَوْماً..

بِلاَ ليلٍ.. ولا قَمَرٍ
بِلاَ سَهَرٍ.. ولا وَتَرِ
و«صَوْتٍ»[1].. هَزَّنا يوماً..
وضِعْنا فيه.. ضاعَ بنا
بِلاَ غاباتِ أَجْنِحَةٍ..
يَتَامَى..
نَظَلُّ.. بِلاَ أَحِبَّتِنَا القُدامَى!

* * *

سَلاَمٌ.. يا أَخَا العُنْقُودِ،
والنارِنْجِ.. والأَزْهارِ..
في «المتحَفْ»!

سَلاَمٌ.. يا فَرَاشَتيَ الصغيرةَ والكبيرةَ..
يا أَرَقَّ العِطْرِ والنَّسَماتِ..
في «المتحَفْ»!
سَلاَمٌ.. يا ليالي الصيفِ
حَوْلَ «البِرْكَةِ» البيضاءْ!

سلامٌ.. يا نوافيرَ الحنينِ..
ويا غِنَاءَ الماءْ!

---

(١) الفنان صفوان بهلوان.

سلامٌ.. يَزْرَعُ الدنيا نُجُومَ فَلَكْ
تُضِيءُ بِحُبِّنا الباقي..
أَنَا.. ومَلَكْ!

تَشُدُّ إلى ليالينا القُدَامَى
أَعِنَّتَنَا..

سنَرْجِعُ.. يا ليالينا القُدَامَى!
سنَرْجِعُ.. لِلْبَنَفْسَجِ والخُزَامَى
سَنَرْجِعُ.. لِلأَغاني والنَّدَامَى

فهَيِّءَ عَبْقَةَ النارنْجِ..
هَيِّءْ ما يَشَاءُ الحُبُّ..
إِنَّا قادِمونَ.. إِلى ليالينا العِذَابِ،

إِلَى أَحِبَّتِنَا القُدَامَى..

*   *   *

غابة دارم

حفيدي دارم في الثامنة..

إنه يرسمُ، ويبعثُ إلينا بصوره الجديدة بين الحين والآخر.

حين يرسمُ طفلٌ يضعكَ أَمام عالمٍ أُسمّيه: البراءةَ المبدعة، أو الإبداعَ البريء.

الصورةُ الأخيرةُ التي أرسلها إلينا من وراءِ البحار كانت صورةً لغابة، سميتُها: غابة دارم.

الصغير يعيشُ في مونتريال بكندا.. وطن الماءِ العَذْب، والغاباتِ البِكْر.

ولكنَّ خيالَ الطفل يظلُّ شيئاً آخرَ، أبعدَ من الواقع، وربَّما أخصبَ وأغنى.

كان في الثانية من عمره حين غادرنا مع أُسرته.. ورَحَل.

العصافيرُ تغادرُ أَعشاشها وترحلُ. لا يَسَعني إلا أن أحزَنَ قليلاً لهذا. هل ضاق الوطنُ بعصافيره حتى اضطرَّها إلى أن تنزحَ وتضربَ في الآفاق؟

غابةُ دارم أَمامي.. بأشجارها، وطيورِها، وحيواناتها، وبعضِ الغيومِ الشاردة التي تنتثرُ فوقها.. نتأمَّلها معاً - أنا وجَدَّتُه - ثم نُعلِّقها بعنايةٍ على الجدارِ، في صدر البيت.

* * *

سنزورُه في هذا الصيف.. مهما كَلَّفَنا السفر. العصافيرُ ترحلُ، تبتعدُ عنا، ولكنها تظلُّ أبداً في قلوبنا وأوجاعنا، نحنُ الكبار، تشدُّنا إليها، ونحاولُ أن تظَلَّ الخيوطُ متصلةً بين الجذور والفروع التي اغترَبَتْ.

لا أَحَد يستطيعُ أن يوقفَ هذه الغربة. لقد أصبحَ العالمُ صغيراً، وإن كان ما يزالُ غابةً يرسمُها دارم. ويحاولُ أن يزرعَ فيها شيئاً من الطفولة والبراءة. فهذا الذئب الذي يجوسُ بين الأشجار، يحيط به رفٌّ من العصافيرِ الملوَّنة، كأنما تقول له: لستَ وحدكَ هنا.. نحنُ بهجةُ المكان وجمالُه. وهذه الزهرةُ البريَّةُ الرائعةُ يضعها دارم على حدود الغابة، كأنها هي الحارسُ الذي يأذنُ بالدخول والخروج.

*   *   *

يا حفيدي الصغير!

واصلِ الرسم.. وابعث إلينا بأحدث ما تبدعُه الأناملُ الغَضَّة. لقد أنفقَ جدُّكَ عمره يرسمُ همومَه بالحرف الوجيع، فتابع أنت الرسالة.. إضافةَ شيء من البهجة والجمال إلى العالم الذي أعطانا الكثير من الحزن والألَم.

صنعاء: 1995/7/1

*   *   *

برندا تترجم شعري

قالت الصديقة الإنكليزية برندا:

إقرَأْ لي إحدى قصائدك، أحبُّ أَن أستمع إلى إيقاع الشعر العربي، يُلقيه الشاعر نفسُه. أنا شاعرة أيضاً.

وفتحتُ كتابي الذي كان قد صدر حديثاً بعنوان: «الكتابةُ أَرَق»، ورحتُ اقرأ للصديقة قصيدتي النثرية: الفَرَاشة.

كانت تُصغي باهتمام. وعندما فرغتُ من إلقائي بادرتني بالسؤال التالي، وكأنَّها قد أفاقت من حُلُم:

هل تُرجم شيء من شعركَ إلى اللغة الإنكليزية؟

قلت: لا.. حتى الآن.

أجابت:

ما رأيكَ أن نقوم معاً بهذه المهمة؟ معرفتكَ بالإنكليزية لا بأس بها. نختار عدداً من قصائدك - تختارُها أنت على الأصح - ونبدأُ العمل.

أعرفُ صعوبةَ نقل الشعر من لغة إلى أُخرى.

إن أسرار اللغة كلّها تكمنُ فيما يقوله شِعرُها.

ولكني سأُحاولُ جهدي أن أصلَ إلى ما تريد.

ووجدتُني أُوافقُ على الفكرة.

وفي اليوم نفسه بدأنا العمل. اخترنا معاً بعناية ودقة عدداً من القصائد الصغيرة. آثرنا الحُلُم، والدفءَ، والإيقاعَ الخاص. لم أشأ أن أُرهقَ صديقتي بقصائد الهمِّ العربي الذي وقفتُ عليه وجودي الشعري. لم أشأ أن أُحمِّلَها هذا العبء. تركته لي، ولمن يحملونه معي.. وأنا قانع في الوقت نفسه أن الشاعر لا يتجزَّأ، وأن كلمته لابدَّ أن تحمل شيئاً منه، أَنَّى طارت، وعلى أيِّ سياجٍ حَطَّتْ.

* * *

برندا.. أيتها الصديقة الشاعرة!

لقد جاءني بعدئذ شاعر فرنسي صديق مثلك[1]، وأَعدنا معاً المحاولة نفسها. ونقل إلى الفرنسية مجموعة من أشعاري بعنوان: «رائحة الأرض»، اتَّكأ في معظمها على مجموعتك التي ترجمتِها لي، بعنوان: «الفَرَاشة وقصائد أخرى».

أيتها الصديقة العزيزة.. شكراً لكِ وله..

(١) الشاعر الصديق أتاناز فانشيف دوتراسي.

أخي الكبير

محمد العيسى

يجيئُني نبأ وفاته من اللاذقية.. وأنا في أعماق اليمن.

أطوي البرقية بين يديَّ، وأشرد بعيداً في الزمن..

إنه أخي الكبير محمد، الذي عُرف بكنيته بين الأصدقاء والزملاء «أبو بسيم».

أُوجزُ الأعوام الطِّوال في لمحة، وأعود إلى ضفة «العاصي» في حارتنا الصغيرة، في لواء إسكندرون.

كان يحبُّ السباحةَ، وهو الذي علَّمني أولى دروسها العملية في النهر. نخرجُ من الماء معاً لنتخذَ لنا مكاناً في ظل أقرب شجرة، ثم يبدأُ تعليمي أولى الخطوات في هذه اللغة الجديدة التي فرضها الانتداب الفرنسيُ على سورية: اللغة الفرنسية.

كان محمد العيسى أول طالب من الريف كله يلتحقُ بالمدرسة في المدينة. لقد أَصَرَّ الوالد الشيخ أحمد أن يفتح أبواب التحصيل والعلم أمام أولاده، وأن يكونَ بهذا رائداً وقُدوةً في ريفنا المهمَلِ الفقير كلّه.

وأدخلُ معه المدرسة في المدينة بعدئذٍ..

وتكون محنةُ اللواء.. وننزحُ معاً إلى سورية.

وبالشهادة الثانوية الأُولى التي كان هذا الريفيُّ المكافحُ يحملُها يحصلُ على وظيفة معلم ابتدائي، ونعيش معاً أعوامَ الهجرة والغربة العِجَاف.

من قرية.. إلى قرية.. في جبال اللاذقية كان يتنقَّلُ، واتنقَّلُ معه.

ويستقرُّ أخيراً في اللاذقية نفسها، وأعيش أنا في حلب ودمشق، ولكنَّ خيوطَ الطفولة بيننا لا تنقطع.. أزوره ويزورني ما أُتيحت لنا الفُرَص، ويُحس أبداً أنه الوصيُّ على أخيه الصغير الذي شَبَّ عن الطَّوْق.

* * *

وتكونُ له أُسرتُه.. وتكونُ لي أُسرتي أيضاً من أولادٍ وأحفاد.. ولكنَّ «أبا بسيم» كان يشعر في أعماقه أنه هو الراعي الكبير للأُسرة كلها.. معنوياً على الأقل.

يقرأُ كلَّ ما أكتبُه وأنشره من شعر ونثر.. ويهزُّ رأسَه من حين إلى حين إعجاباً -رُبَّما- بهذا الأخ الصغير الذي عَلَّمه أُولى دروس السباحة في «العاصي»، وأُولى دروس اللغة الفرنسية.

* * *

رحمك الله.. يا أبا بسيم! فقد كنتَ في طليعة الذين شاطروني حلو الحياة ومُرَّها في الزمن العصيب الذي اقتلعنا أشواكه بأيدينا في كل خطوة خطوناها على طريق العمر.

تعز: 1994

* * *

مثَلَّجة.. وغارة

الخريف يجمع غيومه الشفيفة، ويُدَثِّر بها الجبل كله.

الخريف شاعر ينثر قصائده كل يوم على الطريق الذي ينحدر بي إلى بيروت، ينقلني في مثل اللمح من نسمة صوفر الباردة في أعلى الجبل إلى نسمة البحر الرطبة في كورنيش المزرعة.

أنا في طريقي إلى المطبعة، أُصحح فصول هذا الكتاب. ولابد أن تأكل الحروف، مرة أُخرى، ما تبقى من ضوء العين.

الأخ الشاعر منير حمودي، المشرف على كتابي، والأخ حكمة مشموشي أبرع من نضَّدَ كلمة مطبوعة على شاشة حديثة ينتظرانني، لِنُنجزَ العمل معاً.

* * *

بيروت تنفض رمادها، وتنهض من الحطام الذي فُرِض عليها. سبعة عشر عاماً ظلت الأيدي الحاقدة على لؤلؤة الشرق ووردة العرب تصب فيها الخراب والدمار.

عشرون ألف.. ثلاثون ألف عامل يحفرون شوارع اللؤلؤة المدمَّرة، يزيلون الأنقاض، يعيدون بناءها مرة أُخرى. أسطورة طائر الفينيق التي نبتت هنا لم تكن عبثاً. ها هو ذا ينشر جناحيه، ويعود مرة أُخرى، والأيدي الحاقدة ما تزال تضرب في الجنوب، تقتل الناس، وتدمِّر البيوت، والجنوب ما يزال صامداً.

أنا في طريقي إلى المطبعة، وآخر فصول هذا الكتاب تنتظرني، لابدَّ أن أكون مع الصفحات المنضَّدة، أُعيد قراءتها كلمةً كلمة، وحرفاً حرفاً، لأطمئنَّ على أني سأضع بين يدي قارئي كتاباً سليماً من الأغلاط. وبعد الجهد والعرق، وإحراق ضوء العين، تبقى أغلاط ولا ينجو الكتاب من هفوات، نعزّي أنفسنا عنها بمثل هذه العبارة: «أخطاء لا تخفى على القارئ اللبيب» .

قبل المطبعة.. لابد أن أُلقي حقيبتي الصغيرة، وأنزل ضيفاً على أبي زياد، وأُم زياد.

في البيت الوادع الأليف، بيت أبي زياد الذي يحتلُّ الدور الثامن من بناء يرتفع عالياً في باحة ضيقة من «برج أبي حيدر»، أضع حقيبتي الصغيرة، والتقط أنفاسي.

القريبان العزيزان عثمان وسميرة[1] يتلقيان عمهما الشاعر كما يتلقى المرفأ الصغير الآمن شراعاً مُنْهَكاً وصل لتوه من أعماق البحر.

- الكهرباء لم تنقطع منذ ساعات. والمِصْعَد يعمل. كان حظُّك عظيماً يا شاعرنا. ولو تأخرت قليلاً لاضطررت إلى صعود الطوابق الثمانية مشياً على قدميك.. هذا ما نفعله كل يوم.

تستقبلني قريبتي الرقيقة المرهفة أم زياد بهذه الكلمات وهي تسرع إلى تهيئة فنجان القهوة.

- الصعود مغامرة حلوة.. مهما كان الثمن، وأنا على تعبي وكِبَري ما زلت أحب مثل هذه المغامرات.. أسرعي بفنجان القهوة أيتها العزيزة.. المطبعة بانتظاري.

يضحك أبو زياد، هذا الفتى النجيد الذي يهب وقته ونفسه لي، ولكل من يمتُّ إليه بصلة، كلما لقينا ولقيناه.

---

(1) عثمان عيتاني وسميرة أبيض.

- عندما تعود من عملك عند الغروب، سنكافئك اليوم بنزهة حلوة في السيارة يا أبا معن. أعرف مكاناً في الضاحية يصنع أشهى «المثَلَّجات» في بيروت، لابد أن نمر به، وننعم عنده بطبق من «البوظة» ينسيك تعب النهار كله.

وأغرق في عملي طوال النهار..

وأعود في الغروب.. لأجد القريبين العزيزين أبا زياد وأُم زياد بانتظاري.

- إلى المشوار، إلى الضاحية، يجب ألاَّ نتأخر.. تهتف ابنة العم سميرة، هذه النسمة الرقيقة التي تملأ البيت حركةً ونشاطاً على رقتها ونحافتها. يسبقنا إلى السيارة ولداهما طالبا الثانوية والمتوسطة زياد وعماد، وهما أشدُّنا حماسةً لنزهة الغروب، و«المثلَّجة» الشهية التي تنتظرنا.

تنطلق بنا السيارة جنوباً، والشمس تلمُّ آخر أشعتها عن لؤلؤة العرب التي تنفض رمادها، عن بيروت، ونسمة البحر الطرية تداعب وجوهنا، توشوشنا: أنا هنا.. يزول الغزاة كلهم، ويبيدون، وأبقى لكم، أبقى هنا.. للحب، والشعر، والحياة، لكل ما يجعل الإنسان إنساناً على الأرض، وتحت السماء.

يا نسمة البحر الطرية.. كُتبتْ فيك قصائدُ لا عدد لها، وتغنَّى فيك شعراء لا يُحْصَون، وبقيت أنتِ، أنتِ على العصور، تُمدِّين الجذورَ بالنُّسْغ الحي، وتجددين فينا الحياة.

نحن في «خَلْدة» الضاحية الجميلة الخضراء، والبحر جارنا، والأضواء تسطع على الطريق، والهدوء يلف كل شيء حولنا، إذا استثنينا حركة الطريق وزحام السيارات المتلاحقة عليه.

ويقف أبو زياد بسيارته أمام حانوت أنيق إلى جوار الشاطئ:

- هذا هو المكان الذي يصنع أشهى «مُثَلَّجة» - آيس كريم - في بيروت، بل في لبنان كله. تفضلوا.. فانزلوا!

وننزل، ويستقبلنا صاحب الحانوت ببشاشة وأُلفة، كأنه يعرفنا من زمن بعيد، ونطلب إليه ما نريد.. وما هي إلا لحظات حتى تكون «المُثَلَّجة» الشهية

أمامنا، ونحن نرمي بأبصارنا إلى الهضاب العالية المجاورة التي لفّها الظلام منذ قليل، إلا من أنوار تلمع هنا وهناك على الجبال الصامتة.

كنت قد أخذت أنسى تعب النهار كله بالفعل، وأنا أتناول «المرطِّبة» اللذيذة، وأشرد في هذه القمم الغريبة الصامتة التي لفها الظلام منذ قليل.

فجأة.. يدوِّي انفجار رهيبٌ على إحدى الهضاب المجاورة التي نتأملها، ثم يتلوه انفجار ثانٍ.. فثالث.. فرابع..

كانت الأصوات التي زلزلت الهضبة غير بعيدة عنا، حتى خُيِّل إلينا أن الانفجار التالي سيكون فوق رؤوسنا.

وأخذت سحب الدخان ترتفع في الجو، ثم عاد الانفجار بعد لحظات يزلزل التلال الوديعة المجاورة.

- ما هذا يا أبا زياد؟

سألت بلهفة، وقد توقفت عن تناول «مرطِّباتي» .

- غارة.. يا أُستاذ.. غارة من هذه الغارات التي يشنها العدو علينا كل يوم تقريباً. طائرات صهيونية تقذف المنطقة، تريد أن تُسكت الصوت الذي ظنوا أنهم أخمدوه إلى الأبد.. صوت لبنان الحر المقاوم. الغارات تتوالى.. ولبنان المقاوم العنيد ما يزال واقفاً على قدميه. أكمل «بوظتك».. ولا تهتم. لن نبرح مكاننا حتى تنتهي الغارة، ونواصل «مشوارنا».

وتنتهي الغارة بعد قليل..

ينتهي القصف المدمّر..

وأعيننا معلَّقة بسحب الدخان الذي يعلو وينتشر فوق الجبل حتى يبلغ عنان السماء، تاركاً وراءه حطاماً من الدور، وحطاماً من الناس، وكأنه يقول بلسان العدو المُغير:

تلـــك آثارُنــــا تــــدلُّ علينـــــا..

نعم.. تلك آثارهم تدلُّ عليهم، على المجرمين القَتَلة.

إن الحقد الذي انصبَّ على بيروت، لؤلؤة العرب، سبعة عشر عاماً يُعمل فيها الدمارَ والخرابَ، ما يزال يوالي ضَرَباته على الجنوب، وعلى الضواحي، وفي كل مكان ترتفع فيه نبرة مقاومة، نبرة عنفوان، ترفض الغزو، وتقول: لا، للغزاة.

نكمل «مرطِّباتنا» التي نَغَّصَتْها الغارة الوحشية، ثم ننهض في صمت، عائدين إلى البيت.

تشرين الأول: 1995

*   *   *

حين يجري النُّسْغ

إلى المفكر العربي الدكتور هشام الشرابي
على هامش كلمته: «ليكن الشعارُ تفاؤلَ الإرادة لاتشاؤمَ العقل»

حين يَجْري النُّسْغُ في قلب الشَّجرْ
لا يراهُ الوَرَقُ الأصفَرُ..
لا يَلْمَحهُ الغصنُ الذي شاخَ،
ولا تدري «قياداتُ» اللِّحاءْ
ما الذي يَجْري ورَاءْ..
ما الذي يُخْفِي الخَفَاءْ؟
ما الذي خَبَّأه الغيبُ بقلبِ الدَّوْحِ
من خِصْبٍ، وظلٍ، وثَمرْ؟
حين يَجْري النُّسْغُ..
والعُقْمُ هو الرابضُ فوقَ العُنُق
ما حقاً كُلَّ وميضٍ
من خُيوط الشَّفقِ
لا تَرى الأعْيُنُ إلاَّ هاوِيَةْ

حيثما دارت ودُرْنا
باغَتتْنا هاوِيَةْ
غير أنّي..
لم أزَلْ منذُ عرفتُ الضوءَ
لِلنُّسْغِ أُغَنِّي..
قائلاً لِلْغُصُنِ المَيْتِ..
لِسُلْطانِ اللِّحاءْ
طارئٌ أنتَ..
وشيءٌ آخَرٌ عُمْرُ الشَّجَرْ

* * *

أيُّها المُبْصِرُ مثلي بالجذورِ الهارِبَةْ
تحت أطباقِ الثرى..
في كُلِّ فَجٍّ ضاربةْ!

أيُّها المُمْسِكُ بالخيطِ الذي يُعْيِي البَصَرْ
قل لهذا «اليَبَس» الطاغي،
لهذا المَوْتِ..
لم نيأسْ من الراقدِ في صمتِ الحَجَرْ

الينابيعُ التي تولَدُ من صمتِ الحَجَرْ
لم تَمُتْ..
لم يَمُتِ الروحُ الذي سمَّيتُه النُّسْغَ،

وَلا ماتَ الشَّجرْ

إِنني مِثْلَكَ أسْتَذري بِوَهْجِ الحُلْمِ،
أصغي لنداءات ينابيعي
بأعماقِ الحَجَرْ

1993م

* * *

يا أيُّها القادمُ من مخابئِ النجوم!

إلى الفنان اليمني الذي اختار العزلة
وكان في عزلته النبيلة ملءَ القلوبِ
والأسماع إلى هاشم علي في يوم تكريمه

لِمَ الطَّوافُ يا صديقي في مدائنِ الضَّجَرْ؟
لِمَ انتجاعُ الشرق والغربِ؟
لِمَ السَّفَرْ؟

ما دامَ خِصْبُ الأرضِ وامتدادُها في عيشتِكْ
ما دامتِ الدنيا على سِنانِ ريشتِكْ
تُوجزها في ضربةٍ.. في لوحةٍ..
تَمدُّها غُصْنين وارِفَيْنِ في عريشتِكْ
لِمَ الطَّوافُ.. أيُّها الساقي الذي يعتصِرُ العُمُرْ
ويُترِعُ الأكوابَ من خمرتِهِ..
لِمَ السَّفَرْ؟

* * *

يا أيُّها القادمُ من مدينةِ الظَّمأ[١]
في جيبِه كنوزُها..
وسحرُها الضائعُ بين الأرضِ والسَّما

ماذا حملتَ لي من الوادي..
قَصَدتُ «واديَ الضَّبابْ»[٢]؟
تركتُ فيه الصَّحْبَ والحُبَّ،
وبُقيا من دم الشبابْ

أذبتُها قصائداً..
غنيتُ فيها الليلَ والسَّحَرْ
والصفوَ والكَدَرْ
والصحوَ والمَطَرْ
كما تغنّي أنتَ في صمتِكَ..

في ألوانِكَ الحَرىَّ.. بلا حَذَرْ

يا أيُّها الساقي الذي يعتصرُ العُمُرْ
ويسكب العالَمَ في ريشتِهِ
لِمَ السَّفَرْ؟

* * *

(١) مدينة تعز.. بلد الفنان الصديق.
(٢) مكان شاعري معروف في ضاحية تعز.

اكتُبْ على كوخِكَ: هذا مَعْبَرُ الخلودْ
ومن هنا.. من صمتنا.. يأتلقُ الوجودْ
يُصبح للأشياءِ معنى..
يَنْبُتُ الزَّهَرْ
على ضِفافِ بؤسِنا..
يُغرِّد القمرْ..
يذوبُ كلُّ صَخَب العالَمِ في همستنا..
يَذَّكرُ البَشَرْ
بأنهم من نبعةِ السماءِ..
قبلَ طينةِ الكَدَرْ

* * *

اكتُبْ على كوخِكَ: أنَّ الفنَّ والجمالْ
هما الجوابُ.. حينَ في الشفاهِ يَذْوي،
يَبْبَسُ السؤالْ..
هما العَزاءْ.. حين يمحو البهجةَ النَّكالْ

اكتُبْ على كوخِكَ: هذي بسمةُ الأطفالْ
يا من حُرِمْتَ قطرةَ النُّعْمى..
إلى جَنَّتِنا.. تَعالْ!
في كفنا المعروقةِ المُعْدِمةِ الكرومُ والثمرْ

تعالَ.. في ألوانِنا..
وفي قوافينا..
يُغَنِّي..

يَنْبِضُ الحَجَرْ
يا أيُّها القادمُ من مخابئِ النجومْ
تُطْلِعُها أنتَ كما تشاءُ..
في أنهارِها تَعُومْ

مثلي تَغَرَّبْتَ..
أضاءَتْ ليلَك الهُموم
صنعتَ دنياكَ.. بلا تُخومْ

رضيتَ بالنَّقاءِ.. سِرُّ الوردةِ النَّقَاءْ
نهلتَ من عبيرِه.. نَهلْتَ ما تَشاءْ

مثلي تغرَّبْتَ..
ولم نَتَّهِمِ البَلَدْ

ولا شكونا الغُبْنَ والعُقوقَ من أحَدْ

نحنُ الأُلى اختَرْنا
وآثرنا على سنابلِ الجمرِ..
على قِمَّتِنا البقاءْ
نحنُ الأُلَى اختَرْنا..
ولا رِدَّةَ في العِشْق، ولا نَدَمْ
بعشقِنا.. نُواجهُ العَدَمْ

لم نقتنِعْ بمنطقِ تُبدعُه مدائنُ الضَّجَرْ
دعنا إذاً، على هديرِ جرحِنا،
نُواصل السَّفَرْ..

*   *   *

شُكراً لمن يُكْرِمُنا..
تعرِفُ كيفَ نُكرَمُ!

وفوق آلافِ الجراحِ النازفاتِ أبداً
كيفَ يُرَشُّ بَلْسَمُ؟

نُريدُ..
كلُّ ما نريدُ، والدربُ عَجَاجٌ أسْحَمُ
ومُظلمٌ، من دون عُصفورٍ يغنّي، مُظِلمُ

ألاَّ تَسُدَّ قبضةٌ في وجهِنا وَجْهَ السَّما
ألاَّ يَمُدّوا يَدَهُم بأيِّ كأسٍ..
حينَ نختارُ الظَّما

أنْ يتركونا لنعيمِ الحرفِ،
أو عذابهِ.. لا فَرقْ
لِشهقةِ الريشةِ تبني عالَماً
في مثل وَمْضِ البَرقْ

نُريدُ..
كلُّ ما نريدُ ألاَّ يُقْتَلَ الحُلُمْ

أغلى وأحلى ما مَلَكْنا..
ما سنملِكُ.. الحُلُمْ
طفلٌ جميلٌ..
بكنوزِ الأرضِ لا نبيعُهُ.. الحُلُمْ
ولم يَزَلْ يزحزِحُ الكابوسَ
عن أجفانِنا.. حُلُمْ

يُصارِعُ السكينَ في أعناقِنا حُلُمْ

* * *

شُكْراً لمن يُكْرِمُنا..
وقد وقَفْنا نرفَعُ الشراعَ لِلسَّفَرْ

وخَلْفَنا إِرْثٌ من العَذَابِ..
يُعطي الحُبَّ..
يُعطي الدِّفْءَ..
لِلبَشَرْ

صنعاء: 1996/12/23م

تبارَكَ الشعر!

من قصيدة في أربعين عمر أبو ريشة

لم يبقَ في هذه الــصحراء غيــرُ صَـــدَى
فانفُضْ غبارَكَ..
وانزِلْ عُشْبةً وندى

وأقْفَـــرتْ.. لا تَـــسلْها كيـــفَ؟ إنَّ لنـــا
فـــي القفـــرِ مُتَّكَـــأً حُلْـــواً ومُتَّـــسَدا

تبـــاركَ الـــشعرُ.. جَفَّـــتْ كـــلُّ بارقـــةٍ
ومـــا يـــزالُ عـــزاءَ المُـــدلجين سُـــدَى

تبـــارَكَ الـــشعرُ.. مَـــرَّتْ فـــوقَ ريـــشتِه
تعاســـةُ الكـــونُ فانهلَّـــتْ صَـــباً بَـــرَدى

أخـــا العَـــذَاب.. ومـــا ضِـــقْنا بِمْوجِعـــةٍ

منـــــه، ولا جمرُنـــــا فـــــي لُجِّـــــه هَمَـــــدَا

علـــــى الجـــــدارِ.. تركنـــــاه «مُعَلَّقَـــــةً»
كـــــم عـــــابرٍ لاْرتِعاشـــــاتِ الـــــسنا سَـــــجَدا

ونحملُ الْعِبء، عِبْءَ الحـــرفِ، منتـــصراً
حينـــــاً، ومنكـــــسراً حينـــــاً، ومُـــــضطَهَدا

وما نبـــالي.. ورثنـــا النـــارَ فـــي دمنـــا
فـــأينَ أهـــرب ممَّـــا فـــي دمـــي اتَّقـــدا؟

1990م

* * *

أُنْشُرُ جَنَاحَيْك

في ذكرى الشاعر إلياس أبو شبكة بعد مرور خمسين عاماً على رحيله

أنْشُرْ جَناحَيْك..
إِنَّ الشعرَ يُحْتَضَرُ
وهاتِ عُشْبَكَ..
فالصحراءُ تنتظِرُ

تكَلَّمَ البرقُ يوماً في حَناجِرِنا
فسالَ في كُلِّ أفْقِ يابسٍ وَتَرُ

أنْشُرْ جناحَيْكَ.. إِنَّ الصمتَّ يَقْتُلُنا
وهاتِ لحنَكَ..
يَغْسِلْ قَبْرَكَ المَطَرُ

قصيدةُ الأرْزِ.. هَلْ تُطْوَى مَطَارفُها
وأنتَ أنتَ.. وفي جَنْبَيكَ تستعِرُ؟

ما ضَرَّكَ الموتُ؟
كانَ الموتُ لُعْبَتَنا
فَشُقَّ لَحْدَكَ وانهَضْ، أيُّها الشَّرَرُ

إنِي أجيئُكُ.. مذبوحاً على نَغمٍ
لم يَبْقَ منهُ سِوى ما ضَمَّتِ الحُفَرُ

إني أجيئُكَ من «قانا».. وتعرفُني
من لحم أطفالِنا
الآياتُ والسُّوَرُ

لبنانُ.. يَعْجُمُ في «قانا» شكيمتَهُ
لبنانُ.. في جُثَّةِ خرساءَ ينصهِرُ
اُنْشُرُ جناحَيْكَ..
قُلْ للكافرينَ بِنا

- لا الشمسُ تَنْبُعُ من فيهِمْ ولا القَمَرُ

إنَّا نُغَنِّي.. ومَوَّالٌ حضَارتُنا
في آهِهِ يتلاقَى اللهُ والبَشَرُ

إِنَّا نُغَنِّي..
وما زالَتْ قَذائِفُهمْ

على قَصائدنا الخَضراْء تَنْتَحرُ

* * *

«قيثـــارَة الأرْز».. غَنَّينـــاكَ أطفـــالا
كانـــت حَبيبَتَـــا «غُلْـــواءُ»[١] أطْفـــالا
وغبتَ يوماً..
وعاشَ اللحنُ شَلاَّلا

من الجمالِ المُصَفَّى..
عاشَ شلاَّلا

يَجْرِي على فَمِنا..
ينسابُ في دَمِنا
وحُزنُكَ الأخْـضَرُ المـشبوبُ قـصَّتُنا
وغُـــصَّةُ البلـــد المطعـــون غُـــصَّتُنا

كومَضَة الحبِّ فـي عينـين نجلاويـنْ

طَفَرْتَ فوق الذُّرى..

(١) غُلْواء: مُلِهمةُ الشاعر وحبيبته، وقد حمل أحدُ دواوينه اسمها.

كانت صبايا العينْ
على ربابِــكَ ألْحانــاً.. صــبايا العــينْ
من نَــسْجِ عَبْقَــرَ هــذا ليلُــكَ العَطِــرُ
أنْشُرْ جناحيكَ..
إنَّ الحُبَّ ينتظرُ

*   *   *

يــا ريــشَ لبنــانَ.. وَشَّــيْنَا طُفولَتَنــا
بمــا تــشاءُ.. وراحَــتْ تَــسْبَحُ الأُزُرُ
وكانــتِ الــسُّحُبُ الــسوداءُ تُمطِرُنــا
وكنتَ.. يرتــاحُ فــي أفيائِــكَ الــسَّفَرُ

عَرِيشةُ اللهِ..
مَدَّتْ في مَوَاجِعِنا
ظِلاَلَهــا فأنــاخَ البَــدْوُ والحَــضَرُ
ورُحْــتَ مــن وَجَــع التــاريخ تَحْمِلُنــا
شــعراً ونثــراً.. ولا مَــنٌّ ولا كَــدَرُ
كتبــتَ بالــدَّم.. إنِــي عــن مَحابرنــا
وأنتَ تغسلُ وجــهَ الحــرفِ.. اعتــذرُ
يا ريشَ لبنانَ.. لو قلتُ: الجَنُوبُ.. فهــا
غــدائرُ المجــدِ فــي كفَّيْــكَ تَنْــضِفِرُ

عجيبـــةٌ حُمْـــرةُ التُّفـــاحِ.. مـــن دَمِهـــا
يُطِـــلُّ فـــي ليلِنـــا المُحْلَولِـــكِ الـــسَّحَرُ

عَجيبـــــة.. يتَـــــشَهَّى عبقـــــرٌ عَبَقـــــاً
منهـــا.. وتُـــورِقُ جنّـــاً حـــين تنفجـــرُ

*   *   *

«قيثارةُ الأرْز..»
من هذي السجايا كانْ
أرَقَّ من خَفَرٍ فـــي الخَـــدِّ شِـــعْراً كـــانْ
وبـــين جَنْبَيـــهِ حُلْـــمٌ قُـــدَّ مـــن بُركـــانْ
حُلْـــمٌ.. يُهدهِـــدُهُ فـــي خَلْـــوةٍ غَـــزَلا
وتـــارةً.. يتلَظَّـــى فـــي الـــذُّرى شُـــعَلاَ
الشاعرُ البِكْرُ.. لا تَـــسألْ.. لقـــد جَعَـــلا
كُرومَـــــه بالنَّـــــدى والجمـــــرِ تُعْتَـــــصرُ

ويَظْمأ الناسُ..
ما عَبُّوا وما سَكِروا

*   *   *

«قيثارةَ الريحِ».. ماذا وَشْـــوشَ الجَبَـــلُ
إِذْ أيْقظوكَ..
وماذا قالتِ القُلَلُ؟
أحْلامُكَ البيضُ شِعْرٌ.. ســـوف ترتحـــلُ

كلُّ الغيومِ.. ويبقَـــى غيمُـــكَ الخَـــضِلُ

يَهُلُّ في السفح أمطاراً وفي الوادي
الأرْغُنُ الحادي..
ينداحُ مـــن شَـــفَةٍ عطـــشى إلـــى شَـــفَةِ
ومن عُذُوبةِ إنشادٍ لإنشادِ
وأنتَ تأتي.. وتَمْضي
زادُكَ الضَّجَرُ
والبؤسُ.. بُـــؤْسُ هـــدايا عَبْقـــرٍ قَـــدَرُ
إنَّا رضيناهُ.. واختَرناهْ

إذا شـــكا.. هُـــدْبَنا المقـــروحَ وَسَّـــدناهْ
أوجـــاعَ.. شَـــهْقَتنا الحمـــراءَ أَطْعمنـــاهْ
وما اكتَرثْنـــا.. سَـــرَاباً كـــانَ أمْ نَهَـــراً
عُمْـــرٌ عَبَرنـــاهُ.. إنَّ اللحظـــةَ العُمُـــرُ

* * *

«قيثارةَ الـــريحِ».. يـــومَ الـــريحُ فانيـــةٌ
يبقَى غنـــاؤُكَ.. نَـــضَّاحاً بـــه الحَجَـــرُ
نَزَّ الوجـــودُ جحيمـــاً عنـــدما اخترقَـــتْ
عينـــاكَ أســـوارَنا.. وانْزاحَـــتِ الـــسُّتُرُ

بَراءةُ اللحنِ.. هل أغنَتْ وهـــل شَـــفَعتْ
لمَّـــا وقَفْـــتَ.. ببَـــاب اللحـــنِ تتكـــسرُ؟

* * *

يا شعرُ.. يـــا نَكْهـــةَ الـــدنيا ونَـــشْوتَها
يا ليلُ، يا صبحُ، يا فردوسُ، يـــا سَـــقَرُ!

هل تـــستحيلُ رمـــاداً فـــي مَجامِرِنـــا؟
هل تَمَّحِي - مثلمـــا قـــالوا - وتنـــدثرُ؟
هل يَصْمُتُ النبضُ؟
لا حُزْنٌ ولا فَرَحٌ

ولا صَـــدى قُبلـــةٍ يَنْـــدَى بهـــا الـــسَّمَرُ

هـــل يُقْفِـــرُ الليـــلُ مـــن آهٍ مُجَرَّحـــةٍ؟
وهل يموتُ الهَوىَ؟
هل يَخْرَسُ الوَتَرُ؟

أنتَ الذي يَهَبُ الدنيا نَضارَتَها
من دونكَ الأرضُ.. لا ظِـــلٌ ولا شَـــجَرُ

بيروت: 1997/6/23م

* * *

وَرَقة الخريف

إلى ابني معن

ابني خائفٌ على أبيه..
- لقد تجاوزتَ الخامسة والسبعين
وأنت تشتعِل..
أرِحْ أنقاضكَ.. واهدَأْ..
أتظنُّ أنكَ في مَطْلعِ الجمرِ؟

همستُ في أُذنِ ابني:
إني ورَقةُ خريف تُؤثِر أن تظَلَّ في الجو،
تغالبُ الريحَ.. حتى آخِرِ خفقة.

تُحزنني يا بُنيَّ ورَقةٌ على الرصيف
تَعْبَثُ بها الأقدام.

1997م

* * *

بطاقة في سبعة أبيات

إلى «بول فندلي»[1]، الأمريكي الرائع،
مؤلف كتاب «من يجرؤ على الكلام؟»

من صوتِ «لِنْكولن»[2] في عينيكَ كَوْكبةٌ
من النجومِ، وفي كفَّيْكَ قِيثارُ
ماذا تُغَنِّي؟
سينهالُ الحديدُ على
لحنٍ شُجاعٍ تُناجيه، وينهارُ

ماذا تقــولُ؟
شــــــعاعٌ فــــــارسٌ.. ضُـــــرِبَتْ
علـــى ســـناهُ مـــن الفـــولاذ أَسْـــتارُ
يا أيُّها الــصوتُ.. أغْنَتْــه بَراءتُــه
عن السلاحِ، وهمـــسُ الحـــقِّ تَـــزْآرُ

(١) نائب في الكونغرس الأمريكي، وصديق للحق العربي.
(٢) إبراهام لنكولن، محرر العبيد في أمريكا.

سيخنقُون الصدى حينــاً، ويبعثُــه
يوماً، وراءَ حصارِ الحقدِ، إِعصارُ

أهلاً بريشتكَ السكرى علــى نَغَــمٍ
من أرضِنا، أرضُنْا حُبٌّ وأشــعارُ

قصيدةُ الدهرِ، فاغرِفْ من عُذوبتِها
واشْرَبْ..
نــــداماكَ أطفــــالٌ وأحجـــــارُ[١]

1989م

* * *

(١) الإشارة إلى أطفال الحجارة في أرضنا المحتلة.

البرق الساطع!

يسمونه: غسان كنفاني..

وأسميه: البرقَ الفلسطيني الساطع..

سيظل البرق يسطع.. وستظل فلسطين العربية تهمس بالبرق أو بالحجر يلقيه طفل في وجه غزاته وسارقي مفتاح بيته: أنا أرض عربية.. جزء من هذا الجسد العربي الممدَّد كالتابوت بين المحيط والخليج.. بين الماء والماء. غزوة بعد غزوة تضرب هذا الجسد.. منذ غرز الإسكندر المقدوني رمحه في هذه الأرض.. ثم زال هو ورمحه.. إلى هولاكو.. إلى تيمورلنك.. إلى الغزو الفرنجي.. إلى أن «سقَطَ الخنجر في قلب الجسد» الخنجر الصهيوني هذه المرة، أشرس الغزوات وألأَمها في تاريخنا.. على الإطلاق.

ويهتف غسان كنفاني..

يهتف البرق الفلسطيني الساطع.. بملايين الأمة: حق لا يموت.. أجل حق لا يموت.. وسيظل «رجال تحت الشمس» يقاتلون ويموتون حتى تهضِمَ الأرض العربية أشرس الغزوات وأَلأَمها كما هَضَمت غيرها عبر التاريخ.

لن نلقيهم في البحر كما يزعمون، ولن يلقونا في الصحراء كما يزعمون ويحاولون، بل ستهضمهم وتَتَمثلهم هذه الأرض كما هضمت غيرهم من رمح الإسكندر إلى الآن حقيقة يعرفونها وتؤرقهم أكثر مما نعرفها نحن.

أيها البرق الساطع! غيوم هذه الأرض العربية وبروقها ورعودها أعطت الحضارات، أعطت الفكر والفن.. أعطت أول أبجدية في التاريخ.. زرعت أول حبة قمح في أريحا.. في بلدك.. في فلسطين.. هل تستطيع قوة أو غزوة بالغةً ما بلغت من القوة والبطش أن تمحو التاريخ؟

ليجرّبوا يا غسان.. ستظل أنت القتيل تهزِم كل قاتليك.. ولو لم تملك غير قلمك المضيء، ومفتاح بيتك المغتَصَب في جيبك.

ستظل البرق الساطع الذي يستضيء به جيل بعد جيل. وسيظل أطفال فلسطين، وأطفال الأمة العربية يرددون:

وجوهٌ غريبة/ بأرضي السليبة/ تبيع ثماري/ وتحتلُّ داري/..
وأعرفُ دربي/ ويرجِع شعبي/ إلى بيت جدي/ إلى دِفْءِ مهدي/
فلسطينُ داري/ ودربُ انتصاري/

* * *

أنا وأنتَ

«واستدارَتْ تنفُخُ الطينَ، تغنّي وشعاعُ
الجسد الجميل..
وردةٌ ترقصُ في حدائق اللذة.. تستلقي..
انتظاراً لاشتعال الأُرجوان..»

عبد العزيز المقالح

نحـــنُ الـــذينَ نفخنـــا الطـــينَ أُغْنِيَـــةً
وعَتَّقَـــتْ خمرَهـــا فينـــا العناقيـــدُ
لم تـــشتعِلْ لَـــذَّةٌ خـــضراءُ فـــي جـــسدٍ
إلاَّ ومـــن دمنـــا فيهـــا أبـــاديـــدُ

أنا وأَنتَ..
ونارُ الأُرْجُوانِ على
حافـــاتِ أوتـــارِنا العَطْشَـــى
أغـــاريـــدُ

الـــشعرُ.. هـــذا النَّـــدى العُلْـــوِيُّ..

تَلْمسهُ

صـــحراؤُهم.. فهـــي أوراقٌ وأُمْلـــودُ

1997م

* * *

مَوْتُ شـاعـر

إلى نزار قباني عشيةَ رحيله

قالتِ الأَزْهارُ يوماً:
ماتَ شاعِرْ
وحَنَتْ أَوراقَها حُزْناً عَليهْ
تَنتَمي الأَزْهارُ والعِطْـرُ إلــى الـشعرِ، إِليــهْ
يَنْتَمي الــروضُ وأَســرابُ العــصافيرِ إِليــهْ
يَنْتَمي ماءُ الجداوِلْ
تكبرُ الأَعــشابُ إِذْ تُــصغي إليــهِ والــسنابلْ
قُلْتُ: بَلْ ماتَ جَسَدْ
حَطَم الصخرُ على الشطِّ الزَّبَدْ
لا تموتُ الكَلِمَةْ..
«إِنَّها في البَدْءِ كانَتْ..»
وستَبْقَى الشاعِرَةْ
إِنَّها الدَّهْرُ.. أكانَتْ ظافِرَةْ
في عُبَابِ الصَّخَبِ الهادرِ، أَمْ مُنْهَزِمَةْ

إِنَّها الضَّوْءُ.. تَحَدَّى العَتَمةْ
مُنْذُ أَنْ كانَتْ وكانْ..
إِنَّها بُرْدُ الزَّمَانْ
لا تَموتُ الكَلِمَةْ..

* * *

قالتِ الأَزْهارُ:
هذي الأرضُ للشعرِ ولي
وإذا ما شاعرٌ عنها رَحَلْ
نِصْفُ عِطْرِ الأرضِ..
نِصْفُ الماءِ..
نِصْفُ الظلِّ والضوءِ رَحَلْ
لا تَقُلْ لي:
سيعيشُ اللحنُ بعد الجدْولِ
إِنَّني أُوثِرُ أَنْ يمتَدَّ عُمْرُ الجَدْولِ
أَنْ يُغَنِّي..
ثُمَّ يُعْطِي..
ثُمَّ يُعْطِي..
ويُغَنِّي..
كُلَّما عاشَ العَطَاءْ
زيدتِ الأرضُ جمالاً وبَهاءْ

كَثُرَتْ فيها ينابيعُ الضياءْ

هذه الأرضُ التي يَفتِكُ فيها الأَغبياءْ
والتي تحملُهم عِبْئاً على كاهِلِها..
يُنْذِرُ يوماً بالفَنَاءْ

إِنَّها لي.. ولَهُمْ.. لِلشُّعَرَاءْ
إِنَّني أوثِرُ أَنْ أَحْيا..
وأَنْ يَحْيَوْا..
وأَنْ يُكْتَبَ

لِلزَّهْــرِ
وللشِّعرِ
ولِلْحُبِّ..
البَقَــاءْ

* * *

لا تَقُلْ لي..
وأَعِرْ سمعي قَصِيدَةْ
من لياليكَ جديدَةْ
يَتَجدَّدْ دَمُ عِطْري واخْضِراري

إِنْ تَمُتْ يا شاعري ماتَ اخْضِراري

ونَهاري..

إنني بِنْتُ الحياةْ..

وَرَقُ الوَرْدِ كبيتِ الشِّعْرِ

لا يُقْنِعُهُ رَجْعُ الصَّدَى

أَعْطني الصوتَ، وخُذْ رَجْعَ الصَّدى

إنَّني أُوثِرُ أن أَحْيا..

وأَنْ تَحْيَوا معي..

ولْنَقْتَسِمْ مَجْدَ العَطَاءْ

أيار: 1998م

*   *   *

صيّادُ القلوب

إلى الصديق الكبير عبد الله الجفري

«دَرَج على أن يبدأ حديثه ببيتين

من الشعر»

بَيْتانِ من غَسَق الكلامِ وفجرهِ
بيتانِ.. يَفْتتحانِ صَوْتَ يَراعي

الشعرُ صيَّادُ القلوب..
ولم أزَلْ
بوميضِه.. أُغويكمُ لِسَمَاعي

1997م

*   *   *

ذاكرة الجَسَـد

إلى أحلام مستغانمي

بعد قراءة كتابها الذي حَملَ هذا العنوان

لم تَكُوني قصةً مُذْهِلةً
سرقَتْ من عبقرِ نيرانَ شاعِرْ

كنتِ ثأراً عربياً رائعاً
لاغْتيالِ المُتَنبِّي..
في الجزائِرْ

1998م

*   *   *

الطائر الغريب

إلى صديقي الطائر الغريب كريم جثير..

على هامش رسالة منه..

هُوَ القَدَرُ الجميلُ..
ولا فِــرَارُ
نُصارِعُهُ.. وفي دمنا الحِصَارُ
هو القَدَرُ الجميلُ..
تَبوخُ نــارٌ
على آهاتِنا.. لِتُشَبَّ نارُ

هُوَ الشعرُ الذي بَدأَتْ خُطَانا
بهِ.. فالعُمْرُ أَجْمَعُهُ دُوَارُ

يُدَمِّرُنـــا..
ونحمِلُهُ لُهَاثاً
يَلَذُّ الموتُ فيهِ والدَّمَارُ
وبَغْدادٌ.. وصنعاءُ
وكُلُّ الأرضِ أَسماءُ

تُهَــدْهِدُنا

تُعَــذِّبُنا

تُبــاعِدُنا

تُقَرِّبُنــا

ويَبْقَى الشعرُ.. يَصْلِبُنا

على خَشَباتِه الحُلْوَةْ

ونحنُ نُمارِسُ النشوَةْ

هو القَدَرُ الجميلُ.. ولا فِرَارُ

تبارَكَ قاتلاً.. هذا الدُّوَارُ!

*   *   *

هُوَ القَدَرُ الذي أَمْلَى علينا

حَرارتَــهُ

وجَرَّعَنا مَرارَتَهُ

حَمَلْناهُ.. حنيناً في جَوانِحِنا

إلى القُطْبِ الشماليِّ

إلى الوَجَعِ الجَنُوبِيِّ

نَدورُ بهِ.. يَدورُ بنا

ونَعْصِرُ كأسَنا مِنْهُ

ونَدْفنُ رَأْسَنا في راحتَيْهِ

ونارٌ تَنْطَفي..
لِتُشَبَّ نـــارُ

وآهِ.. لوِ استطَعْنا ذاتَ ليلِ
نُدمِّرُه..
أَيُنْقِذُنا الدَّمارُ؟

1998م

*   *   *

إلى رجا غارودي

أســــفارُكَ فـــــي أَعمـــــاقِ الــــروحِ
وفـــــي لُجَـــجِ الفِكْـــــرِ الــــشاعِرْ

لـــــن تَـــــدْفَعَ عنـــــكَ «نُيـــــوبَهُمُ»
لـــــو عَرَّيْـــــتَ «الــــذِّئْبَ» الفـــــاجِرْ

للفِكْـــــرِ بطولَتُـــــــهُ.. فـــــاقْنَعْ
بوقوفِـــــكَ فـــــي الــــضوءِ الــــسافِرْ

1998م

*   *   *

إلى فاتح المدرس

ومض من أيامنا الأولى في حلب

ضَــفرْنا معــاً مــن جُنــونِ الــشبابِ
أكاليلَنــــا.. ورســـــمنا الـــــصُّوَرْ

وفي القبــو.. كنــتَ تــصوغُ الفــضاءَ
خُطوطـــاً وتـــزرَعُ فيـــه القَمَـــرْ

وأســـمعُ زَغْـــردةَ اللـــونِ منـــكَ
وتـــسمعُ منـــي هـــديرَ الـــوَتَرْ

وتَرْحَلُ..

خَلْفَكَ دنيا جَمالٍ..
وأَبْقَـــى.. أُعيـــد بقايـــا الـــسَّمَرْ

ســـلامٌ علـــى حُلْمِنـــا المُـــسْتَباحِ
ســـلامٌ علـــى الـــذكرياتِ الأُخَـــرْ

١٩٩٩م

من دفتر الذكريات

صديقي الدكتور حسام الخطيب

-١-

مشرَّدان.. انتُزعا من جذورهما.. من طفولتهما،
مشرَّد من الشمال.. وآخَر من الجنوب.
ومَذاقُ الطَّعنتين واحد..
وحصادُهما المر ما يزالُ واحداً.

جرحان في الجسد العربي ما يزالان ينزفان.
الأول كاد يطويه النسيان..
والآخر.. لا يستطيع النسيانُ أن يطويه
لأنه في القلب..
لواءُ إسكندرون.. وفلسطين.
ومن الطعنتين جئنا..
ومن نَزْف المأساتين نبتنا.. وفيه عشنا.

الخَنْجَران.. ويافا مثل حارتنا..

خلفَ السلاسلِ، لا أَهلٌ ولا سَكَنُ[(١)]

- ٢-

التقيهِ أولَ مرة في دمشق.. في يوم عرسه.. مهنئاً بالزواج.

كنا في مطلع الشباب..

يحملني إليه واحد من رفاق الغربة أيضاً، ورفاق العمر. صدقي إسماعيل.

- حسام صديق عزيز، وأخ من إخوتنا الفلسطينيين. ما قولك في أن نزوره، ونهنئه بالزواج؟

- فكرة جميلة.. هيَّا بنا!

ومع الغروب.. نمضي إلى الدار التي ضمت العروسين الشابين، والتقي فيها أول مرة العزيزين: أبا الأمين وأم الأمين.

ثم يغيبُ عني في لَهَوات العمل، في دمشق.. وفي الخارج.. فلا نتلاقى إلا في مقالة يكتبها، أو قصيدة أُنشدها.

وما أكثر ما كان حسام الخطيب يكتب!

وما أكثر ما كنتُ أُنشِد!

وتمر الأيام.. ويستمرُ عمله أستاذاً في جامعة دمشق ــ وتتصل بيننا القرابتان: قرابةَ التشرد والاقتلاع من جذورنا الأولى ومرابع طفولتنا، وقرابة الكلمة التي وقفنا عليها عمرنا.

ويضمنا اتحادنا العزيز، اتحاد الكتاب العرب.

فإذا نحن في مكتبه التنفيذي معاً.. ردحاً من الزمن، يؤثر أبو الأمين وأوثر معه أن يكون المقعدان متجاورين في كل جلسة، نتبادل الرأي والحديث من حينٍ إلى حين في آخر ما كتب، وآخر ما كتبتُ.

---

(١) قصيدة: أمشي وتتأين. الأعمال الشعرية، ج4، ص32.

ولا أنسى أن أبعث معه إلى طفليه العزيزين، اللذين أصبحا صديقين لشاعر الأطفال، بأنشودة صغيرة، أخطها على عجل، ويحملها إليهما ليحفظاها، ويردداها على مسمعي كلما زرتهما في بيتهما الأليف.

-٣-

حسام الخطيب أكثر من عرفت من الكتاب التصاقاً بالكلمة، وإخلاصاً للعمل الدائب، لا أزعم أني قرأت كل نتاجه - وهو غزير ومتنوع في شتى مجالات الأدب -. ولكني أعرف جيداً أنه لم ينقطع في يوم من الأيام عن معاناة هذه المهنة الشاقة.. مهنة الكتابة، وملاحقة كل نتاج جديد عندنا، وعند غيرنا من أرض الثقافة الواسعة.

ولست في هذه الخواطر العجلى لأتابع حصاد هذا المثقف الكبير، والصديق العزيز، ولكني سأكتفي بأن أفتح دفتر الذكريات، وأسجل من الذاكرة بعض الومضات التي ما أزال أعدها من أغلى ما مر بي على طريق العمر، ولا سيما ذكريات الفترة الحلوة الخصبة الثمينة التي أمضيناها معاً في مهد العروبة، ومنبت الجدود.. في اليمن.

وسأترك لغيري مهمة الرصد والدراسة.. فأبو الأمين يعرف أني لم أكن قط راصداً ولا دارساً في حياتي.

حسبهُ أن يُبتلَى هو بهذه المهمة التي تُرهق وتُضني، بمقدار ما تمتع وتضيء.

-٤-

يقترب الصديق العزيز، والشاعر الكبير عبد العزيز المقالح، رئيس جامعة صنعاء ذات يوم مني، وأنا إلى جواره في السيارة، في نزهة صغيرة خارج صنعاء، ويهمس في أذني قائلاً - وقلَّما تكلم عبد العزيز المقالح إلا هامساً -:

الدكتور حسام الخطيب سيكون في القريب العاجل عميداً لكلية التربية في تعز. نحن بحاجة إلى هذا الرجل.. ما رأيك؟

قلت، وأنا لا أكتم ارتياحي للنبأ وسروري به:

وهل يحتاج اختيار كهذا إلى رأيي؟ سيكون ذلك كسباً كبيراً للكلية، وفرصةً جميلة لي، أُغْنِي بها حياتي في تعز، وأضيف إلى الأصدقاء والأحبّاء صديقاً جديداً سيرحب به الجميع، ويفيد منه الجميع. إننا بانتظاره منذ الآن.

كنت أنا وزوجتي الدكتورة ملكة أبيض قد حللنا مدينة تعز الخضراء منذ عام، وبعض العام، هي أستاذة في كلية التربية، وأنا متقاعد أُزجي وقتي بالكتابة والمطالعة، ولقاء قبضة من الإخوة والأصدقاء في هذه المدينة العريقة الأليفة، لا أعدل بهم أحداً.

ويجيئنا الدكتور حسام، العميد الجديد بعد أيام..

وتستقبله شقتنا الصغيرة فور وصوله..

ونبدأ الحديث قبل شيء عما يمكن أن نقدمه من نشاط ثقافي - إلى جانب العمل الرسمي - لتعز الجميلة التي كانت ذات يوم عاصمة اليمن السياسية والثقافية، والتي ما تزال عطشى إلى بعث إمكاناتها، ونشر أريجها في الآفاق.

تعز.. التي ألهمتني أكثر من قصيدة، وأملت على ريشتي أكثر من أغنية ضمها جميعاً ديوان اليمن.

* * *

ومن الشقة الصغيرة.. ننتقل إلى «الشرفة».. أشهر مكان في المدينة.

ما أكثر ما كنا نزور هذا المَطَلَّ الساحر!

«شرفة فندق الإخوة» القديم في مدينة تعز.

قصيدتي التي تحتل مكاناً بارزاً في ديواني الذي ذكرته قبل قليل، «ديوان اليمن» بعنوان: «على الشرفة».. كانت من وحي هذا المَطَلّ. أذكر أني قلت في مقدمتها:

«إلى شرفة فندق الإخوة في مدينة تعز.. أدعو قصائد الإخوة الشعراء ساعةً من غروب.. أو من مساء..

إلى الشرفة التي تسع القصيدة والأفق.. أُهدي هذه الأغنية».

وتنطلق الأغنية:

غيـــوبٌ.. ترتمـــي فيهـــا غيـــوبُ
وأســـرار علــى شـــفةٍ تـــذوبُ
أمـــدُّ علــى الــتلالِ لُهــاثَ عمــري
نضيعُ على الذرى.. أنـا والغـروبُ

على الشُّرَفةْ..
وحـــولي كبريــاءُ مدينـــةِ الأحـــلامِ،
تَــسبحُ فـــي المـــدى العُريـــانِ،
تبـــــدو بِدْعـــــةً.. طُرْفَـــــةْ
مدينةُ كادحينَ، مَعَ الترابِ، مع الغبارِ،
نهارُهمْ نَصَبُ
وهدْأَةُ ليلهم نَصَبُ
ومـــثلهُمُ أنـــامُ.. يلفُّنـــي التعـــبُ[١]

لقد كنا ننفض غبار التعب، وعناء النهار بساعة نمضيها على حافة هذا المَطَلِّ الساحر، كما قلت، كلما بدا لنا أن نتخفف قليلاً من أعبائنا، ونسرح مع الوادي والجبل، والليل والنجوم. إنك تحسُّ فعلاً أنك معلَّق بين الأرض والنجوم، وأنت تتأمل ما حولك على «الشرفة».

---

(١) على طريق العمر، «معالم مسيرة ذاتية»، ص361.

أم الأمين، رسامة المنمنمات البارعة، تصر على أن تجلس في مواجهة الجبل العظيم. جبل «صَبِر» الذي يشرف على المدينة، وتتأمل القمر الذي يسبح رويداً رويداً فوق الهضاب، تشاطرها المشهد زميلتها الدكتورة أم معن، زوجتي، تاركتين لي ولأخي حسام منظر الأودية والتلال المجاورة في الجهة الأخرى.

ونقنع بالقسمة.. فالمشهد يملؤك فتنةً وروعةً حيثما أدرتَ وجهك في ذلك المكان الشاعري البديع.

-٥-

ما يكاد أبو الأمين يفرغ من تنظيم أمور الكلية في أيام معدودة، حتى يدعونا جميعاً إلى محاضرة عامة يلقيها في «قاعة الزبيري»، قاعة الكلية الرحبة، ذات أمسية.. أذكر أنها كانت تحت عنوان: الشعر والتكنولوجيا.

وأشهد أني ما استمعتُ منذ أمد بعيد إلى محاضرة أغنى وأطرف من ذلك الحديث الذي سمعته في تلك الأمسية.

وتغص القاعة بالأساتذة والطلاب، ومثقفي تعز، وينطلق حسام المثقف الذكي، الواسع الإطلاع، في حديثه عن أثر التكنولوجيا المعاصرة في الأدب والشعر - الشعر على الأخص -.

وإني لشديد الأسف على أن الذاكرة لا تسعفني الآن بخلاصة عن تلك المحاضرة الجديدة الشائقة، آملاً أن يطَّلع عليها القارئ في واحد من كتبه العديدة التي ينشرها على الملأ بين حين وآخر. ولكني لا أنسى الطُّرفة التي علِقت بالذاكرة حين عرض إلى التغيير الهائل الذي أحدثته التكنولوجيا في الأدب والشعر، وأتى، كمثال على ذلك، ببيت لشوقي من قصيدته المعروفة في ذكرى المولد النبوي، حين خاطب النبيَّ العظيم بقوله:

مدحتُ المـــالكين.. فـــزدتُ قَـــدْراً

فحـــين مـــدحتُكَ اقْتَـــدتُ الـــسحابا

لقد خُيل لشاعرنا الكبير أحمد شوقي أنه قد بلغ الذروة حين «اقتادَ السحاب» في مدحته. ويعلّق أبو الأمين يومئذٍ على البيت قائلاً:

إن السحاب لم يعد ذروةً عالية. فكل من أتيحت له تذكرةُ سفر بالطائرة يستطيع أن يترك السحابَ وراءه، ويحلّق بعيداً في الجو، وهو في رحلة من الرحلات العادية. هذا بالنسبة إلى مسافر عادي، فكيف الأمرُ مع رُوَّاد الفضاء؟

وتظل الصورةُ الشعرية جميلةً مع ذلك..

وإن كان الواقع - واقع العصر - قد تجاوزها، وجعلها شيئاً مألوفاً.

وننتقل من المحاضرة إلى شقتنا الصغيرة، لنكمل السمرَ والحديث.

ويشتبك أبو الأمين في حوار طويل حار مع الدكتورة ملكة أبيض.. يمتدُّ إلى الفن والفكر والفلسفة والاجتماع. وما أكثر ما كانا يتحاوران!

واعترف أن الدكتورة ملكة والدكتور حسام يتميزان بثقافة غنية واسعة، تجعلنا نصغي إليهما عندما يحتدم بينهما النقاش، نصغي باهتمام فنستمتع ونُفيد، فإذا ما تعبنا من الحوار - أنا وأم الأمين - ما نلبث أن نقطع عليهما الحديث، لننتقل إلى شيء من السَّمَر والدِّعابة أروح للنفس، وأطرى للجو.

- ٦-

وتتوالى الأمسيات الثقافية التي كنا نشارك فيها معاً..

مرةً في «قاعة الزبيري»، وأخرى في قاعة نادي الضباط في المدينة، وثالثة في المركز الثقافي، ونحس أننا قد أخذنا نُشيع جواً يتنفس فيه الشعر والنقد والفكر في هذا البلد الهادئ الوادع، المتعطش لكل جديد.

ولكن الندوة الدائمة التي ألفناها وألفتنا، وكانت ملتقانا في كل أسبوع هي مقيل الأخ والصديق الشاعر الشيخ محمد منصور أحد أعلام البلد ورجاله البارزين.

فما إن يحين وقت الأصيل بعد ظهر الخميس، حتى يطل علينا صديقنا الحميم، القاضي الشاعر الكاتب النجيب محمد عقيل الإرياني، رئيس اتحاد الكتاب والأدباء اليمنيين في تعز، ليصحبنا إلى «المقيل» الذي تعوِّد أن يضم

نخبة من المثقفين والأصدقاء، من مختلف المشارب، مقيل الرجل الكبير الشيخ محمد منصور.

وفي القاعة الأنيقة الواسعة التي تؤلف جناحاً مستقلاً من بيت الشيخ، والتي تطل على جبل «صَبِر» العظيم، بهضابه الشامخة، ومنعطفاته الرائعة، وألوانه الساحرة، كنا نلتقي مرةً، بل أكثر من مرة أحياناً، كل أسبوع.

ونتخذ أنا وصديقي الدكتور حسام مكاناً في القاعة، وتُمد لنا «المداعة» السامقة، (النرجيلة) اليمنية، وتدور الأحاديث، ويتشعب الحوار، ويدلي كل بدلوه في هذه «الندوة» المفتوحة، وللسياسة فيها نصيب، وللأدب نصيب، وللدُّعابة والتسلية نصيب أيضاً.

ولكن الجميع كانوا أبداً ينتظرون أن يأخذ أبو الأمين الكلمة، يقول رأيه في عمق ووضوح، ويعطي حكمه الفصل في معظم المواقف، إذا ما شجر الخلاف، وتباينت الآراء.

وتتخلل الجلسة من آنٍ إلى آخر إطلالة على الشعر.

لابد من الشعر في «المقيل»..

ويمدُّ الشيخ محمد يده إلى جيبه..ويخرج قصيدة كتبها حديثاً.. ثم يأخذ في إنشادها:

وغالباً ما تكون القصيدة من شعر الحماسة الوطنية.

تتغنى باليمن، وأمجاده العريقة، ومستقبله المنشود.

ثم يلتفت الحاضرون إلي..

لابد أن أسمعهم مقطعاً أو مقطعين من القصائد التي أملاها اليمن - المهد عليَّ. وللشعر - الفصيح والشعبي - على حد سواء.. مكانة في اليمن.. لا تدانيها مكانة.

إِرْث طويل.. يمتدُّ من ذلك الشاعر اليمني الذي نحت على الصخر قصيدته الرائعة «ترنيمة الشمس» قبل حوالي ألفي عام.. إلى وضاح اليمن.. إلى أحدث شاعر معاصر.

شريط طويل من الذكريات..

ينثال على قلمي.. يا أبا الأمين.

فماذا أذكر منه.. وماذا أدع؟

وربما كان لصديقي وصديقك العزيز الدكتور محمد شاهين اليد الأولى في إيقاظ هذه الذكريات. فهو الذي دعاني إلى أن ألتقيك ولو في خاطرة، وهو يعلم أن الدعوة ستوقظ أكثر من خاطرة.

بالمناسبة.. كم كنت أود لو كانت تحت يدي الآن قصيدة الدُّعابة الطويلة التي كتبتُها، وأرسلتها أنت إليه في عمَّان، حين خطر له أن يبعث إلينا مع البريد بكيس رائع من «نُقل» الأردن، ملأه بأشهى اللوز والبندق والجوز، يحمل رائحة فلسطين.

وتوزَّعنا «النُّقل» الشهيَّ بيننا وبين الجيران، وعلَّقتُ عليه أنا بدُعابة شعرية طويلة، اذكر مطلعها فقط:

تُغــــوي الجيــــرانَ وتُغــــويني   يــــا نُقْــــلَ محمــــدِ شــــاهينِ

واعتقد جازماً أن القصيدة - الدُّعابة ما تزالُ بين أوراقك.

*   *   *

أعوام أربعة.. قضيناها معاً في تعز..

كانت حافلةً بالنشاط الحي،

في كل لون من ألوان النشاط.

مدينة تعز.. الوادعةُ الطيبة الخضراء

كانت محطةً من محطَّات عمرنا لا تُنسى.

أنجزنا فيها الكثير

وكتبنا فيها الكثير.

الشقتان المتجاورتان في السكن الجامعي

ما تزالان تَعْبقان بذكريات أُمسياتنا الشائقة،

مرةً في بيتي..

ومرةً في بيتك..

الأحداثُ الكبيرة التي عايشناها في تلك الفترة..

وأهمها وأبرزها قيامُ الوحدة اليمنية، في صباح الثاني والعشرين من أيار (مايو) عام 1990 لقد شهدنا معاً مولدَها.. واحتفينا بها كما احتفى إخوتنا اليمنيون. وشاطرناهم فرحتهم.. وعيدهم الكبير، وكانت الوحدة اليمنية فرحةً للعرب جميعاً.. وأملاً لهم جميعاً.

إمَــــلأْ بهـــا التــــاريخَ والزَّمنـــــا

وُئدت هناكَ لكـــي تعــيشَ هنـــا(١)

أجل.. كان هذا مطلع قصيدتي الأولى في هذه الوحدة، تلتها أكثر من قصيدة..

وعلَّقت أنت في مجلسٍ من مجالس «المقيل» الحافلة:

لم يُغَنِّ شاعر الوحدة اليمنية كما غنّاها سليمان العيسى. ويهزُّ الحاضرون رؤوسهم بالإيجاب، كما أخبرتني أنت ذات يوم. وكنا جميعاً راضين سعداء.. بالوحدة وبالغناء. إنها حُلُم العمر.. فإلى أي غالٍ نَهَب نبضَنا وشعرنا إذا لم نَهَبْهما لها؟

*   *   *

ماذا أذكر من الشريط؟ وماذا أَدَع؟

رحلاتنا معاً إلى عدن..

---

(١) الأعمال الشعرية: ج4، ص454.

لؤلؤة الشاطئ الساحرة..

كلما أتيحت لنا فرصة لقضاء يوم..

نتخفف فيه من الكدح والعناء،

ونُلقي بأنفسنا في أحضان الماء..

ثم نقفل عائدين مع الغروب.. نحمل في جيوبنا باقات من لازَوَرْد البحر، وأشعة الشمس الدافئة.

نزُهاتنا السريعة الخاطفة..

مرةً إلى قمةٍ من قمم جبل «صَبِر» العظيم، نقضي ساعةً أو بعض ساعة، نتملَّى جمال تعزّ التي تتلألأ أمامنا حتى الأفق كمجرَّة صغيرة من النجوم الزاهرة.

ومرةً.. إلى وادي «البَركاني» الأخضر.. تترقرق فيه الجداول الصغيرة، ومرةً.. إلى شجرة «الغريب» التي يزيد عمرها على ألفي عام، كما قَدَّر علماء الطبيعة، والتي ألهمتني قصيدةً من أجمل ما قلتُ من شعر. كان هذا رأيُكَ في القصيدة لا رأيي:

ما أَنــتِ؟ حارســةٌ للــدهرِ أم خَبَــرُ؟
يَعْرَى ويُورِقُ، لا يُدْرَى لــه عُمُــرُ[١]

نزُهاتنا السريعة الخاطفة.. تخطط لها أُم الأمين بمهارة وذوق، وسرعان ما توافق زميلتها أم معن على المخطَّط، بل تشارك فيه، وإذا نحن محشورون صغاراً وكباراً في سيارة صغيرة يقودها أبو الأمين ببراعة في مُنْعَطفات الجبال، ومُنْحَنيات الأودية. وهل كان اليمن - المهد إلا جبالاً وأوديةً تدهش النظر، وتأخذ بالألباب، حيثما سرتَ وأنَّى حللتَ؟

---

(١) قصيدة «تحت أسوار شجرة الغريب»، الأعمال الشعرية: ج4، ص430.

ائذَنْ لي أحث الذاكرة قليلاً، وأرحل معك بعيداً في مجاهل اليمن، وتاريخه المجيد، هذه المرة.

لقد قررنا ذات يوم، الأسرة كلها قررت، وقد كنا أُسرةً واحدة بالفعل، أن نخص مأرب وسدَّها العظيم بزيارة.. أَن نسلِّم على جدتنا الجميلة الملكة بلقيس، ملكة سبأ التي ما يزالُ عرشها الشامخ في قلب الرمال يملأُ السمع والقلب، ويهزُ أعماق الوجدان، كلما أُتيح لزائر أن يقف أمامه.

ويطيرُ بنا صديقنا العزيز الدكتور عبد الله المجاهد، عميد كلية الزراعة في صنعاء، في سيارته، وسيارتك معها. سيكون الأخ والصديق العزيز رفيقنا ودليلنا في هذه الرحلة، وسنكون سعداء بالرحلة وبالدليل الرفيق.

وننطلق في صباح يوم مشرق جميل، فنعرج على "بَرَاقش"، المدينة التاريخية العريقة التي ما تزال ماثلةً بأطلالها وآثارها التي تملأ العين، ثم نمرُّ بمعين، العاصمة التاريخية لدولة من أبهى دول اليمن القديم، وأبعدها جذوراً في التاريخ، ثم نحث الركابَ إلى مأرب، وسدِّها المدهش الذي أعاده الإخوةُ اليمنيون إلى الحياة منذ أمدٍ قريب.

وفي لهفة.. نحث الخُطى.. لنقف أمام أعمدة عرش بلقيس التي كنت قد زرتها قبل أعوام، وكتبت فيها قصيدتين. وعرش بلقيس وحده، بألوان مرمره التي تبهر العيون كفيلٌ بأن يُلهم ديواناً من الشعر.. لا قصيدة.

اسمح لي أقف عنده قليلاً وأخطف بعض ما قلتُ فيه:

غـــازِلْ بعينيـــكَ الـــسماءَ وغُصْ بعيـــداً فـــي الرمـــالِ
يا عرشَها المتألقَ.. المغـــرو رَ فـــي كبـــدِ المُحـــالِ

* * *

بلقيسُ.. يا عينـــان ســـوداو انِ.. تخترقـــانِ حُلْمـــي
أحلـــى وأنبـــلُ مـــن كـــروم الشمس، أَعْصِرها بـــوهمي

* * *

يا أجملَ الملَكاتِ.. تخضَرُّ الـــــ ـــــــصحارى فـــي يـــديها
ويذوبُ قلـــبُ الليـــلِ شـــعراً وهـــو يلـــثُم راحتيهـــا[1]

* * *

وأخيراً.. ماذا أذكر؟ وماذا أَدَع؟

انتقالك من كلية التربية، لِتُنشِئَ كليةً جديدةً للآداب في تعز.. أصبحت تعجُّ الآن بالآلاف من الطلاب والطالبات.. الزاحفين إلى المعرفة والنور.. بعد عصور من الحرمان والظلام.

مِنْبرُكَ المفتوح.. الذي كنت تُصرُّ على إقامته في الكلية الوليدة كل أسبوع، تنطلقُ منه الكلمة الحرة، وتتفتح فيه المواهب، وتصدح الحناجر.

* * *

وتغادرنا فجأةً.. إلى الدوحة الشقيقة.. إلى جامعة قَطَر.

وانتقل أنا وزوجتي الدكتورة ملكة إلى صنعاء..

ولكن شريط الحنين والذكريات.. في تعز الوديعة الطيبة الخضراء.. ما يزال يملأ الخاطر، ويتردد في البال..

وما تزال تعزّ تدعونا من حين إلى حين..

فاتحةً ذراعَيْها الكريمتين.. لنعود إليها. ولو في زيارة..

نستعيدُ بعضَ أيامنا الحلوة الخالية..

صنعاء: 23 شباط (فبراير) 1997

---

(١) الأعمال الشعرية: ج4، ص305.

موت رفيق الطفولة

عبر الهاتف تلقيتُ نبأً وفاته.. في القرية،
ملعب طفولتنا، في لواء إسكندرون..

ماتَ مُحمدْ..
رحَلَ محمدْ..

ابْنُ العَمِّ.. رفيقُ صِبايَ
وأوَّلُ راويةٍ لي تحتَ التوتةِ،
عند ضِفافِ النهرِ.. محمدْ

* * *

ماتَ رفيقي الأَوَّلُ..
عَبْرَ الهاتفِ.. وشوشني النبأُ

يا هذا العمرُ، الهاربُ بينَ الغربةِ والأحزانِ،
أَليْسَ لنا في ظِلِّكَ مَأْوى.. مُتَّكَأُ؟

الرحلةُ.. ظَمأٌ يَلْهَثُ،

إنْ يحلُمْ بالقطرةِ رَوَّاهُ ظَمَأُ

* * *

اِثنانِ أَحَبَّهُما فجري

شَهِدا فجري..

في القريةِ..

تحتَ ظلالِ التينةِ والصَّفْصافةِ

كانا أوَّلَ من سَمِعا شعري

سلْمى.. وابْنُ العّمِّ محمَّدْ

* * *

كم كنتُ أُحِبُّهما..

كم كانا يقتنصانِ نجومَ الليلِ

ويَسْتَبِقان إليَّ..

لِيْحْتفيا برفيقِهما

لأُغنّيَ آخِرَ ما سجَّلْتُ

بدفترِ أَشعاري.. لهما

ويغنّي العزالُ النشوانُ،

تُغنّي الداليةُ الخضراءُ.. تُردِّد ما أَرْوي لهما.

* * *

عَبْرَ الهاتفِ.. أَخْبَرني الأَهْلُ
الغُرباءُ وراء الأَسْوارِ السوداءِ:
رفيقُ طفولتِكَ الأَوَّلْ
وقصيدةُ دفترِكَ الأَوَّلْ

حُلُمٌ بالأمسِ على شُرُفاتِ الليلِ،
تناثَرَ حُزْناً.. وتبدَّدْ
رحَلَ محمدْ..

*   *   *

كَمْ كان يُحبُّ النهرَ،
يُحبُّ الجَبلَ الوَعْرَ..
يداً بيدٍ نتسلَّقُهُ

وعلى أَعلى صخرٍ نتوقَّفُ،
نشرُدُ في المجهولِ،
يُؤَرِّقُني حُلْمٌ.. ويُؤَرِّقُهُ

ونعودُ بِطاقةِ أَزهارِ من بينِ الصَّخْرِ
لِسَلْمى..

مثلَ الشعرِ.. تُحِبُّ الزَّهْرَ النادرَ سَلْمَى
تَعْشَقُهُ..

كُرْمَى للشعرِ، لِعينَيْها،
يتحدَّى الصخرَ.. ويقطِفُ لي ولها،
أَسرارَ الوَعْرِ،
وعِطْرَ الزَّهْرِ البِكرْ
كم كانَ جريئاً وشجاعاً..
هذا القَرويُّ الطالعُ في أَشواقِ الأرضِ،
النابتُ من أَضلاعِ الصخرْ..

* * *

كانَ يُغَنِّي..
كلُّ الحَوْرِ، الدُّلْبِ، العُشْبِ،
يُردِّدُ مسحوراً مَعَهُ
في جَنَباتِ الليلِ تَرِنُّ «عتَابا»
يدنو النجمُ لِيَسْمَعَهُ
يجعلُ من شعري مَوَّالاً..
يُرسِلُه في الأُفْق هوىً.. ما أَرْوَعَهُ!

أَبْدَعُ مَنْ غَنَّى «يا ليلُ».. وهزَّ القريةَ
كانَ محمدْ..

غابَ إِذَنْ صَدَّاحُ الضيَّعةِ،
غابَ الصوتُ.. هَزَارُ الكَرْمِ، النبعِ، الوادي،
رَحَلَ محمدْ..

* * *

ابْنَ العَمِّ.. رفيقَ صِباي،
يسافِرُ عُمْرٌ.. يَتبَدَّدْ
ويظلُّ وراءَ الغَيْمِ صَدَى
يطوينا.. يَنْشُرُنا أَبدا
يَتْرُكُنا للآتينْ..
ذِكْرَى فَرَحٍ.. قَطَراتِ نَدَى

اِرحَلْ في صمتٍ.. لا تَحزَنْ،
سافِرْ.. ستظلُّ بديواني
إِطلالةَ قافيةٍ نَشْوى
لن يَقْهَرنا الزمنُ الأَنكَدْ

دمشق: 1999/9/9م

* * *

إلى رملة.. من جَدِّها

سبعين.. أَبحثُ عن رحيقِ الحرفِ..
أَسْقيهِ الرِّمالا

سبعينَ.. أَصرُخُ في القِفارْ
لا الصوتُ بَحَّ.. ولا القِفارْ
رَدَّتْ صدَى
رشَحتْ بقَطْرٍ من نَدى

* * *

سبعين.. ينشُرُ جَدُّكِ البرقَ اليتيمَ
على الطلولِ..
يُذيعُ للريحِ السُّؤالا
لِلصَّخْرِ.. لِلْفَلَواتِ..
للماءِ الذي قد ماتَ في ضَرْعِ السماءِ
وغارَ في البيدِ الصَّدَى
ووقفتُ فوقَ خرائبِ السبعينَ..

أَجمَعُ آخِرَ النَّبَضاتِ..
أنظرُ في المَدَى

ورفَضْتُ موتي.. كانَ جَدُّكِ يا صغيرةُ
يَبْدأُ السَّفَرَ الجميلَ.. من الرَّدَى

*   *   *

سبعين.. أَشْرُدُ في الغيومِ،
واَستحِثُّ على خرائِبنا المَطَرْ

وأقولُ شعراً..
في الصغارِ.. وفي الكِبارِ
أُنيخُ رَحْلي فوقَ قارعةِ الخَطَرْ

لا الغَيْمُ بَضَّ بقطرةٍ..
لا الشعرُ أَجْدَى
لا الصوت أَجْدَى
وعلى امتدادِ الأُفْقِ والمجهول..
غيرَ حُطَامِ حُلْمي لم أَجِدْ..
غيرَ المرارةِ والضَّجَرْ

غَيْرَ اْزوِرارِ مَقَابري عني..
وتَرْكي في مَتَاهات «السُّدَى»

أحنو على حُبِّي القديم..
وأَبْدأُ السَّفَرَ الجميلَ.. من الرَّدى

* * *

سبعينَ..
ما زالَتْ يدايَ.. وقد تَيَبَّسَتا..
تَمُدَّانِ الظِّلالا
علَّ الرِّمالا
علَّ الطفولةَ تُنبِتُ العشبَ الذي
يَهَبُ النُّشورَ المستحيلَ،
يُفَجِّرُ الغيبَ المُحالا

إنَّا نُحاولُ يا صغيرةُ أَنْ نكونَ..
وزادُنا الأرضُ العتيقةُ..
والسماءُ البِكْرُ..
والشِعرُ الذي يَهَبُ البَشَرْ
مَعْنَى البَشَرْ..

إِنَّا نُحاوِلُ..
فاقْرئينا..
في جُذورِكِ.. كلُّ أحلامِ الشَّجَرْ

والشعرُ ديوانُ السماءِ..
ونحنُ أَوَّلُ ما يُغَنِّيهِ..
وآخِرُ ما يُدَنْدِنُه وَتَرْ

صنعاء: 1999/7/10م

* * *

أبو طريف عمر يحيى

أخي وشاعري العزيز الأستاذ منذر..

والأخوة المشرفين على الاحتفال!

من الأخ والصديق الشاعر الدكتور راتب سكر علمتُ في صنعاء أن مدينة النواعير، مدينة أبي الفداء، مدينةَ الأصالة والتاريخ، ستحتفي قريباً بذكرى أستاذنا، ومربيّنا الكبير عمر يحيى.

أسمع النبأ..

وتطير بيَ الذكرى إلى الطفولة.. إلى أَنطاكية.. حيث لقيتُ أستاذي وصديقي الرائع أبا طريف، أولَ مرة.. وأنا طفلٌ في نهايات المدرسة الابتدائية.

كان أبو طريف أولَ مدرِّس للأدب العربي في أول ثانوية أُنشئت في أنطاكية.. أواسطَ الثلاثينيات من هذا القرن.

وكنتُ أنا تلميذاً صغيراً جاء من القرية إلى المدينة يحملُ أولَ ديوانٍ كَتَبه تحت شجرة التوت التي تظلِّل باحة داره، في بساتين العاصي. العاصي الذي تربطُ ضفتاه بين طفولتي وبين أصداء أصواتكم الآن.

ويسمعُ الأستاذُ والمربي الكبير بالطفل الشاعر القادم من الريفِ المهمَلِ النائي، فيدعوني إلى بيته، ويفتح لي مكتبته العامرة بكتب التراث، ويضع بين يديَّ الأجزاءَ للأصفهاني، ثم يحضُّني على أن أقرأ وأكتبَ بلا توقُّف. وأتابعَ الطيرانَ بجناحيَّ الصغيرين. ولا ينسى أن يقدم لي نسخة من ديوانه (البراعم) الذي كان قد صدر حديثاً، تزيِّنُ غلافَه صورة رائعة للنواعير.. ما تزالُ في أعماق الذاكرة.. ويَعُدُّني منذ تلك اللحظة تلميذَه، وصديقَه الدائم.

ثم تمضي الأيام..

ويُقْتَطَع اللواءُ، مسقطُ رأسنا الأخضَرُ، من جسدِ الأم سورية، ونُشرَّد نحن الصغار تحت كل كوكب، نحملُ هويتنا العربية، ونواجهُ، قَدَرنا، أياً كان الثمن..

وتكونُ مدينةُ النواعير، مدينةُ أبي الفداءِ، مدينةُ الأصالة والتاريخ، أوَّلَ مكان على أرضِ العرب يفتحُ لنا ذراعَيْهِ، ويضمُّنا بين جناحَيْه.. نحنُ الطَّلبةَ.. اللوائيين.

ومرةً أخرى.. وفي وارفةِ أبي الفداء.. التقي أستاذي وصديقي الكبير عمر يحيى، مع نُخبة من رجالِ الأدبِ والشعر والنضال في حماه.. بدر الدين الحامد، قدري العمر، عثمان الحوراني إلى آخر الرعيلِ المضيء.

ثم تُجدَّدُ الصلةُ الحميمةُ بين الأستاذ وتلميذه في مدينة الشهباء، في حلب، بعد أعوام عديدة، حيثُ عُيِّنتُ أنا - بعد التخرُّج - مدرساً للغة والأدب في ثانوياتها. وكان أبو طريف من أبرز أساتذةِ اللغة والأدب في مدينة المتنبي وسيف الدولة، في تلك الفترة بالذات.

يا للأَيامِ الجميلة.. ويا للذكريات العِذاب.. في حلب!

كان أبو طريفٍ مرجعنا الأولَ في كل شوارد اللغة والأدب، وكان قدوتَنا الأولى في الرقةِ والتواضع، والخلق النبيل، وما شئتَ من شمائل وسجايا عربية.

وأكاد أجزم أني ما عرفتُ مربياً تركَ في نفوس طلابه وطالباته أثراً يمتزجُ فيه الحبُّ بالتقدير أعمقَ مما تركَ هذا الإنسانُ الكبير.

أيها العزيزات.. والأعزّاء!

في هذه التحية العجلى.. لا أدري ماذا أذكر؟ وماذا أَدَع؟

ولكني لن أنسى حادثةً حميمةً حميمة، لم أذكرها مرةً حتى الآن. كان عمر يحيى هو الذي قَرأ لنا الفاتحة عندما عقدتُ خِطْبتي على رفيقة العمر،

وشريكةِ الكفاح، زوجتي الدكتورة ملكة أبيض في صباح يومٍ صافٍ جميل من ربيع 1950م.

هل هناك ذكرى أجمل.. وأقربُ إلى القلب؟

وأقرأ هذه السطور على ملكة أبيض فتقاطعني قائلةً: كان عمر يحيى أستاذي أيضاً، إنني لا أنكر اسمه مرةً إلا لمع في ذهني بيت من الشعر، فاجأنا به ذاتَ يوم، عندما ألقى علينا سؤالاً في الصف، وارتفعت أيدي الكثير من الطالبات بالجواب، فإذا هو يُنْشِد بصوتٍ يمتزجُ فيه المرَحُ بالوقار:

تكاثَرتِ الظِّباءُ على خِـرَاشٍ فما يدري خِرَاشٌ ما يَـصِيدُ؟

وبعد خمسين عاماً ما يزالُ البيتُ الجميل يثبُ إلى ذاكرتي، ويملأُ سمعي، كلما ذكرتُ هذا الإنسان الجليل. سَجِّلْ لي هذه الذكرى في كلمتك.

* * *

تحيةً لأستاذي وصديقي الرائع أبي طريف..

تحيةً لهذا الرائدِ الكبير..

وشكراً لحماه التي لا تَنْسَى..

واسمحوا لي أختم كلمتي العجلى بهذه الأبيات الخمسة، أوجزُ بها الذكرى، وأُهديها إلى روح عمر يحيى، الرجلِ الذي علَّمني، وعلَّم أجيالاً معي، على امتداد نيفٍ ونصفِ قرنٍ من مسيرة الضوءِ، والألم، والكفاح:

إلى ظِلٍّ.. من الماضي شَفيفِ
وحيثُ تَبَرعمتْ أُولى حُروفي

إلى العاصي.. يمرُّ بجنبِ بيتي
ويَسقيني هوى حُلُمٍ رهيفِ

إلـــى أُولـــى أَراجيعـــي وبَـــوْحِي

إلى قَرْميدِ
ضَيْعَتِنا الأَليفِ
أعـــودُ.. وفـــي يَـــدَيَّ الأَصْـــفَهاني
وبعـــضٌ مـــن بـــواكيرِ القُطُـــوفِ

أعودُ..
وكـــــانَ أَوَّلَ مَـــــنْ دعـــــاني
إلـــى وَهَـــجِ البيـــان.. أبـــو طريـــفِ

صنعاء: 1998م

* * *

لابدَّ أن نُشعلَ هذا الليل

إلى الشاعر الصديق الراحل أبي هوازن،
أمين إسبر. إيماءة وداع..

-١-

من «تَوْبةِ المَطَرْ»[١]
ومن جنونِ النَّغَمِ المُنْبَثِّ في مسامعِ الحَجَرْ
من رَعْشةِ القافيةِ المُطْلَقةِ العِقَالْ
تَجوبُ في الأَدغالْ..
تُعانِقُ الغُربةَ.. والأحزانَ فينا..
تَزْرعُ الشَّرَرْ..
في تُربةٍ ماتَتْ.. وجَفَّ ضَرْعُها..
منذُ هَوَى الفُرسانْ
عن صَهَواتِ خَيْلِهم.. وانكَفأَ الزمانْ
يَرْجُمُنا بالليلِ، والسُّبَاتِ، والضَّجَرْ
من خَيْمةٍ..
ما زالَ فيها للهوى، والحُبِّ، والوَتَرْ

---

(١) توبة المطر، وبياض اليقين: ديوانان للشاعر الراحل.

دَنْدَنةٌ..
يُطْلِقُها عُودُكَ أو عُودي.. بلا حُدودْ
نَحْلُمُ أن تقتلعَ الأَسْوارَ والحدودْ
بها.. وما في الأُفُقِ الحزينِ من أَثَرْ
للضوءِ.. لِلسَّحَرْ
من كلّ هذا.. بعضِ هذا.. أُرعِشُ النشيدْ
على يَدي.. لكي أُحَيّي الراحلَ الجديدْ
من شَجَرِ الأَصحابِ.. كنتَ الراحلَ الجديدْ
في لهفةٍ.. يَذْكُركَ المَطَرْ
يا شاعري.. في لهفةٍ يَذْكُركَ الوَتَرْ

-٢-

من «تَوْبةِ المَطَرْ»
ومن بَيَاضِ الحُبِّ واليَقِينْ
تُومِئُ لي يا شاعري..
بأحدثِ الألحانِ في العودِ الذي
نامت به الألحانْ..
عن عالمٍ من الرُّؤَى، والصَّبَوَاتِ الخُضْرِ،
كيفَ اجْتَرأَ الزمانْ
على النشيدِ الحُلْوِ؟ كيفَ انْطَفأَ المَكانْ
من شُعلةِ القافيةِ الْتَنْداحُ في الأرضِ بلا عِنانْ
كيفَ؟ ألا يُوقِظُني هاتفُكَ الجميلْ
من هَجْعَتي هذا المساءَ؟

لَطالَما أَيقظَني هاتِفُكَ الجميلْ:
قصيدتي في «جَبْلَةٍ» أَرْبَتْ على المِئَةْ[1]
ويرتمي صوتُكَ في سَمْعي..
ربما أَرْبَى على المِئَةْ
عَصْرُ «المُعَلَّقاتِ» قد عادَ إذَنْ..
على يدَي فارسِهِ الأصيلْ
و«جَبْلَةُ» اللُّؤلُوءَةُ الحلوةُ في شاطِئِنا مُعَلَّقَةْ
تَنْسُجها بيتاً.. فبيتاً..
خمرةٌ مُعَتَّقَةْ..
تُعيرُني الآنَ صدَاها..
كي أكونَ ها هُنَا.. مَعَكْ
في حَفْلَةِ الوَداعِ.. كي تَسْمَعني وأَسْمَعَكْ

إنَّا جميعاً يا صديقي ها هنا.. مع الهوى،
والذكرياتِ الحُلْوةِ.. المُرَّةِ..
إنَّا ها هُنا.. مَعَكْ

-٣-

طفْلانِ نحنُ.. من جذورِ الأرضِ جِئْنا..
من مقالعِ الجَبَلْ..
تَعرِفُنا الصخورُ والأشواكُ،

(١) قصيدة «مدينة وشاعر» التي استوحاها شاعرنا من مدينة طفولته وشبابه جبلة. على الساحل السوري، وأهداها إليها في ديوان صغير بعنوان: مدينة وشاعر.

في الطريقِ، بين السهلِ والجَبَلْ
طِفْلانِ.. في ضُلوعنا قصيدةٌ هَيْمَى،
وفي عيوننا أَمَلْ..
ومن تُرابِ القريةِ المحرومةِ العَطْشى..
من الحرمانِ.. من صُبَّارِها..
رُحْنا نصوغُ الحُلْمَ والأملْ
نزرعُه في كل وادٍ.. نغزِلُ القُبَلْ
للوطنِ الجميلْ..
للوطنِ القتيلْ..
طِفْلانِ.. كلُّ العاشقينَ المُبدعينَ
عَرَفوا الشقاءْ..
طفولةً تَمشي، وفي يَمينها السماءْ
جائعةً تَمشي، وفي عروقها الدماءْ
ترفُضُ أن نُسْلِمَ هذي الأرضَ لِلفَناءْ
تقولُ شعراً..
تَتحدَّى..
تُرسِلُ الغِناءْ
للوطنِ الجميلْ..
للوطنِ القتيلْ..
لابُدَّ أَنْ نُشعِلَ هذا الليلَ، مُستحيلْ
أَن يسحقَ الأشعارَ هذا الليلُ، مُستحيلْ

طفلَيْنِ جئنا من جذورِ الأرضِ..
نبقَى في جذورِ الأرضِ..
في هذا الترابِ الرائعِ القتيلْ
أَنْ نتركَ التاريخَ للزوبعةِ الصفراءِ،
لِلغُزاةِ، مستحيلْ
دَعْني أؤكِّدْ: ألفُ مستحيلْ

-٤-

قارئةُ التاريخ.. بينَ الأرضِ والسماءْ
شَبَّابةُ الأَزَلْ..
صنعاءُ.. يا صديقَها الوفيَّ.. ما زالَتْ على الوفاءْ
قصيدةُ المهدِ التي شاطرتَها الغِناءْ
والحُبَّ.. والأَمَلْ
تسأَلُني عنكَ، وعن «مَقيلنا»[1] الحميمْ
أجملُ ما غنَّى الهوى «مقيِلُنا» الحميمْ
ما زلتَ فيه الشاعرَ الصامتَ..
حتى يَشْبَعَ المساءْ..
من شعرنا، ونثرِنا، العابرِ والصميمْ
حتى إذا ما صمَتَ السَّمَرْ
فتحتَ ديوانَكَ عَمَّا أَبدعَ المَطَرْ

---

(١) مقيل شاعر اليمن الكبير الدكتور عبد العزيز المقالح الذي كان - وما يزال – يضم نخبة الأدباء والمثقفين اليمنيين والعرب، وكان الفقيد الراحل من روّاده الدائمين خلال وجوده في صنعاء.

فيهِ، وما خَبَّأَ من غُرَرْ
وفُوجِئَ البرقُ بهذا الصامتِ الحكيمْ
يملؤُنا خمراً وعطراً.. يَغْزِلُ القَمَرْ
عَباءَةً شاميَّةً، تُهْدَى إلى اليَمنْ
هذا السفيرُ الشاعرُ العاشقُ مثلي أَوْجزَ الزمنْ
قصيدةً.. طارَ بها لِدُمَّرٍ..
وقالَ للخلود والأَمجادِ: إِني قادمٌ من اليَمَنْ

-٥-

مُتْعَبةٌ رَبابتي.. دَعْني إِذَنْ أُوجِزُ ما أَقُولْ
رَبَابتي منذُ بعيدٍ أُرهِقَتْ..
ولم تَزَلْ تُصارِعُ الأُفُولْ
تُصارِعُ النَّبْضَ الذي صار إلى عُكَّازْ
ما أَرْوعَ الصِّراعَ بين النَّبْضِ والعُكَّازْ!
يا شاعري.. ما أَرْوعَ الصِّرَاعْ!
بينَ الذي ندعوه بالحقيقةِ المُرَّةِ.. والمَجَازْ
كُنَّا مَجَازاً.. حُلُماً.. مَرَّ على الوَطَنْ
مُخَلِّفاً إِرْثاً من العذابِ والمِحَنْ
مُخَلِّفاً صوتاً..
يُقَالُ.. إنه يَبْقَى على الزَّمَنْ

صنعاء: أيلول (سبتمبر) 2003

* * *

يا صديقي.. أيها الكنز!

إلى الصديق الراحل: أبي العيد دودو - الجزائر

- همسة وداع

فيِ الصحيفَةْ..
أقرأُ الآنَ رَحِيلَهْ

يا صديقي.. كيفَ لي أَنْ أَتلَقَّاكَ..
سُطوراً.. في الصحيفَةْ؟

يا أَبا العيدِ.. الذي كانَ عُطُوراً وخميلَةْ
وسِيَاجاً رائعاً.. تشتاقُ
أَنْ تُلْقي عليهِ ظِلَّها
كلُّ الفَرَاشاتِ الجميلَةْ
هكذا اخْتَرْتَ الوَدَاعْ
خَبَراً..
يَفْجَؤُني الآنَ.. على مَتْنِ صحيفَةْ

كيفَ لَمْ تُومِئْ ولو مِنْ شُرْفَةِ الدارِ الصغيرَةْ

في الجزائرْ:

أَنَّني يا شاعري
أزْمعتُ أَنْ أُسلِمَ للغَيْبِ شِراعي..
أَنْ أُسافِرْ؟

يا صديقي.. أَيُّها الكَنْزُ
الذي توجزُ دُنيانا ابْتِسَامَةْ
لم تفارِقْهُ..
وكان الحُبَّ.. كانَ الشِّعْرَ..
والدنيا غَمامَةْ

من شُجُونٍ.. نَسَجَتْ عُمْري وعُمْرَهْ
يا صديقي!
كيفَ ألقاكَ على أصْداءِ زَفْرَةْ
وخَبَرْ..
أتَملاَّهُ أَمامي؟

يا أبا العيدِ.. الذي كانَ القَمَرْ
من هَداياهُ لنا..

إِنْ ضَمَّنا في بَيْتِه الحُلْوِ السَّمَرْ

*   *   *

أيها الغائبُ في صمتٍ تَساوى العيشُ فيه بالزوالِ

أَنْتَ لم تَرْحَلْ..

ستَبْقَى حُزْمَةَ الضَّوءِ

بأَهْدابِ اللَّيالي..

حالكاتٍ.. لم تَزَلْ منْ حَوْلِنا

راعبةَ العَتْمِ.. اللَّيَالي

آهِ.. لو أَملِكُ أَن أزرعَ فيها

بعضَ ما أَشْعلْتَ

من حبٍّ، وشعرٍ، وجمالِ

صنعاء: 2004/5/5

*   *   *

مِلْءَ كَفَّيْكَ.. انْفِجارٌ

إلى المؤرخ العربي الشاب.. الصديق

الدكتـور أحمد داوود

تُـــــسافِرُ فـــــي مُهـــــشَّمَةِ الجُـــــذُورِ
ويَلْفحُـــــكَ الهجيـــــرُ.. علـــــى الهَجيـــــرِ
تُـــــصِرُّ بـــــأَنَّ أَزْمِنَـــــةً عِجَافـــــاً
تَـــــركْنَ كُنوزَنـــــا مِـــــلْءَ القُبـــــورِ
ضَـــــربْنَ علـــــى الهُوِيَّـــــةِ ألـــــفَ سِـــــتْرٍ
أقمْـــــنَ علـــــى الحقيقـــــة ألْـــــفَ سُـــــورِ
تُـــــسافِرُ.. مِـــــلْءَ كفَّيْـــــكَ انْفجـــــارٌ
يُمَزِّقُهـــــا.. بَغِيَّـــــاتِ العُـــــصُورِ
ويَـــــصْدَعُ بالـــــضياءِ.. فـــــنحنُ بَـــــدْءٌ
إذاً للـــــساطعاتِ.. لكـــــل نُـــــورِ

*   *   *

تَغَلْغَـــــلْ فـــــي خرائِبنـــــا مُـــــضِيئاً..
أَعِـــــدْني لِلمُعَتَّـــــقِ مـــــن خُمـــــوري
بكَفَّيـــــــكَ المُخَـــــــضَّبتينِ فتحـــــــاً
شـــــدَدْتُ قـــــصيدةَ العُمُـــــرِ - الـــــسَّعيرِ

مونتريال: 2005/2/10م

* * *

أنا في البيت

إلى الشاعر الصديق: زاهي وهبي ولقاء
«خليك في البيت»

أنا في البيتِ..
وبيتي قطرةٌ..
من ندىً..
في عشبةٍ.. تَخْتَبئُ
عشبةٌ..
لو نشَرتْ أوراقَها
قتَلَ البيدَ
إليها الظمأُ

أنا في البيت..
ولن أَبْرحَهُ
كلُّ هذا الكون
لي مُتَّكأُ..
في ضلوعِي خفقةٌ

أسفَحُها
مَلأٌ..
ينشَقٌّ عنه مَلأُ
فإذا الشعرُ.. نشيدٌ
جمرةٌ
بشظايا من جنوني
يُقرأُ..
وإذا العمرُ..
حوارٌ شاردٌ
بحكاياتِ اللَّظَى
يمتلئُ..
أنا في البيتِ
الذي أَبْدَعني
رحلةً في عاصفٍ لا يَهدأُ

صنعاء: 2004/7/8م

*   *   *

أيها الطفل ـ الحلم!

في حفل السنديانة.. في حمّام القراحلة..

لحظة.. تتدحرج بين يديك.. تطفر دمعةً في عينيك..

خمسة وستون عاماً.. من كان يصدق أنك ستعود لتجدها تنتظرك في ظل سنديانة.. تهبط عليك من ورقها، من أغصانها.. تعانقك.. تترك يدك اليمنى لعصاك، وأعوامك الأربعة والثمانين، وتأخذ بيدك اليسرى وتقول لك: اجلس في ظلي أيها السندباد المتعب المحطَّم، اجلس في ظلي كما كنت تفعل قبل خمسة وستين عاماً.. اجلسْ واغترف حفنة ماء من «عين قبي» التي إلى جوارك، واغسل بها وجهك المرهق واستروح نسمة نقية من أنسام الجبل.. من أنسامي، ما تزال أنسام الجبل نقية بالرغم من كل شيء. إجلس كما كنت تفعل قبل خمسة وستين عاماً، واستمع إلى أزجالك القديمة، التي كنت تفرش بها هذه القمم السمر الخضر الحلوة الشامخة، استمع إلى أصدائك التي ما تزال على شفاه أهلك الطيبين الذين كانوا يجتمعون حولك، أنت ونفر من الشباب الفتيان المشردين تشاطرهم همومهم، ويشاطرونك همومك.. وعلى رغيف الخبز اليابس وحبات الزيتون السوداء، كنتم تكتبون أولى أحلامكم الرائعة، وتبشرون بها هذه الأرض العطشى.

* * *

خمسة وستون عاماً..

من كان يصدق أنك ستحمل عصاك من صنعاء، من دمشق، وتأتي على جناحي دعوة كريمة يوجهها إليك أخ عربي كريم ليجمعك بأهلك، بذكرياتك، بأغانيك، بأحلامك الأولى تحت أوراق صديقتك القديمة سنديانة الجبل، وما أكثر صديقاتك المورقات الشامخات في هذا الجبل، في هذا الساحل العربي الساحر، في مدنه وقراه. ما أكثر صديقاتك وأصدقاءك!

استرح أيها السندباد المرهق.. استرح قليلاً.. فقد آن لك أن تستريح، وامسح دمعةً طفرت من عينيك وأنت تستعيد شبابك، تستعيد ماضيك، تستعيد أحلامك الأولى التي ما زلتَ تتشبث بها وتقبض على جمرها، وتصر على طفولتها:

أمة عربية واحدة

ووطن عربي واحد

يمتد من هذه السنديانة إلى أقصى شهقة تقاوم الظلم والظالمين والعدوان والمعتدين بين المحيط والخليج، ولابد أن تزول كل الخناجر التي في صدرك، وتمد عباءتك العربية ذات يوم بين المحيط والخليج.

أيها الطفل العنيد، الذي يحمل عصاه وأعوامه الطويلة، ويأتي ليجدد الذكرى ويقف على شرفة الماضي ويطلّ منها على المستقبل القادم من قلب الدم والدمع والعذاب. دع الآن حديث الدم والدمع والعذاب، وارجع إلى أهلك، إلى أغانيك، إلى الطفولة التي لا تُهزم، واستأذن أصدقاءك ومحبيك أن تختم كلمتك الآن بزجلية صغيرة، زجلية جديدة(١)، تهديها إليهم وإلى شجرتك القديمة، صديقتك التي تريد أن تسمعها وتسمعك.

---

(١) كان مطلع الزجلية:

يا سنديانة حلمنا الأولْ

يا حاملة الأسرارْ

ياللي بدينا تحتكْ المشوارْ!

شكراً لكل من جاء لتحيتها.. وتحيتك..

وشكراً لصديقك العربي الكريم ابن السنديانة الوفي الذي أتاح لك هذه الفرصة النادرة..

شكراً لسليمان حداد.

2004م

* * *

عريشة وفنجان قهوة

إلى الأخ والصديق أبي نوَّار محمد مجني
بعض ما قالته عريشة ياسمين وصباح
في صنعاء

يـــا صـــباحاً.. يَلُمُّنـــا بجناحَيْـــهِ
ســـيَبْقَى ســـناكَ مـــلءَ العيـــونِ
ظَلَّلتْنـــي عريـــشةٌ مـــن نجـــومٍ
عـــن شـــمالي أهـــدابُها ويمينـــي
وتعلَّقْـــتُ بالـــصباحِ.. كلانـــا
شـــاعرٌ ضـــاعَ فـــي حنـــينِ الحنـــينِ
«قهوةُ الزَّعْفرانِ»[1] مـــا عـــدتُ أدري
أحتـــسيها فـــي الظـــلِّ أم تحتـــسيني؟
ويـــدورُ الحـــديثُ، يرشَـــحُ بالحـــبِّ
وحينـــاً بموجعـــاتِ الـــشجونِ
لِنُخَلِّـفْ وراءَنـا، يـا أخـا الغُربـةِ،
فـــي لحظتـــينِ هـــمَّ الـــسنينِ

---

(١) قهوة أم نوّار.

وَلْنَضِعْ في نجومـــكَ البـــيضَ، أعنـــي

جنـــةَ العطـــرِ بـــين حـــينٍ وحـــينِ

تكتـــبُ الـــشعرَ بـــالظلال وبـــالوردِ

وأُمليـــــــه بـــــــالكلام المُبـــــــينِ

صنعاء: 1996/10/5

*   *   *

ابنـة العم

إلى الصديقين نزيهة ونبيل نصر

زارعَيّ مواكب النور في دبي

يا بْنـــةَ العمِّ[١]
والذُّؤابةُ من غسَّانَ
مجدٌ له كِلانا يَؤُولُ

نَـــسَبٌ كالــــضُّحى.. تَرقـــرقَ بالــــضوءِ،
وغَنَّـــــى فيــــه الأصــــيلُ الأَصــــيلُ

إِزْرعوها.. مواكبَ النـــور[٢] فـــي الأرضِ
وعاشَـــــــتْ.. نبيلــــــةٌ ونبيـــــــلُ

دمشق: 2010

(١) الشاعر والسيدة نزيهة ينتسبان إلى الغساسنة.

(٢) إشارة إلى مدرسة المواكب.

همسة وداع

إلى تلميذتي: إنعام أبيض

كانَــتْ.. أَرَقَّ مِــنَ الــصَّبَا
وأَخَفَّ مِنْ رِيــشِ الــسحابِ
تِلْميــذَتِي كانَــتْ.. وأَنْهَــلُ
مِــنْ طَرَائِفهــا العِــذَابِ..
يـــا للْجَنـــى.. والكـــرْمُ
يَزْخَـــرُ بالعناقيـــدِ الرُطـــابِ
إِنْعَـــامُ.. كَنْـــزٌ صَـــانَهُ
فـــي مُقْلَتـــي أَلَـــقُ الغِيَـــابِ
أَعْطَتْ.. فلم تَحْـسِبْ لغيــرِ
الحُبِّ يومـــاً.. مِــنْ حِـسَابِ
وتَـــــشِيلُنَا بِجُفُونِهـــــا
رِيّـــاً.. وتَقْتَـــعُ بِالـــسَّرَابِ
عاشَتْ لنا عَبَقاً.. ونَرْشُــفُهُ
.. فيـــا نُعْمَـــى الـــشَّرَابِ
رَحَلَـــتْ.. وتَبْقَـــى أَعْــذَبَ
الأَلحانِ تَخْفُــقُ فــي رَبَــابي

٢٠٠٧/١٠/٣٠م

دُرَّةُ المقيل

في حفل التكريم الذي أقامته الجالية العربية السورية في صنعاء للصديق الأستاذ خالد الرويشان وزير الثقافة والسياحة

كنا في مَقيلٍ
يضمُّ عدداً كبيراً
من الإخوة المثقفين في صنعاء.
كان يقرأ
مقالاً أو قصيدةً - لم أعد أذكر -
وشدَّتني بعمق
نبرتُه العميقة الهادئة
وصوتُه الواثق..
ولغتُه الجميلة الخاليةُ من اللحن والخطأ.
قلتُ لصديقي الشاعر الكبير
الدكتور عبد العزيز المقالح:
منِ الشابُّ الذي يقرأ بكل هذه الأناقة والجمال؟

أجابني:

هو رفيقنا خالد الرويشان

وهمس في أُذني أَحد الحاضرين:

هو دُرَّةُ المقيل.

* * *

ومنذ ذلك اليوم

أصبح خالد الرويشان، دُرَّةُ المقيل،

صديقي القريبَ القريب.. الودود الودود.

كان ذلك منذ ثمانية عشر عاماً تقريباً..

* * *

سماءٌ من النقاء والصفاء تُظلُّ هذا الرجلَ وتشدك إليه، ونفحة من نفحات الأصالة العربية، - كدتُ أقول البداوة - تشمل حياته كلها، وذوق رفيع رفيع في الشعر والموسيقا يجعلك تحس أنك أمام قصيدة من قصائد العرب البالغة الجودة، أو نغمة من نغمات الموصلي أو زرياب التي يحدِّثنا عنها الأصفهاني في كتابه الخالد (الأغاني).

* * *

منذ ثمانية عشر عاماً وحتى الساعة.. تربطني به صداقة شفَّافة، جميلة، خالية من أي حاجز أو تعقيد. ولعل هذا سر جمالها. يحملني في سيارته ويطير بي إلى ذروة من ذرا الجبال المحيطة بصنعاء لكي يسمعني أغنيةً حلوة، أو قطعةً من الموسيقا.

كم مرة طاف بي شوارع صنعاء في ضوء القمر.. يحب ضوء القمر كما أحبه، ونستمع معاً إلى فيروز وهي تغني إحدى أغانيها العديدة عن القمر.

أهداني مرة شريطاً خاصاً بأغاني فيروز للقمر فقط. يقول لي بلا تردد: نحن مسؤولون عن طباعة كل بيت من الشعر تكتبه. ويطبع لي فعلاً كل بيت من الشعر أكتبه، يخرجه في حلة لا أجمل ولا أرقى.

خمسة عشر كتاباً أصدر لي في وزارة الثقافة والسياحة، ومن قبلها في الهيئة العامة للكتاب في السنوات الخمس أو الست الأخيرة، لم تكن الكتب كلها لي..

كانت لي، ولرفيقة الدرب، الدكتورة ملكة أبيض التي تكتب عني، وتترجم شعري، كما تترجم لشاعرنا الكبير الدكتور عبد العزيز المقالح إلى الفرنسية. وكان أحدث ما ترجمته مجموعة قصص قصيرة للأستاذ خالد، هي - في رأيي ورأيها - من أجمل ما كُتِب في القصة العربية المعاصرة.

هذا هو الأخ والصديق العزيز خالد عبد الله الرويشان، وزير الثقافة والسياحة الذي يحتضن كل المواهب المتفتحة في اليمن، يشجعها وينشرها، كما يحتضن كل شاعر أو كاتب يأتيه من أرض العروبة بنتاج.

وأشهد أني ما عرفت عاصمةً عربية أضاءت ثقافة، وفناً، ونشاطاً في كل مناحي الإبداع كما أضاءت صنعاء عاصمة الثقافة العربية في العام المنصرم، عام 2004.

يشهد بذلك الجميع..

وما يزال النشاط مستمراً..

وما يزال خالد الرويشان يشتعل حماسة لكل جديد بلا ضجيج ولا ضوضاء.

* * *

هي سِرُّ البَوْحِ في وَتَري

إلى أخي وشاعري العزيز: فاروق شوشة،
على هامش مقاله الجميل في «الأهرام»:
سليمان العيسى و«المرأة في شعري»:

لم أكُنْ يــا شــاعري صَـــخَباً
كنـــتُ همـــساً مُورِقـــاً ونَـــدَى
كنـــتُ طفـــلاً عـــاشَ مبتـــسِماً
وغَـــــزَا بالبـــــسمةِ النَّكَـــــدا
كنـــــتُ آهـــــاتٍ مُجَرَّحَـــــةً
فـــي لَهَـــاةِ النيـــلِ أو بَـــرَدَى
رُبَّمـــــا أَشْـــعَلتُ حَنْجَرتـــــي
وانتَهيْنا فـــي الحريـــقِ صَـــدَى
رُبَّمـــــا قاتَلْـــــتُ منفـــــرداً
وبِلَحْـــــمِ الأَرْضِ مُتَّحِـــــدَا
إِنَّهـــا كانـــت معـــي سَـــهَداً
فـــي قَتـــامِ العُمْـــرِ أو رَغَـــدا

هِيَ سِرٌّ البــوحِ فـــي وَتَـــري
ذابَ سَلْـــــــسالاً أوِ اتَّقَـــــــدا
أنــــا لولاهـــــا.. مُغَــــامَرَةٌ
في سُدىً يُفْضِي إليـــهِ.. سُـــدَى
قاسَـــــمتْني الــــدَّرْبَ أُغْنِيَــــةً
وتَناثَرْنـــــا بهـــــا بَـــــدَدَا
ما انْفَــصلْنا قَــطُّ.. مَعْركتـــي
هـــيَ فــــي أَعماقِهـــا أَبَـــدا
فَجَّــرَتْ صــمتي.. وصـــامتةً
خَلَقتْنــــي طـــــائراً غَـــرِدا
طِفْلَها كنـــتُ.. ومـــا بَرِحَـــتْ
طِفْلَتي..
أَحْلَـــــى العِنـــــاقِ غَــــدَا

صنعاء: 2001/6/1

*   *   *

مُسافر.. بلا وَداع

إلى الراحل العزيز: أحمد البشاري

أَبْكيكَ.. دَفْقَــةَ ضَــوْءٍ مــن ذُرى الــيَمَنِ
بالموتِ.. بالليلِ.. بــالأَحْزانِ.. تَفْجَــؤُني
أَبكيكَ.. نَــسْمةَ صــيفٍ كُنْــتُ أَرْشُــفُها
بالظِّــلِّ كانَــتْ.. وبالأَنْــداءِ.. تَغمُرنــي
أَبكيــكَ.. أُغْنِيَــةً لِلْحُــبِّ صــافيةً
بأَنْبَــلِ الكَلِمــاتِ الخُــضْرِ.. تَكْتُبُنــي
أَبْكيــكَ..
كَيْــفَ اعتَزَمْــتَ النَّــأْيَ فــي عَجَــلٍ
ولــم تَهبْنــا.. ولــو إِيمــاءةَ الــشَّجَنِ؟
يا بَسْمــةً..
فــي ربيــعِ البَــسْمَةِ انْطَفــأَتْ
وكُنْتَ..
مِــلءَ قُلُــوبِ الأَهْــلِ والــوَطَنِ

ماذا أَقولُ؟ وغَيْمُ الحُــزْنِ فـــي حَــدَقي
بالآهـــةِ المُـــرَّةِ الخرســـاءِ يَعْـــصِرُني
أَلمُهُّـــا مـــن بعيـــدٍ.. دَمْعـــةً هَرَبـــتْ
إليكَ في الصَّمْتِ.. فاتْرُكْني إلـــى حَزَنـــي

دمشق: 2001/4/19م

* * *

هَيِءْ جناحَيْك إذاً

إلى الصديق الفنان (ابن البلد) الدكتور حيدر اليازجي حين أخبرني أمس أنه عائدٌ إلى ملاعب الطفولة في أنطاكية مرةً أخرى..

تَشُدُّنا مَلاعِبُ الطُّفُولَةْ..
يَشُدُّنا الحنينْ..
هَيِّءْ جناحيكَ إذاً..
ألوانَكَ العَطْشَى.. وريشَتَكْ
ومرةً أُخْرَى.. استَعِدْ طُفولتي، طُفُولَتَكْ
أَيْقظْهُما.. في كل زاويَةْ
احمِلْ بقايا حُبِّنا القديمْ

وشوقِنا القديمْ
أُنْثُرْ هناك الذكرياتِ الحاليَةْ
ارْسُمْ خُطَانا الزُّغْبَ في أَنْطاكيَةْ

* * *

لقد كَبِرْنَا يا صديقي.. كَبِرَ الأطفالْ
واخْضَوضَرَتْ آمالْ

وَيَبِسَتْ آمالْ..

وبقِيَ الحُبُّ كما كانَ.. بَقينا نحنُ والخَيالْ

تَصُبُّه.. لوناً على الوَرَقْ

أَصُبُّه.. قافيةً معجونةً بالدمعِ والأَرَقْ

اِحمِلْ جناحَيْكَ.. وقل لِظلِّنا القديمْ

لِدَرْبِنا الحميمْ..

أنتَ حنينٌ خالدٌ في البالْ

لقد كَبِرْنَا يا صديقي.. كِبَرَ الأطفالْ

* * *

يَبْحَثُ عني البَيْتُ، والقرميدُ، والشَّجَرْ

تَبْحَثُ عني تُوتَتي الخضراءُ فيها

هَجَعَ القَمَرْ

تركتُهُ ذاتَ صباحٍ هاجعاً..

وضِعْتُ في الضَّبَابْ

قصيدةً حالمةً.. يكتبها على الدروبِ

الجَمْرُ والعَذَابْ..

ولم تَزَلْ تَشُدُّنا مَراتِعُ الطُّفْولَةْ

يَشُدُّنا صَــدَى

مُدَوِّماً على المدى

في كل نبضٍ، يسرِقُ الأبعادَ والمَدَى

أَطلِقْ جناحَيْك.. وطِرْ إليهما

وضَعْ على خَدِّ التُرابِ
قُبْلةً خجولَةْ

*   *   *

جُذُورُنا.. هل يَظْفَرُ الموتُ بها؟ مُحَالْ
أقولُها.. وكُلُّ شيءٍ في يدي مُهَشَّمٌ..
مُحالْ

لقد كبِرْنَا يا صديقي.. كبِرَ الأطفالْ..
البَاقيانِ: رعشةُ الحنينِ والخيالْ

دمشق: 2005/9/28

*   *   *

عندما تكتب

إلى الدكتورة نجاح العطار

تصارعينَ عَصِيَّ الحرفِ..
تجعلُهُ
يَداكِ من عبَقٍ صافٍ
ومن أَلَقِ

يا روعةَ المتنبيِّ.. في شواردِهِ
ودفقةَ النورِ

في داجٍ منَ الغَسَقِ

2007

* * *

ذكرى مقال

إلى أخي الدكتور رياض نعسان آغا

فـــي مَقـــالٍ[١]، رائـــعِ النَّـــسْجِ، كَمَـــا
يَـــدْفُق النهـــرُ، ويَنْهَـــلُّ المَطَـــرْ
فـــي مَقـــالٍ رائـــعٍ.. أَوْجَزنـــي
ذاتَ يـــومٍ.. أَسْـــكَرَ الـــروضَ الزَّهَـــرْ
لـــم أَزَلْ فـــي بالِـــهِ قافيـــةً
يَـــسْهرُ الـــنجمُ عليهـــا والقَمـــرْ
إِلْتَمِـــسهُ مـــرةً مُـــرتجِلاً
تَعْـــرفِ الـــشلاَّلَ بالفُـــصْحى انهَمَـــرْ

2009

(١) نشر المقال أول مرة في صحيفة (الوطن) العُمانية.

كُنَّا صَليلَ السيفِ!

إلى أخي وصديقي الدكتور عبد العزيز السبيل

أَنْزِعُ نَفْسي.. مِنْ بَرَاثِنِ الضَّجَرْ
أَعُومُ في الخَطَرْ..
إلى يَنابيعي..
إِلى طُفُولتي أَجيءْ
أَلْفُ شُعَاعٍ في طريقي..
في مَتَاهاتِ الدُّجَى..
يُضِيءْ..
يَمُدُّ لي يديَهْ..
ترتعِشُ المُعَلَّقَاتُ،
يَهْفو ظَمَأُ التاريخِ في يدَيْه
يَقولُ لي: أَهْلاً بِطفلِ الخيمةِ الزَّرقاءْ!
تنهمرُ السَّماءْ..
في مُقْلَتي..
أخلَعُ نفسي من بَرَاثنِ الضَّجَرْ
والحُزْنِ..

أَنْسَى أَنني الضَّيَاعُ والدَّمَارُ
حينَ أَلْتَقِيهْ..
كُنَّا صَلِيلَ السَّيفِ..
أَيْنَ ارْتَحلَ الصَّليلْ؟
أَبْحَثُ عنه.. منذُ كنتُ،
أَعْطِني يدَيكْ..
كُنَّا معاً في التّيهِ..
في خَيْمتنِا الزَّرقاءْ
في العَتَماتِ السُّودِ، في الضياءْ
نَبْقَى معاً..
لابُدَّ أَنْ نَعُودْ
لابُدَّ أن نَعُودْ
خَيْمُتنا الزرقاءُ كانت تَمْلأُ الوُجودْ
ولم نَزلْ - في الموتِ - مِلْءَ دارِنَا
وعَبْلَةُ السمراءُ.. في انْتظَارِنا
آمَنْتُ بالقَتيلْ..
يَهْزِمُ كُلَّ قاتِليه، واسْمُهُ القَتِيلْ
تُخَبِّئُ الخيمةُ..
في الأَنْقاضِ.. أَلْفَ مُسْتَحِيلْ..

دمشق: آذار 2008م

*   *   *

سلامٌ من صَبَا بردى

إلى الصغيرة تالا إبراهيم التركي

على هامش زيارة خاطفة لبيتها.

إِلَى تالا..
وإِخْوَتِها الصِّغارِ
وكُلُّهُمُ - وإِنْ كَبِروا - صِغَاري
سَلامٌ.. من صَبَا بَرَدى
يَرِفُّ طُفولةً ونَدَى
ويَحْمِلُه إلى الأَطفالِ لَحْنٌ
هو العُشْبُ المُغَرِّدُ في القِفَارِ
إلى تَالاَ.. تُحِيطُ بها
قَصائِدُ[1]..
لم أَزَلْ أحيا بأَرْوَعِها وأَعْذَبِها
قَصَائِدُ.. جَدَّدَتْ وتَرَي
ورَدَّتْني..
إلى فجري.. إلى نَبَراتيَ الأُولَى..

---

(١) إشارة إلى أبيها الشاعر المبدع.

إلى ما غمغمت شَفَتايَ في صِغَري
وأُقْسِمُ.. لم أَزَلْ نَشْوانَ يا تَالاَ
بما حُمِّلْتُ.. أشعاراً وأَطفالاَ
مِنَ اليَنْبُوعِ.. واليَنْبُوعُ عِنْدكُمُ
أَجَلْ.. في شهقةِ الصحراءِ.. عِندكُمُ

دعيني..
شارداً في الرَّمْلِ..
بينَ التيِّهِ والتيهِ
لقد أعطيتُهُ عُمْرِي
وما أَبقَتْ ليَ الأيامُ مِنْ وَشَلٍ
سأُعطيهِ..
ويُبْدِعُني الصغارُ قصيدةً
لا تَنتهي أَبدَا..
وحُلْماً..
من رَمَادي..
سوفَ يرتجِلُ الصَّباحَ غَدَا

دمشق: آذار 2008م

*   *   *

طفولتي على ضفاف النهر

على هامش الاحتفال الرائع الذي أقامه الأدباء العرب والأتراك في قريتي (النُّعيرية) بصديقهم شاعر القرية

إلى صديقي الدكتور علي عقلة عرسان

طفَولتي.. على ضِفافِ النهرِ ما تزال..
يَلُفُّها العُشْبُ، وبعضُ الشوكِ، والشَّجَرْ
مُنتشِراً في حافَةِ «العاصي» ..
وطِفْلٌ.. يَعْشَقُ القَمَرْ
يَقْطفُهُ في يده كَتِينَةٍ، أو جَوْزَةٍ،
ويَكْتُبُ القَصائِدَ الطِّوَالْ
يَكتُبُ عن «حارتِهِ»[1] عن مهدهِ أَجْملَ ما يُقَالْ
يَحْلُمُ بالسَّفَرْ..
في أَرْضِهِ.. وأَرْضُهُ الفَضَاءُ والبَشَرْ
ويَحْفَظُ «العاصي» غِنَاءَ الشاعرِ الصَّغيرْ

---

(١) حارة بساتين العاصي.

ويَذْهَبُ الصَّدَى..

ولستُ أَدري كيفَ راحَ يَهْدِرُ الصَّدَى

مُدَوّياً..

في الوَطَنِ الكَبيرْ

في عُمْرِهِ، وشِعْرِهِ غَنَّى

- وما زالَ يُغَنّي - الوَطَنُ الكَبيرْ

وتَطْفرُ الدمعةُ في عَيْني،

وأَنْتُمْ في «النُّعَيْرِيَّةِ» تَخْطُبونْ

وتَعْزِفونَ قِصَّةَ الحاضرِ والماضي،

وتُنْشِدونْ..

شُكراً لكُمْ.. شُكْراً على اللِّقَاءْ!

بِنَبْرَتي الأُولَى، على «العاصي»،

وعاشَ الحُبُّ.. والغِنَاءْ!

أيلول: 2007م

* * *

سونا وموقع الشاعر

إلى الصديقة سونا شحيبر

سونا.. صبِيَّةٌ رائعة،
تركَتْ دمشق.. لِتُقيمَ مع أَهْلِها
في غابةٍ من غاباتِ واشنطن..
أهلُها.. أصدِقاؤُنا الخُلَّص..
أَلصبِيَّةُ الرائعةُ.. صديقَتُنا أيضاً.
سونا.. تُؤْثِرُ حياةَ الجِدِّ في كل شيء..
فإذا راقَتْها طُرْفَةٌ من الطُّرَفِ..
ضَحِكَتْ كطِفْلٍ صغير.
وأَنَا لا أَعْدَمُ طُرْفَةً نَضْحَكُ لها معاً
من حينٍ إلى حينٍ.. حتى نَنْسَى كلَّ ما حولنا.
سونا.. تَراني غيمةً مُتَناثرةً في الآفاق.
وبَدَا لها ذاتَ يومٍ أَن تَجْمَع الغيمةَ المُتَناثِرةَ
في إطَار..
قالَتْ: سَيكونُ إطاراً جميلاً..

وسأُسَمِّيهِ: مَوْقِع الشاعر سليمان العيسى.

سونا.. تُجيدُ التِّقَانةَ الحديثة..

وتُريدُ أَنْ تُفِيدَ منها

في إيجازِ الغيمةِ المتناثرةِ في إِطار..

سَمَّتْهُ: المَوْقِع.

وبَدأَتِ العَمَل..

ورحتُ أنا ورفيقةُ الدرب

نَمُدُّ لها يَدَ العَوْن ما استَطَعْنَا..

أَلغيمةُ التي انتثَرتْ في كل أُفقٍ

على امتِدَادِ العُمر..

ليسَ من اليَسيرِ أَنْ تُوجَزَ في إِطَار

يَدُلُّ عليها.. ويُعطِي صورةً عنها.

ولكنَّ سونا التي تُؤْثِرُ الجِدَّ في كل ما تَعْمَل

لا تَتَراجع.. ولا تَتوَقّف..

قالت لي: أنا لا أُريدُ الغيمةَ كُلَّها.. الغَيْمَة التي غَطَّتْ مِسَاحةَ وطنٍ كبيرٍ سَمَّتْهُ: وَطَنَها العربي.. وراحت تحمِلُ آلامَهُ وأَحْلامَه.. وهي تُغَنّي.. على امتداد عُمر.

أريد أن أَلتقِطَ نُتَفاً منها.. أَجْعَلُها أَمامَ القارئِ في كُلِّ مكان.. (التكنولوجيا)، التِّقَانَةُ الحديثة تَشْمَلُ كُلَّ مكانٍ كما تَعْلَم، تَشْمَلُ العالَمَ كلَه..

سونا.. الصَّبيَّةُ الرائعة..

ما تزالُ مُنهمِكةً في العَمَل..

تَعُدُّهُ شيئاً ثميناً..

بل جُزْءاً من حياتِها..

أنا ورفيقةُ الدرب سعيدانِ بسونا صديقَتنِا العزيزة.. وبعَمَلِها الجميل..

نبعَثُ إليها من حينٍ إلى آخَرَ بتحيّةٍ.. وقُبُلَةٍ من دِمشق.. إلى واشنطن حيثُ تُقِيم..

دمشق: 2007/12/23م

*   *   *

السنديان يحرس العروبة

في ذكرى الشاعر الكبير محمد حمدان الخيّر

-١-

الساحل الحلوُ.. وتنهـــال الـــرؤى خـــضراءْ
الـــساحلُ الحُلْـــوُ شـــبابي.. كانـــتِ الأيـــامْ
شـــــعراً وجمـــــراً.. كانـــــتِ الأَحـــــلامْ
تختـــصِرُ الـــدنيا.. وكـــانَ المـــستحيلُ
فـــي يـــدينا.. لَحَظَـــاتِ الحُـــبِّ والغِنَـــاءْ
هـــــلِ انْتَهـــــى ومـــــضُ المُنَـــــى؟
هَـــلْ أَقفـــرَتْ مـــن غيمهِـــا الـــسَّماءْ؟

-٢-

أَلـــــــسنديانُ.. يحـــــــرُسُ العُروبَـــــــةْ
بـــاقٍ علـــى هـــذي الـــذُّرا الحَبيبْـــةْ
أَلـــــــسنديانُ.. يحـــــــرُسُ البيـــــــانْ
يَمُـــــــدُّ فـــــــي أَعماقِنـــــــا جُـــــــذورَهُ
يلُـــــفُّ فـــــي مـــــصيرِنا مَـــــصيرَهُ..

وفي ثنايا بيــتِ شــعرٍ.. يُــوجزُ الزَّمـــانْ

*   *   *

كنا قبضةً من الشباب.. كلُّهم شُعَراءْ.. نُحاول أَن ننفُضَ رُكامَ العصور عن أمتنا الرائعة، الممزَّقة، نحاولُ بإيمان الصخور السمر، على هذه الرُّبا، وحماسةِ أمواجِ الشاطئ القريبِ، أَن نبعثَ تاريخَنَا، ونُجدِّدَ هُوِيَّتَنا التي طمَسَتْها عصورُ الظلم والظلام..

كنا قبضةً من الشباب.. نحملُ أَحلامَنا العربية الفتيَّة، وننشُرُها على هذا الساحل العربي الحبيب، بمُدنِه وقُراه، ويطارُدنا الاستعمارُ وأذيالُه في كل بلدةٍ نرمي فيها أَقدامَنا، أو قريةٍ فقيرةٍ، شامخةٍ بفقرِها، نُلْقي فيها عَصَا التَّرْحال..

ويَحُطُّ بنا الطَّوَافُ ذاتَ يوم في هذه القريةِ الوادعة، التي تهدأُ في أحضانِ الجبل المنيع، والتي تحمل اسْمَ القرداحة..

وتحتَ شجرةِ التوت.. في بيتِ أحد رفاقنا من القرية.. نجلسُ ذاتَ يوم.. ويبادرُ أحدُنا بهذا الاقتراح:

على بُعد خُطُواتٍ منا، يا شباب، تسكنُ «سِنْديانةٌ» شامخة من سنديان الجبل، يسكنُ شاعرٌ كبير هو الشاعر محمد حمدان الخيّر، فلماذا لا نزورُه، ونَأْنَسُ بلقائهِ بعضَ الوقت؟ أَلَسْنَا هنا لِنبحثَ عن أَصالتِنا وتاريخِنا في هذه الربوع؟

أَلـــسِّنْدِيانُ.. يحـــرسُ العروبَــــةْ
أَلــــسنديانُ.. يحـــرسُ البَيَـــانْ
يَـــضْرِبُ فـــي أَعماقِنـــا جُـــذورَهُ
وفي خبايا بيتِ شعرٍ.. يُوجِزُ الزَّمانْ

وبلا تردُّد، ولا سؤال، نجدُ أنفسَنا بعد دقائق في بيت السنديانة الشامخة، بيتِ الشاعر العربي الأصيل محمد حمدان الخيِّر..

أَلمشهدُ ما يزالُ مطبوعاً في ذاكرتي.. كأنه مرَّ منذ لَحَظات..

الشاعر الكبير، في وقار الكهولة ونَضَارتِها، يستقبلنا بكل ما عُرِف عنه من حبٍ وهدوءٍ وشاعرية.. وهو يَلُفُّ سيجارةً بين يديه من التبغ الجيد المعروفِ في الجبل: ولا ينسى، والسيجارةُ الملفوفةُ بين أَصابعِه، أَن يتناولَ كرَّاسةً قريبةً منه، تَضُمُّ بعضَ قصائده، ويَشرع بقراءة قصيدةٍ متينةِ السَّبْكِ، قويةِ الأَداء، يتحدث فيها عن السيجارة بين أَصابعه، وولَعه بها، وبما توحيه للشاعر من أفكارٍ وصورٍ..

أَيَّةُ موهبةٍ فَذَّة تلك التي تستطيعُ أَن تُحوِّلَ لُفَافَةً من التبغ إلى قصيدةٍ رائعة!!

قلتُ هذا بيني وبين نفسي، وأنا أنظر إلى الشيخ الوقور، وهو يُلقي علينا أبياتَ قصيدتِه المتينةِ، الجميلة، ويأخذُ بين الحينِ والحين نَفَساً من السيجارة التي تحولت إلى قصيدة من عيونِ الشعرِ.

(أنظر بائيته الجميلة في ديوانه ص325 بعنوان: إِرْبَةُ الأديب).

*   *   *

وبالهدوء نفسه، المُتَّشح بالكِبْرِياء، راح الشاعر الأصيل محمد حمدان الخير يحدثنا عن كفاحه ضد الانتداب الفرنسي الذي كان ما يزال جاثماً على صدر الوطن في تلك الأيام، وقصائدِه الوطنية اللاهبة التي كان يقولها آنذاك دفاعاً عن عروبة الجبل الراسخة، وانتمائه إلى الجسد العربي الكبير الذي ما زالت كل قوى الشر والعدوان في العالم تحاولُ حتى الساعة تفتيتَه، وزحزحتَه عن حقيقته التاريخية الثابتة على الزمن.

أَلـــسنديانُ.. يحـــرسُ العُروبَـــةْ..

أَلـــسنديانُ.. يحـــرسُ البَيَـــانْ

تَظَـــلُّ يـــا شـــاعرَنا الأصـــيلْ

يَظَـــلُّ هـــذا الـــساحلُ الجميـــلْ

بكـــلِّ مـــا فيـــهِ مـــن الـــشقاءْ..
والحُـــبِّ، والجمـــالِ، والطُّمـــوحْ
يَظَلُّ هذا الفَرَسُ المُحَجَّلُ الجَمُـــوحْ
يُشِعُّ بالحُبِّ، وبالـــشعرِ، وبالـــضياءْ
وفي هديلِ بيتِ شعرٍ يدفِنُ الـــشقاءْ

وتنقضي الساعةُ والساعتان.. وأستاذنا محمد حمدان الخيِّر يُلقي علينا حديثَه العَذْب، وشعره الأَعذب، ونحن الشباب غارقون في مُتعةٍ لا تَعْدِلُها متعة.. ولا ندري كيف انتهى ذلك اللقاءُ المُمتع الخِصْب، وكيف ودعنا شاعرنا الكبير، ونحن نشعر أننا وجدنا أنفسنا، وأصالتَنا، في هذا الملتقى الذي مر كومضة البرق.

هذي الذُّرا.. كَمْ خَبَّأَتْ في صـــدرِها
عَبْرَ العصورِ.. فوارِساً وعبـــاقِرَا!
مَهْلاً.. فلو زَحْزَحتَ أَيَّـــةَ صـــخرةٍ
سمراءَ.. أَعَطَتْ ثـــائراً أو شـــاعِرَا

*   *   *

غازي القصيبي

زرَعَ الرملَ
أَقحواناً ووَرْدا
ومَشَى في الهجيرِ.. ظِلاًّ وبَرْدَا
شاعِرٌ من عَرَارِ نجدٍ..
سقَتْهُ
نَفَحاتُ العَرَارِ.. عِطْراً ونَدّا
ذاتَ يومٍ قرأْتُهُ.. فَرَماني
في تُخْومٍ من نشوةٍ.. تَتَحدَّى

كان في صوتِه امْرُؤُ القيسِ والأَعْشَى.
ونجدٌ حُلْوٌ..
يُغازِلُ نجدَا
هكَذَا تُنْبِتُ الرمالُ قَوَافيها
فَتَخْضَوضِرُ القِفارُ.. وتَنْدَى

*   *   *

٢٠٠٧

رغيف أم محمد

الذكرى مهداة إلى روح الوالدة أم محمد
في قرية النعيرية

أنا إلى جانبها..
أنتظر أولَ رغيف ذهبي
سيخرج من التنور المسجور
لأتناوله بكلتا يديَّ
وألتهمَه قضمةً قضمةً.. لا أشهى ولا أمتع.

ذهـــبٌ خـــارجٌ مـــن التَّنـــورِ
أيُّ نُعمـــى فـــي قـــضمِه وســـرورِ!

هـــو ســـرٌّ الحيـــاة.. نعـــدو ونـــشقى
ثـــم نـــأوي إلـــى حمـــاهُ الأخيـــرِ

كان حُلْـمَ الـورى ومـا زال حلمـاً
يتنـــاهى إليـــه كـــلُّ مـــصيرِ

الوالدة أم محمد مُكِبَّة على التنُّور الحامي. تتناول بيدها كل رغيف ينضج تُخرجه في لمحة خاطفة ثم تلقيه في طبق القش الملوَّن الذي أعدَّته إلى جانبها.

كنت في الثامنة أو التاسعة آنذاك. لم تكن تفوتُني فرصةٌ تعد فيها الوالدة أرغفتها الذهبية دون أن أكون إلى جوارها، أنتظر الرغيف الأول لالتهامه.. ولم تكن تبخل به عليَّ بالطبع. يا للذكرى التي لا تبهُتُ على الزمن! التنُّور مُشيَّد من الآجرِّ الصغير الأحمر الذي أسهمتُ في إحضاره من التلال المجاورة لقريتنا، ومُقام إلى جوار البيت.. إننا لا نستخدمه إلا في فصل الصيف. في الشتاء، فصل البرد والمطر، تصنع أم محمد أرغفتها المستديرة البيضاء داخل البيت، على «أُثْفِيَّةٍ» تعلوها قطعة مستديرة من المعدن الرقيق نسميها «الصاج».

ولم تكن أرغفة الصاج المستديرة البيضاء أقلَّ متعةً لنا..

الرغيف الذي كنا نتناوله في البيت، على مدار السنة، مصنوعاً بيدنا، كان يتألف - في الغالب - من الذُّرة البيضاء والقمح. إنه مزيج لابد منه لكل أبناء القرية الذين كانوا يزرعون القمح والذرة البيضاء ليكون منها رغيفهم المنتظر وعماد حياتهم الأول.

* * *

ولكن.. كيف كنا نصل إلى رغيف التنُّور الذهبي، أو رغيف (الصاج) الأبيض المستدير؟

تلك قصة معروفة لا أحب أن أعرضها هنا، قصة الحرث والزرع والحصاد والعرق. إنها جزء لا يتجزأ من طفولتي طفولة هذا الشاعر الصغير الذي كتب القصيدة وشارك في صنع الرغيف وهو دون العاشرة.

أنا ولد من الريف.. كما ذكرت غير مرة.. ولعل طفولتنا في الريف كانت أغنى وأحفل بالتجارب الحيَّة المبكرة من أية طفولة، في أي مكان آخر.. يعرف

هذا كل من عاش مثلي بين الشجر والحجر، والتراب وكفاح القرية المر لتأمين العيش. ولم تكن هذه الحياة تخلو من حب، وشعر، وغناء، ومرح. وطموح إلى الأجمل والأرحب، عند بعضنا على الأقل.

* * *

سقى الله مثواكِ يا أم محمد! ما يزال مذاق رغيفك الذهبي ونكهته يعطّران هذه اللحظات التي أستعيد فيها واحدة من ذكريات الطفولة الأولى.

لقد غادرتِ هذه الدنيا.. دون أن أتمكن من الحضور لوداعك. تلك حادثة مازالت تحز في نفسي. أذكر أنني رثيتك من بعيد بقصيدةٍ صغيرة شجية.

إئذني لي أسجل بهذه المناسبة بعض أبياتها:

رَوَّى ضـــريحك دافــقُ النـــورِ
وســـقتك عـــاطرة الأزاهيـــرِ

أنـــا لـــم أزل طفـــلاً وأغنيـــةً
فـــي منـــزلٍ.. بالحـــب معمـــورِ
وتطيـــرُ فـــي الآفـــاقِ مَلْحَمَتـــي
وأظـــلُّ عنـــدكِ ريـــشَ عـــصفورِ

* * *

قاتلـــــتُ بالكلمـــــاتِ شـــــاردةً
كـــالريح تخفـــقُ، كالأســـاطيرِ
ومضيتُ من غَـسَقٍ إلـى غـسقٍ
وتعبتُ مـن سَـفَري وتهجيـري

وأتيـــــتُ ألقـــــي رأسَ منهـــــدمٍ

في الظـــلِّ تعبـــثُ بـــي مقـــاديري

*   *   *

تبقَيْنَ منديلاً..

يُلوِّح لي

خلف الدروب..

وليلَ مأسور..

تشرين الأول: 2005

*   *   *

زيــارة

إلى رفيق الصبا محمد الحسن
على هامش زيارة مفاجئة

أطَلَّ.. والقريةُ الخضراءُ[1] في دمهِ
وفي دمي..
وطلولُ الأمسِ ترتعشُ
هذا رفيقُ صِبَانا..
حين كان على
طريقنا ألفُ فجرٍ.. والسَّما غَبَشُ

دمشق: 2005/10/6

---

(١) قرية برمانة المشايخ في جبال طرطوس.

بطاقة من بعيد

إلى بدوي الجبل.. حين تَذكَّرْناه..

ويَصْهَلُ البَيَانْ..
في قَطَراتِ الرِّيشةِ النَّشْوَى
علَى الوَرَقْ..
يَنْداحُ كالغَيمةِ حُبْلَى
بِرحيقِ الخُلْدِ،
بالمَطَرْ
لم يَعْرِفِ الوَتَرْ
أَعْذَبَ منه نَغَماً.. ولاَ انْهَمَرْ
أَحْلَى وأَصْفَى..
يَصْهَلُ البَيَانْ
على يَدَيْهِ.. هذهِ قصيدةٌ
يَكْتُبُها نَيْسَانْ
بالعطرِ.. يَنْدَاحُ على الوَرَقْ
شعراً..
يَلُوحُ تارةً جُذُوعَ سِنْدِيَانْ
وتارةً.. رفيفَ أُقْحُوَانْ

هذا الفَتَى المقدودُ من صخرٍ على الجَبَلْ
أَرْسَى..
وقالَ: كنتُ للشعر، ولَمْ أَزَلْ
شَلاَّلَهُ الآتي من الأَزَلْ
في قَطَراتِ الريشةِ النَّشْوَى على الوَرَقْ
يحترِقُ الشَّفَقْ..
قصيدةً خضراءَ، فيها يَصْهَلُ البَيَانْ
ويَنْتَشي بعطرِها نَيْسانْ

* * *

حَفِظْتُهُ طِفْلاً.. تَهجَّيْتُ مَعَ السَّحَرْ
بُروقَهُ ورَعْدَه.. هَلَّلْتُ للمطَرْ
يَسْقِي بِداياتي.. وحينَ آذَنَ السَّفَرْ
شَقَقْتُ لي درباً، وكانَ لِلصَّهيلِ دَرْبُهُ،
إنَّا تَلاقَيْنَا.. على البَيَانْ
يَصْهَرُنا في بَوْحِهِ،
في صَخْرِهِ الرَّاسي على القُلَلْ
يا صخرةَ العُروبةِ المُلْقاةَ في الجَبَلْ
وفي يدَيْها
الشعرُ..
والسماءُ..
والأَزَلْ
سنتلاقَى أبداً في شَهْقَةِ القصيدةِ الخضراءْ
والحبُّ.. والسماءْ

بَيْتانِ مَزْروعانِ في الجَبَلْ
إِليهما سنَنْتَمي.. سَيَنْتَمي البيانْ
وينتشي بِبَوْحِنا نَيْسَانْ

مونتريال - كندا. آب 2005

*   *   *

مصطفى العقاد

كان من ضحايا الانفجار في عمَّان

عُمَرُ المختار [1]!
هل راعَكَ ما
راعَني..؟
والليلُ يَروي النَّبَأَ

أنتَ مثلي لَهْفَةٌ جازِعةٌ
عبقريٌّ..
من بِلادي.. انْطَفَأَ

تشرين الثاني 2005

---

(١) عمر المختار من أروع ما أَبدع مُخرجنا العالمي مصطفى العقاد.

بادية العرب والعجيلي

(في أربعين العجيلي)

صَمتتْ دهراً..
فلمَّا صَهلَتْ
خيلُها.. والفجرُ يحبو في الخِيامْ

قَذفَتْهُ فارساً.. جاءَ على
صَهْوةِ الحرفِ..
اسْمُهُ: عبدُ السلامْ

دمشق - أيار 2006

*   *   *

شريطُ صديقي

عدنان بدر الحلو

قالي لي بشيء من الاعتزاز، لمحتُه في عبارته المقتضبَة على الهاتف: لقد سجلت كل ما قلتَه من زَجَل وقصائد فصيحة في «المشتى».. القرية التي كنتَ تؤثر أنت وأسرتُك الصغيرة أن تصطافوا فيها قبل نيّفٍ وأربعين عاماً. سجَّلتُ كل ما قلتَ من شعر في قريتي الجميلة على الـــ CD.

وأسمع عبارة صديقي.. وتجتاحني رعشةٌ من الحنين إلى تلك الأماسيِّ الحلوة، وسكون الليل، وضوء القمر، في تلك البقعة الخضراء من بلادي، الضائعة بين الأودية، والتلال الساحرة.

كنتُ على مدى ثلاثة أعوام أو أربعة اصطحبُ أُسرتي الصغيرة فعلاً، ونختار تلك البقعة الجميلة التي كان لي فيها الكثير من التلامذة والأصدقاء، ونمضي في المشتى والكفرون شهراً وبعض الشهر من إجازة الصيف.. وأحاول أن أتركَ على كل عين رقراقة، أو صخرة رائعة، قصيدةً أو مقطوعة زَجَل.

كنتُ في الواقع أكتبُ ما تُمليه عليَّ تلك الأماكنُ الساحرة من ريف بلادي.

الشَّمْسُ تَسْحَب عن جَفْني ذوائِبَها..
والليلُ أُغنيةُ المَشْتَى وريَّاها
ويَعْبَقُ الدَّربُ..

أَقداماً موشوشِةً

حُلْوٌ على الصخرة الزرقاء مُرْسَاها

الدربُ.. أَعرفُه شعراً،

ويَعرِفني..

ما تِهْتُ عن عِطْرِهِ يوماً، ولا تاها

ما أَشْعَرَ الليلَ من حولي، وأَرْوَعَهُ!

قصيدةُ الله..

فَانْهَلْ من عَطَاياها

تلك أبيات من قصيدة لي بعنوان: نَرْجيلة بومْخَاييل في قرية «مشتى الحلو»، وما أشكُّ في أنَّ صديقي قد سَجَّلَها فيما سجَّلَ لي من ذكريات.

بَقِيَ أَن أَهمِسَ في أُذْنِ الصديق القديم، شاعرِ المشتى، أنَّ هناكَ مقطوعةً صغيرة لم يسجِّلها في شريطه الغالي علينا معاً، لأني كتبتُها بعد هاتفِه مباشرةً، وأهديتُها له.

أقولُ في البيت الأخير منها:

سَلِّمْ على كل عينٍ.. كنتُ أَكْتُبُها

قصيـــدةً..

وبِجِذْعِ الدلْبِ أَحْفِرُهَا

2006

* * *

خفقة وتر

مهداة إلى الصديق عبد الله الغذامي

على صَبَا نجدٍ..
تلاقَيْنَا.. منَ الأَزَلْ

عَتيقةٌ.. أَوَاصِرُ القُرْبى
بصدرِ الرملِ كانَتْ.
منذ أَنْ كُنَّا..
ولم تَزَلْ..

على صَبَا نجدٍ.. تَعَارَفْنَا..
على بيتَيْنِ.. من مُعَلَّقَةْ

بحرفهِ المُضيءِ.. عِشْتُ
في نشيدي عاشَ..
قَبْلَ أَنْ نُولَدَ.. كُنَّا

في الرمالِ السُّمْرِ لحناً واحداً
بيتَيْنِ من مُعلَّقَةْ..

* * *

على صبَا نجدٍ..
نَظَلُّ قِصَّةً تُرْوَى من الأَزَلْ
وسوف تبقَى أُمُّنَا الصحراءُ
تَحكِيها إلى الأَبَدْ

تَغُورُ في غياهبِ الأرضِ..
وحيناً.. تمتطِي الشُّهبْ
هَيْهاتَ.. هيهاتَ تموتُ
عُمْرُها الأَبَدْ..

فكيفَ لا يُحبُّ عبدُ اللهِ ما أَسْفَحُهُ على الوَتَرْ؟
وكيفَ لا أُحِبُّ ما يُبدعُهُ
صديقيَ الآتي من المَطَرْ..
مِنَ الغَمَامِ البِكْرِ في فَضَائِنا..
مِنَ النُّجُومِ الخُضْرِ في سَمَائِنَا؟

عَتِيقَةٌ.. أَوَاصِرُ القُرْبَى..

عَتيقٌ بيننَا النَّسَبْ
سأكتُبُ الشعرَ كمَا أَهْوَى
بِلا تَعَبْ..
لِجَسَدي الذي تَحَدَّى «مَوْتُهُ» الفَنَاءَ.. لِلْعَرَبْ
وسوف يَرْويني صديقي.. بَعُدَ المَزَارُ أم قَرُبْ

* * *

عَلَى ذُرَا نجدٍ
تلاقَيْنَا.. بِلا لِقَاءْ
وهَزَّنا الحنينُ لِلضَّوءِ
الذي غابَ عنِ السماءْ
غابَ طويلاً.. ورآني أَصْهَرُ الأَبْعَادَ
بحثاً عنهُ..
في قصيدةٍ يتيمةٍ..
في نَبْرَةٍ مؤرَّقَةْ
فكيفَ لا يلتقِطُ النبرةَ، وَهْيَ صَوْتُهُ
المسفوحُ في مَجاهلِ البيدَاءْ؟
وكيفَ لا يَعْرِفُني وأَعْرِفُهْ؟
وأَحْرُفي..
في شَهَقاتي الحُمْرِ أَحْرُفُهْ!

سأكتفي بهذهِ الإيماءةِ المُخَضَّبَةْ
بكل ما أَملِكُ من شِعْرٍ،
وأُهْدِيها لِعَبْدِ اللهْ..

هذا الذي تجري على ريشَتِهِ الحياةْ
فِكْراً مُـضِيئاً.. يَجْعَـلُ الحيـاةْ
أَبْهَى وأَغْنَى.. وعلى نَبْضَةِ حَرْفٍ
نتلاقَى أبداً.. على جناحَيْ نسمةٍ ونغمةٍ.. أَنَا وعبدُ الله

دمشق: 2006/12/17

* * *

إلى صديقتي الصغيرة حلا

على هامش كلماتها الحلوة في صحيفة «تشرين»

تكتـــبُ لي حَـــلاَ
أَنســـابُ في حُروفها خميلةً وجدولا
صديقتي الصغيرَهْ
شاعرةٌ في الكلماتِ الخُضرِ أم أميرة؟
ترشُّني فوق السطور نغمةً
تردُّني طفلاً على «العاصي» مع الصغار يلعبُ
لا يَتْعَبُ الأطفالُ مهما كَبِروا
دعوا السنينَ تَتْعَبُ..
شكراً حَلاَ..
في كل حرفٍ منكِ عُمْرٌ يُعْشِبُ
أكتبُ للأطفالْ
يُبدعني الأطفالْ
تكتُبُ لي حلا..

أَشردُ في حروفها
حُلْماً جميلاً
وبالصغـــار
أَرسُمُ المُسْتَقبلا

ت2 2008

*   *   *

قصيدة الحجر

إلى صديقي النحات الشاب إياد البلال
حين صنع أول تمثال للشاعر

اكتبُ شــعراً ريــشُهُ مــن كــلامْ
يحملنـــي فــوق هــضاب الغمـــامْ
أشعرُ أني قــد عــصرتُ الــسماءْ
في قبضتي..
أصـــــحو.. وكفّـــــي حُطَـــــامْ
يكتبُنـــي قـــصيدةً مـــن حَجَـــرْ
مـــا لامَـــسَتْ قـــطُّ شـــفاهَ الـــوَتَرْ
لكنها..
أخلَدُ من كل ما
قلــتُ فقــد غــرَّدَ فيهـــا الحَجَـــرْ

2007

* * *

بيت من زُرقة البحر

إلى الصديقين الدكتور أسامة عمّار
والدكتورة وفاء، وهما يحدثاننا عن
بيتهما الجديد ﬞ طرطوس

زُرقةَ البحرِ..
جَعَلْنا بيتَنا
والشبابيكُ..
مواويلُ السماءْ
هكَذا قالَ صَديقانا لنا
بيتُنا المنشودُ.. شعرٌ وغِنَاءْ
ونقَشْنا في ذُراه جُملةً:
إِنَّهُ من قَبلِنا للأَصدقاءْ

أيلول: 2009

* * *

عـازف

إلى صديقي الشاعر عبد القادر الحصني

على هامش قصيدة دمشق

بِيَــديْكَ، لا بِيَــدِ النــشيدِ، رَبَابُهــا..
عَزَفَــتْ مُعَلَّقَــةَ الــسماءِ قِبَابُهــا
إِمَلأْ بها كَأْســي تُغَــرِّدْ فــي دمــي:
«هــذي دَمِــشْقُ وهــذهِ أَبوابُهــا»

2009

*   *   *

بضع كلمات

إلى صديقي ياسر المالح

أبو سامر، ياسر المالح، صديقي منذ نَيِّفٍ وأربعين عاماً. وإني لسعيد بهذه الصداقة، ومعتَزٌّ بها..

إنه شجرة متعددة الفروع.. فهو شاعر وكاتب وموسيقي وخطّاط وإعلامي ومتحدث بارع.. يجمع بين هذه المواهب دون أن يترك واحدة منها تطغى على الأخرى، أو تأخذ مداها أكثر من سواها.

كان ذات يوم من كبار المشرفين على البرنامج الشهير: افتح يا سمسم في الكويت. وأشهد أنه هو الذي أصرَّ على أن يكون البرنامج باللغة العربية الفصحى، وفتح بذلك المجال لملايين الأطفال العرب كي يتعلموا لغتهم الجميلة من نعمان وميسون وبدر وأنيس بصورة تلقائية.

قلت لصديقي يوماً: لِمَ لا تكتب شعراً للأطفال، ما دمت تملك كل هذه الإمكانات؟ أجابني ضاحكاً: كتبت لهم عشرات الأناشيد، إذا لم أقل المئات.. ولكني ما زلت أتهيّب نشرها في كتاب، وأحجم عن هذه الفكرة كلما دقت رأسي..

قلت: لابد أن يكون لك ديوان صغير للأطفال، تختار فيه من بين كل ما كتبت أرشق الأناشيد وأجملها. الكتابة للصغار قمة الإبداع في رأيي. وأنت

تعرف تجربتي الطويلة فيها. ابدأ منذ الآن باختيار عدد من أناشيدك، واجعلها في ديوان صغير، يكون بين أيدي الصغار في كل مكان من أرض العرب.

أجابني صديقي: سأفعل، وليكن عنوان كتابي الجديد:

«الطفل يغنّي كلماتي»

على أن تشاطرني العمل في اختيار الأناشيد، فأنت أمير شعراء الطفولة في رأيي.

قلت: سأكون سعيداً أن يكون لي رأي في هذا الموضوع الجميل. وهكذا كان..

فقد جمع صديقي أبو سامر ياسر المالح أناشيده المختارة، وقدَّمها في هذا الديوان الصغير لأطفال العرب الذين سيغنّون كلماته الجميلة في كل مكان.

لن أتحدث عن هذا الكتاب الصغير.

سأترك للأطفال أن يقولوا رأيهم، وهم يغنُّون ويمرحون.

ولكني لابد أن أختم كلمتي المقتضبة هذه بنشيد مُنَمْنَم مقتضَب من هذه الأناشيد يتحدث عن الصحراء، وهو من أناشيد «افتح يا سِمْسِم» فيما أظن.

يقول النشيد المُنَمْنَم المقتَضَب:

ما أجملَ التِّلالْ ... ما أجملَ الرِّمالْ

كأنَّها الحَريرْ ... مِن نَسْمةٍ تَطيرْ

في أرضِنا صَحراءْ ... رِمالُها مَلْساءْ

تُضيءُ بالعَرَبْ

*   *   *

سُهَا.. تترجم شعري

إلى (ابنة البلد) العزيزة سها قياق

سُهَا.. نجمٌ بأعماقِ السماءِ
دنَا مني.. يشعشع
في فَضائي!
يترجمني.. إلى أَهلي
غريباً يا سُهَا.. أصبحتُ عن أهلي
غريباً عن جذوري
وأحملها.. بكل خلية.. وبكلُ
نابضةٍ.. جُذُوري
سُهَا.. نجمٌ دنا مني
وراحَ ببعضِ أوتاري، وأشجاني يغَنّي
وينقُلني إلى الدنيا..
برعشة ريشتي يحيا
وفاجأني النشيدُ الحلُو في الحارة[١]

---

(١) حارة بساتين العاصي... منبت الشاعر.

وكلُّ طفولتي.. حارَة

يُرتِّلُها فمُ العاصي[١]

نشيداً..

لم يَزَلْ غَضاً، وحلواً في فَمِ العاصي

خُذيني يا سهَا نَغَماً تبدَّد كالأساطير

وآلىَ أن يُبشرَ بالقيامةِ، بالأَعاصيرِ

بأرضِ الأنبياء.. وقد غَفَتْ

واستَسلمَتْ للنومِ أرضُ الأنبياء

فهل تُرى تُجدي أعاصيري؟!

وأَرفضُ يا سُهَا، أَنّي وأنتِ

شرارة تمضي

بِلا نارٍ.. بِلا وَمْضِ

يُحرِّك هذه الدنيا..

لماذا كانت الدنيا

إذا لم تَحْيَ في دَمنا..

ومِلْءَ عُروقها نحَيَا؟!

دمشق: 2010/8/15

---

(١) نهر العاصي الذي يمر قريباً من بيت الشاعر.

إلى الصديق

الأستاذ محمد قره صو في أنطاكية

أنجز الوعدَ[١] صديقي قَرَه صــو!
كامــل الــشكر لـــه، لا يــنقصُ..
مــن تــرى سـماه مـــاءً أســـوداً؟
هو عذبٌ، ســـائغٌ، لا قـــره صـــو

نيســان 2010

(١) ترجمة كتاب الحنين.

الوردة الحمراء

في عيد الحب إلى الصديقة إلهام

في العيدِ، عيدِ الحبِّ،
كانَ الوقتُ في اْفترارةِ الصَّباحْ
جاءَتْ إلينا.. تحمِلُ الصَّبَاحْ
في يَدِها..
جاءَتْ إلينا بَسمةً، ووردةً حمراءْ
كقَطْرَةِ الضِّياءْ..
صديقةٌ.. تُحِبُّنا.. نُحِبُّها..
كما تَشاءُ الوردةُ الحمراءْ
وقَطرةُ الضياءْ..
كما يَشاءُ الشعرُ والأنغامْ
كانَ اسْمُها إلهامْ..
وهذهِ وردتُها شاخصةً أَمامي
تَرمُقني، تقولُ لي شعراً بلا كلامِ
لابُدَّ أَنْ أُسَجِّلَ الذكرى.. ولو بنقرةٍ على الوَتَرْ
لابُدَّ أَن تَقُولَ شكراً نَقرةٌ على وَتَرْ..

دمشق: شباط 2010م

همس النور للنور

الأخ والصديق د صباح قباني

على هامش كتابه الجديد: كلام عبر الأيام

إن أحرقتنا القوافي
في مجامرها..
وبعثرتنا..
شظايا في الجماهيرِ
فقد تربَّعتَ
عرشَ الشعر.. تبدعه
بلا ضجيجٍ..
كهمس النور للنورِ.

دمشق 2010/9/4

*　　*　　*

هاتف من المغرب

إلى السيدة التي هتفت للشاعر تشكره
على «أنشودة المغرب»[١]

سَـــيِّدتي، مَغْرُبُـــكِ الـــساحرُ
فـــي دمـــه يَحمِلُـــه شـــاعِرُ
أُغْنِيتـــي فـــوقَ الحـــدودِ التـــي
أَقامَهـــا الـــرادعُ والزاجِـــرُ

البَـسْمةُ الحلـوةُ لـي مَـوْطِنٌ
ومِنْ رُبُـوعي الحَـوَرُ الآسِـرُ
وفي يَميني الشمسُ آتـي، ولا
آتي «إِذا مـا هَجَـعَ الـسامرُ»
أَسـقُطُ كالعاصـفِ لا كالنَّـدى
بِحُلْـمِ أَجيـالٍ.. أَنـا الطـائرُ
أُغنيتـي الـدهرُ فـلا أَوَّلٌ
لِنبـرةِ العُـودِ.. ولا آخِـرُ

سَـيِّدتي.. نَبْـضُكِ فـي رِيـشَتِي
وفـي دمـي.. مَغْرِبُـكِ الـساحرُ

10 آذار 2010م

(١) «أنشودة المغرب» شعر سليمان العيسى.

لِمَ يرحلُ الوردُ؟

إلى العزيزة.. أم نارا

كوليت الخوري، همسة عزاء

لِمَ يَخْطفُ المــوتُ النَّــضارةَ والــصِّبَا؟
لِمَ، فَجـــأةً،
تَعْـــرَى مــــن الزَّهـــرِ الرُّبـــا؟
لِـــمَ يقـــصفُ القَـــدَرُ العَتِـــيُّ قلوبَنـــا؟
لِمَ يرحَلُ الوَرْدُ؟
لِمَ يَلتقي فـــي مُقْلَتَينـــا الـــدمعُ والـــسُّهْدُ؟
يـــا أُمَّ نـــارا.. كيـــف تَرْحَـــلُ نـــارا؟!
إِني أُشاطِرُكِ الأَسى..
قَهَّارا..

دمشق: 2010/2/22

*   *   *

كُلُّهم حولي

وفد نيلوفر في بيتي

لم يَزَلْ في بَلَدي لِلْكَلِمَةْ
سِحْرُها..
كانت حياتي كَلِمَةْ
الَصبايا والشبابْ
والحكاياتُ العِذابْ
كُلُّهمْ حولي.. لأجل الكَلِمَةْ
وأُغَنّي.. وأنا بعضُ حُطَامْ
إنما الشِّعرُ كلامْ
هو بين اللهِ والأرضِ نِداءْ
يَصلُ الأرضَ بأسرار السماءْ
الَصَّبايا والشَّبابْ

والحكاياتُ العِذابْ

كُلُّهم حولي.. وأهلاً بالطفولةْ!

نَثَرتْ «نيلوفرٌ»[1] حولي الطفولَةْ

كيف لا أُورِقُ أشعاراً وأَلحاناً جميلَةْ؟!

2010/3/11

*　　*　　*

---

(١) مجلة نيلوفر للصغار.

صَدِيقايَ الصغيران

أوس وجبران

صــديقايَ الــصَّغيرانِ … بِبَيتــي اليــومَ زارانــي
هُمَـا فــي البيــتِ عُـصْفُورانِ … قــد شُــغِفَا بألحــاني
وَمَـا شــكلي؟ ومــا لَــوْني؟ … أَظُنُّهمــا يُريــدانِ

* * *

أَنَــا الطفــلُ الــذي عُمْــري … علــى التــسعينَ أَرســاني
وقــد أَعطَيْــتُ للأَطفــالِ … أَشــعاري وديــواني
فــأهلاً بالــصديقين اللَّــذَيْنِ … اليــومَ جــاءَاني
صــغيراً مــثلكم ســأظَلُّ.. … يــا أَزهــارَ بُــستَاني
صــغيراً مــثلكُم.. أختــارُ … أبيــاتي.. وأَلْــواني..
ويــا مَــنْ عِــشتُمُ أَبــداً … رُؤًى خُــضْراً بأَجفــاني
على شــفَتَيْ صِـغاري سـوفَ … أَبــدأُ عمــريَ الثــاني

حزيران: 2010

صديقي زاهر

إلى الشاعر الصديق زاهر أبو حلا

هو شـــاعِرٌ..
لِنَدَعْهُ والخَطَرَ الذي أَسْرَى لَهُ، واختَارَهُ،
خَطَرَ الغِنَاءْ..
أَنَا لستُ أَعرِفُ مِهْنَةً
أَشْقَى.. وأَمْتَعَ..
لَسْتُ أَعرِفُ..
إِنَّها في عُرْفِهِ، في عُرْفِنَا سِرُّ البَقَاءْ
لِنَدَعْهُمَا..
هُوَ واللَّهيبُ الحُلْوُ..
يَصْطرعانِ..
ما جَدْوَى الوُجُودِ بِلاَ وَتَرْ؟
يَفْنَى بِدَنْدَنَةٍ..
لِيَمْسَحَ بعضَ أَوجاعِ البَشَرْ..

*　*　*

على ضفَّة العاصي، في حمص، والعاصي رفيقُ طفولتي، لقيتُهُ أولَ مرة؛ لَقِيَني زَخَّةَ مطر، أَجَلْ زَخَّةَ مطر. في دقائقَ.. تحدَّثَ عن حبه العاصفِ لي، عن المفاجأَةِ الحلوة التي جَمَعتنا، عن الشعرِ ــ وكنا في مهرجانِ شعر ــ، عن محاولات التجديد، عن النَّغمَ الجديد المبتكَر الذي أدخلتُه أنا ــ في رأيه ــ على بحور الشعر التقليدية، عن شاعرنا الكبير سعيد عقل، ولقائنا في مهرجان أبي شبكة بلبنان،... كل هذا صَبَّه كزَخَّة المطر في دقائقَ معدودة... وأشهد أني أَحْبَبتُ منذُ الدقائق الأُولى، هذا الشابَّ المتوقد الحميم زاهر أبو حلا، وكانَ في حديثه، وحَرَكاتِ أصابعه، ونَبَراتِ صوته المتلاحقة، ومَرَحِه، كان في كل هذا شاعراً، قبل أن أقرأَ أو أسمعَ بيتاً واحداً من شعرِه...

وتقَعُ الآن مجموعةٌ صغيرة من شعره بين يديّ..

وافتحها بسرعة.. أريد أن أعرفَ ماذا يقول هؤلاء الشبابُ المتمردون حين يكتبون؟

وكلٌّ متمردٍ من الشعراء صديقي؛ إني مع كل محاولة تريد أن تفتح نافذة، ولو حَطَّمتَ المحاولةُ أَصابَعها، وأَقرأ...

صديقي يريد أَن يقولَ شيئاً بطريقة خاصة.. خاصة جداً.. لا بأس. ولكن هل تمرَّد كلياً على التراث؟ هل انخلعَ عن الأَصالة التي نحرص عليها؟ أحرص عليها أنا شخصياً..

لِنقرَأَ له هذين البيتين - لا على التعيين - من قصيدة صغيرة بعنوان: القصيدة المشتاقة:

هَذِي القَصِيدةُ.. هَلاَّ تَذْكُرين؟ غَلَتْ
بِمَطْلِعِ زَانَها..
إِذْ كنتِ أَنتِ هُنَا

تُرى ستَنهى

وسَمْعٌ منكِ يَقْطفُها؟
ويَسْعَد الحرفُ منها
أَنْ بِكِ افْتُتِنَا؟

وأسارِعُ فأعترِف أَنَّ صديقي كانَ في صميمِ الأَصالة، أَصالةِ اللغةِ والشعرِ والتراث. فالبيتان من البحر البسيط، وهو من أشهرِ بحور الشعر المعروفة، ويحملان النغمةَ نفسَها في بيت المتنبي الذي نحفظُه جميعاً:

الخيلُ والليِّلُ والبَيداءُ تَعرِفُنـــي والسيفُ والرمحُ والقِرْطاسُ والقَلَمُ

واللغةُ سليمة، وجميلة، ومُشرقة لا خَلَلَ فيها، والنبضُ هو النبضُ الشعري الحي.. كل ما في الأمر أن الشاعر الصديق كتب البيتين موزعَيْن على عدة أسطر، ولم يكتبهما في سطرين، كما تعوَّدنا أَن نقرأ.

لن أقفَ عند بقية القصائد.. سأكتفي بهذا الشاهد، وأترك لغيري أن يتابع هؤلاء الشباب بحبٍّ ووعي، لا بجمود وانغلاق.. وأنا متفائل بالآتي.. كلُّ الأَمل في أَجيالنا الآتية.

أَتُراني أخطأتُ حين حاولتُ أَن أكون شاعرَ طفولةٍ وأطفال؟!

دمشق: 2010/1/16

* * *

تقديم خاطف

لديوان من الزجل للصديق الأستاذ كمال كرم

أناملي ترتعش..
ما أكاد أُمسكُ بالقلم.. لأخطَّ كلمةً.
أنا في ظروفٍ صحية... بالغةِ الصعوبة..
أُحوِّمُ في الآفاق شرقاً ومغرِبَا
وأعطي خيالي..
في السماواتِ مَضْرِبَا[١]
ويَعْجزُ جسمي أَن يقومَ مُسَلِّماً
على الضيفِ إِمَّا زارني ومُرَحِّبَا

وفي هذه الظروفِ الصحية..
البالغةِ الصعوبة..

يهتف إليَّ الصديقُ العزيز، المحامي الشاعر، الأستاذ كمال كرم، يريدُ مني أن أكتب مقدمةً لديوانه الذي أَعَدَّه للطباعة..

---

(١) المَضْرِب: الخيمة.

إنني أحبُّ أصدقائي.. ولا سيَّما من كان منهم في رقة كمال كرم، وشاعريته ولا أستطيعُ أن أرفضَ لهم طلباً.. مهما كانت ظروفي.. الديوان شعر.. ولكنه من الزَّجَل.. وأنا أُحبُّ الزَّجَل.. وأكتبه وأغنّيه منذ الطفولة.. ولي معه قصةٌ لابدَّ أن أمرَّ عليها بإيجاز.

*   *   *

قليل من الأصدقاء من يعرف أنني أجيد العزف على الشبَّابة، شبَّابةِ الراعي البسيطة ــ تُسمَّى في لبنان المنجيرة ــ وكنتُ منذ الصِّبا الأول، اكتب الأزجال من ميجانا وعتابا وسواها وأعزفها على شبابتي..

وكنت وعددٌ من رفاقي الشباب، وكلهم شعراء، نطوف القرى في جبال اللاذقية، ونحْضُر أعراسَ الفلاحين، ونغنّي، ونرقصُ معهم «الدبكة» التي كنا نجيدها مثلهم، وكنتُ أذيعُ بينهم «أزجالي» الجديدة، وما يزال الكثيرون منهم يحفظونها، ويرددونها حتى الساعة:

لَحْظَــــكْ.. يـــا ريـــم الـــوادي
سَـــــــــــكْرَة وِقْـــــــــــدَاحْ
لا شِــــــعْري وْلاَ إِنـــــشادي
وْلاَ طِيــــــــبْ الـــــــــراحْ

*   *   *

خَلِّيــــــه عاكِتْفِـــــكْ مايِـــــلْ
صَــــــــــفّْ جْـــــــــدَايِلْ!
يْمِـــــروُّ طْيُـــــور الأَصـــــايِلْ
يِعْلَـــــقْ لُـــــو جْنَـــــاحْ

*   *   *

أَمَّا لماذا لم أجمع هذه «الأزجال» أو أهتم بتدوينها في يوم من الأيام.. فهذا ما لا أستطيعُ الإجابةَ عنه حتى الآن؟

* * *

لقد كانت «زجليات» شوقي التي غناها عبد الوهاب في شبابه من أجمل ما كتَبَ - في رأيي -. لقد كان يملؤني نشوةً، وهو يصفُ إشراقة الفجر الأولى، في هذا المقطع الساحر الذي يصدح به عبد الوهاب:

إلفَجـــــرْ شَقَـــشَقْ وفــــاضْ

علـــــى سَـــــوَاد الخميلَـــــة

لَمَـــــحْ كَلَمْـــــح البيـــــاضْ

مــــنِ العُيـــــون الكحيلَـــــة

والليـــلْ سَـــرَحْ فـــي الرِّيـــاضْ

أَدْهَـــــمْ بِغُـــــرَّة جميلَـــــة

* * *

أَمَّا الزجَل في لبنان فقد بلغ ذروة الشعر العالي على يد مبدعيه الكبار من مثل سعيد عقل، والرحابنة، وطراد، وطلال حيدر وغيرهم.

وما يزال صوت فيروز السماوي ينقل إلينا كل صباح أجمل ما أبدعه الشعر وأحلاه... - زَجَلاً كانَ أو فصيحاً -.

ضِجْرِتْ خصُور الوردْ من لَـمّ النِّــدِي

والطَّيْر وَعَّى الزنبقَــة البيــضا وْهِــدِي

هل هناك «لغة شعرية» أجمل وأحلى؟

ويكاد سعيد عقل يلخص لنا فلسفة العمر في هذا الشطر:

مـــشْوارْ جينـــا عالـــدِّني مـــشوارْ

* * *

والآن.. انتقل إلى الحديث عن صديقي العزيز كمال كرم وديوانه الجديد، وأرجو أن أكون موجزاً، وواضحاً، ما استطعت.

* * *

على شرفة خضراء، تطلُّ على عالم من الجمال، جمال الطبيعة وسحرها، في فندق «فرنسيس»[1] الذي تعودت أنا وزوجتي الدكتورة ملكة أبيض أن نهرب إليه من أتعابنا بعض الوقت، على هذه الشرفة تعرَّفتُ - فيما أذكر - صديقي المحامي الشاعر كمال كرم. ولم يكن يدور في بالي أن هذا الرجل الهادئ الرصين يحمل في بُرديه شاعراً «زَجَّالاً» أرقَّ من نسمة الصيف التي كانت تداعبُ وجوهَنا آنذاك.

ويسحبُ صديقي ورقةً بيضاء من جيبه، ويطلب إليَّ - أنا الشاعر الكبير - في رأيه أن يُسمعني بعض شعره. وأستجيب للطلب بسرور بالغ، ويأخذ كمال في قراءة قصيدة من الزَّجَل بعنوان «عْيُونِكْ». العنوان وحده يجذبكَ للسماع، فكيف إذا كان الشعر من مستوى هذه «العيون» الجميلة الآسِرة التي يتحدث عنها؟

وأشهد أني بقيتُ مشدوداً إلى هذه «النفحة» الشعرية البديعة حتى آخر بيت منها. ولكني منذ المقطع الأول شعرت بل أيقنتُ أني أمام شاعر، يعرف كيف يُمسك بأجنحةِ الفراشات الملوَّنَة ويحوّلها إلى شعر - زَجَلاً كان أم فصيحاً، لا يهم! -

أذكر أني أبديتُ متعتي التامة بما سمعتُ، وسجلت له فيما بعد على قُصاصة صغيرة من الورق انطباعي، قائلاً، بلغة الزَّجَل أيضاً:

بُوعاصـــــم.. فاجَـــأْني أَمـــــسْ
وراحْ يِقْرالـــــــــي قَـــــــصيدِة

---

(١) الفندق في قرية عمار الحصن.

سِــمْعتْ نْجُــومْ بْــتِهمسْ هَمْــس
وتِنْـــــسجِ كلْمــــاتْ جْديـــــدِة

وأغلبُ الظن أن «بوعاصم» ما زال يحتفظ بالقُصاصة وبالرأي.. حتى الآن.

*   *   *

وأعود الآن إلى «أَجنحة الفراشات الملوَّنة» إلى الديوان. ويستوقفني العنوان قبل كل شيء: مجيز، وأسأل عن معنى الكلمة، أنا ابن الريف الذي لا تفوته كلمة ريفية.. وإذا معناها عناقيد العنب التي ما تزال في أول نضجها. الشاعر يتواضع، ويعجبني تواضعه.. ولكن ماذا يمكن أن نسمي هذا المقطع الجميل من قصيدة: حكاية عشق؟

بِشْحَدْ من الطُّرقات شــي خَطــوِه
مــن فيِّـــة الحيطـــان شـــي دَروِه
بِــسأَلْ عانــسمِة صَــحِّت الغفــوِه
بِـــسأَل عاشِــفِّة مزيَّنـــي بْبـــسمِةْ
دَوِّر عاخـــصر بْيِـــسكر بْنَغمــــةِ
بِـــسأَل عاتطليعـــةْ ســحر بعيــونْ
ديَّـــات بيخبُّـــو الــــدَّفا بْكَـــانونْ
بِنْطُر أنـــا دقـــة عطَــش عالبـــابْ
وعيونْ عم تكتــب حلــم بِكْتَـــابْ

هل هناك عُنقودٌ أحلى وأنضج في كرمة الشعر؟

سأتجاوز العنوان الذي اختاره صديقي لمجموعته، وأسمي مجموعة الزَّجَل الذي بين يدي: «ديوان عْيونِكْ..» أول قصيدة سمعتُها من الشاعر.

ولو لم يوافقني على رأيي غير «صاحبة العيون» التي قيل فيها الديوان. أَليسَ هذا كافياً.. يا أخي كمال؟!

* * *

لن أقف طويلاً عند قصائد الكتاب. سأتركُ للقارئ أن يُمتع نفسه ما شاء له الإِمتاع.. بلا تدخُّلٍ ولا محاولةِ إِقناع. ولكن لابد أن أسأل صديقي الشاعر. لماذا آثر بحراً واحداً من «بحور الزجَل» - وهي كثيرة - في معظم قصائد الديوان؟

كان يستطيع - وريشته قادرة - أن يلوّن أنغامه بمختلف الأوزان. كما فعل في مطلع الكتاب.. وإن كان هذا لا يُنقص «عناقيده» الجميلة شيئاً من حلاوتها.. ونُضجِها.

دمشق: 12 نيسان 2010م

* * *

أحمد بخيت

شاعر مصر القادم

وسمِعتُهُ يوماً[١]..
كما انحدرَ الصَّفا
من رأسِ شاهقةٍ.. لِقلبِ الوادي
الكَرْمُ يَزْخَرُ
بالعناقيد التي
سكِرَتْ بهِنَّ أصالةُ الأَجدادِ

مِنْ «سيرةٍ ذاتيةٍ لحذائِهِ»[٢]
يُروي الصَّدى
بغنائِه..
والصادي

2010

(١) في مهرجان شعر بدار الأوبرا.
(٢) شطر بيت اللشاعر.

يا جارة النبع

من قصيدة

«رأس النبع.. ساقية حلوة في مدينة بانياس على الشاطئ السوري: تغلغلت بين البساتين، وراحت تنقل أسرار الجبل إلى البحر. اعتاد الشاعر أن يسرق ساعة من سفره كلما مر بالشاطئ الجميل، ويلتقي مع العرائش والظلال على رأس النبع السخي مهداة إلى الصديقة (يمن الأعسر)»

يـــا جـــارةَ النّبْـــعِ.. فـــي عينَيْـــكِ رِقّتُـــهُ
عنـــدَ الغُـــروبِ.. وفـــي عَيْنَـــيَّ شـــكواهُ
تَحْنـــو الـــدَّوالي عَلـــى شَـــطَّيْهِ ظامِئَـــةً
فَتُغْـــدِقُ الـــنّغَمَ المـــسْحورَ كَفّـــاهُ
لا تَـــسْألي عَنْـــهُ.. فَجْـــرُ الـــدّهْرِ مَوْلِـــدُهُ
وقِـــصّةُ الأَزَلِ المَنْـــسيِّ نَجْـــواهُ
تَنَهَّـــدَتْ صـــخْرَةٌ سَـــمْراءُ فـــانْفَجَرَتْ
قَـــصيدَةٌ مـــن بِـــلاَدي.. قالَهـــا اللهُ

بَريئَـــــةٌ كَـــــدُموعِ الطِّفْـــــلِ، صـــــافيةٌ
مَـــرَّتْ عَلـــى البَحْـــرِ فـــاحْلَوْلَى جَناحـــاهُ
يـــا جـــارةَ النَّبْـــعِ.. يُمْنـــاهُ عَلـــى جَبَلـــي
وفـــــوقَ مـــــوجتيَ الزرقـــــاءِ يُـــــسْراهُ
تُبَـــــرِّدُ الـــــشمسُ خَـــــدّيْها إذا تَعِبَـــــتْ
بِقُبْلَتَـــــينِ.. وتُغْويهـــــا عَطايـــــاهُ
وضاعَ فـي الأَخْـضَرِ الغـافي عَلـى يَـدِهِ
كالـــسرِّ فـــي شَـــفَةٍ لميـــاءَ نَخْـــشاهُ
تَعَـــوَّدَتْ شـــفتي كأســـاً مُعَطَّـــرَةً
وســـاعةً مـــنْ شُـــرودٍ فـــي زوايـــاهُ
أَلْقـــي عليـــه هَجيـــري.. كُلّمـــا عَبَـــرَتْ
بـــيَ الـــدّروبُ.. وأسْـــتَهْدي برَيّـــاهُ
وأغمـــسُ الرّهَـــقَ الـــصّادي بهَيْنَمَـــةٍ
كأنّمـــا خَبّأَتْهـــا لـــي حَنايـــاهُ
بَيْني، وبَـيْنَ حَـصاهُ، فـي الهـوى نَـسَبٌ
الـــشّاعرانِ: تـــسابيحي وحَـــصباهُ
ومـــا مَـــلأْتُ عَلـــى ألحانـــهِ قَـــدَحي
إلاّ تَحَسَّـــسْتُ فـــي صَـــدْري حُمَيّـــاهُ
تَفْنـــى القُـــرونُ علـــى أسْـــوارِ جيرتِنـــا
مَهْمـــا اغْتَرَبْنـــا.. ويَهْـــواني، وأهْـــواهُ

شباط 1964

سليمان العيسى في سطور

- ولد الشاعر سليمان العيسى عام ١٩٢١م، في قرية النُّعيرية ــ حارة بساتين العاصي - الواقعة غربي مدينة أنطاكية التاريخية على بعد عشرين كيلو متراً.
- تلقى ثقافته الأولى على يد أبيه المرحوم الشيخ أحمد العيسى في القرية، وتحت شجرة التوت التي تظل باحة الدار، حفظ القرآن، والمعلقات، وديوان المتنبي، وآلاف الأبيات من الشعر العربي، ولم يكن في القرية مدرسة غير (الكُتَّاب) الذي كان في الواقع بيت الشاعر الصغير، والذي كان والده الشيخ أحمد يسكنه، ويعلّم فيه.
- بدأ كتابة الشعر في التاسعة أو العاشرة. كتب أول ديوان من شعره في القرية، تحدث فيه عن هموم الفلاحين وبؤسهم.
- دخل المدرسة الابتدائية في «مدينة أنطاكية» - وضعه المدير في الصف الرابع مباشرة - وكانت ثورة اللواء العربية قد اشتعلت عندما أحس عرب اللواء بمؤامرة فصله عن الوطن الأم سورية.
- شارك بقصائده القومية في المظاهرات والنضال القومي الذي خاضه أبناء اللواء ضد الاغتصاب وهو في الصف الخامس، والسادس الابتدائي.
- غادر لواء الإسكندرونة بعد سلخه ليتابع مع رفاقه الكفاح ضد الانتداب الفرنسي، وواصل دراسته الثانوية في ثانويات حماة واللاذقية ودمشق.

وفي هذه الفترة ذاق مرارة التشرد وعرف قيمة الكفاح في سبيل الأمة العربية ووحدتها وحريتها.

- دخل السجن أكثر من مرة بسبب قصائده ومواقفه القومية.
- شارك في تأسيس البعث منذ البدايات وهو طالب في ثانوية جودة الهاشمي بدمشق - كانت «التجهيز الأولى» في ذلك العهد - في أوائل الأربعينيات من القرن الماضي.
- أتم تحصيله العالي في دار المعلمين العالية ببغداد، بمساعدة من العراق الشقيق.
- عاد من بغداد وعين مدرساً للغة والأدب العربي في ثانويات حلب.
- بقي في حلب من سنة ١٩٤٧-١٩٦٧م، يدرِّس ويتابع الكتابة والنضال القومي.
- انتقل إلى دمشق موجهاً أول للغة العربية في وزارة التربية.
- كان من مؤسسي «اتحاد الكتاب العرب» في سورية عام ١٩٦٩م.
- متزوج له ثلاثة أولاد: معن، وغيلان، وبادية [معن طبيب جراح، غيلان مهندس طيار مدني، بادية طبيبة باثولوجيا].
- يحسن الفرنسية والإنكليزية إلى جانب لغته العربية، ويلم بالتركية.
- زار معظم أقطار الوطن العربي وعدداً من البلدان الأجنبية.
- اتجه إلى كتابة شعر الأطفال بعد نكسة حزيران عام ١٩٦٧م.
- شارك مع زوجته الدكتورة ملكة أبيض في ترجمة عدد من الآثار الأدبية، أهمها آثار الكُتّاب الجزائريين الذين كتبوا بالفرنسية (زوجته ملكة أبيض دكتوراه دولة من فرنسا وأستاذة في جامعة دمشق وجامعة صنعاء).
- شارك مع زوجته وعدد من زملائه في ترجمة قصص ومسرحيات من روائع الأدب العالمي للأطفال.
- في تشرين الأول (أكتوبر) 1982 حصل على جائزة «لوتس» للشعر من اتحاد كُتّاب آسيا وأفريقيا.

- وفي عام ١٩٩٠م انتخب عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق.
- في عام ٢٠٠٠م حصل على جائزة الإبداع الشعري، مؤسسة البابطين.

أ - أهم أعمال الشاعر:

١ - الأعمال الشعرية (في أربعة أجزاء) عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت - الطبعة الأولى 1995م.

٢ - على طريق العمر: معالم سيرة ذاتية، عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى 1996م.

٣ - الثمالات - بأجزائها الثلاثة - الهيئة العامة للكتاب، صنعاء، ٢٠٠١م.

٤ - الكتابة بقاء، مؤسسة الإبداع، صنعاء، ٢٠٠٢م.

٥ - ثمالات ٤، وزارة الثقافة - صنعاء، ٢٠٠٤م.

٦ - الديوان الضاحك (جزءان)، وزارة الثقافة - صنعاء، ٢٠٠٤م.

٧ - وأكتب (قصائد صغيرة لي ولها)، وزارة الثقافة، صنعاء، ٢٠٠٤م.

٨ - كتاب الحنين، وزارة الثقافة - دمشق، ٢٠٠٥م.

٩ - ثمالات ٥، وزارة الثقافة - صنعاء، ٢٠٠٦م.

١٠ - باقة نثر، دار طلاس - دمشق، ١٩٨٣م.

11 - همسات ريشة متعَبة، دار الحافظ - دمشق 2007.

12 - رحلة كفاح (قصة حياة سليمان العيسى وملكة أبيض)، دار الحافظ، 2007.

13 - الديوان الضاحك موجزاً، الهيئة العامة للكتاب، دمشق، 2009.

14 - كي أبقى مع الكلمة، الهيئة العامة للكتاب، دمشق، 2009.

15 - السفر الجميل (مختارات من الثمالات)، تحت الطبع.

ب - مجموعات شعرية مستقلة:

١ - حب وبطولة (مختارات)، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٠م.

٢ - موجز ديوان المتنبي، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٠م.

٣ - ديوان الجزائر، وزارة الثقافة - الجزائر، ١٩٩٥م.

٤ - ديوان فلسطين، دار فلسطين، دمشق، ١٩٩٦م.

٥ - المرأة في شعري، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٩٩٨م.

٦ - ديوان اليمن، صنعاء، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٩م.

٧ - أوراق من حياتي، بالعربية والفرنسية، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٣م.

٨ - ديوان عدن، جامعة عدن، ٢٠٠٤م.

٩ - ديوان صنعاء، وزارة الثقافة - صنعاء، ٢٠٠٤م.

١٠ - دمشق حكاية الأزل، وزارة الثقافة - دمشق، ٢٠٠٤م.

١١ - من رحلة الظمأ، وزارة الثقافة - صنعاء، ٢٠٠٤م.

١٢ - أنا وحلب، وزارة الثقافة - دمشق، ٢٠٠٦م.

١٣ - أنا وساحلنا العربي السوري، وزارة الثقافة - دمشق، ٢٠٠٦م.

١٤ - ديوان لبنان، وزارة الثقافة - دمشق، ٢٠٠٦م.

١٥ - أنا ومصر العربية، (طبع في مصر) 2006.

١٦ - أوراق المشتى، 2006.

١٧ - أنا وجزيرتنا العربية، (طبع في الرياض) 2007.

١٨ - دمك الطريق (عمر المختار)، صدر في الجماهيرية الليبية 2007.

١٩ - أنا ودمشق، دار الحافظ، دمشق، 2008.

٢٠ - أنا والقدس، الهيئة العامة للكتاب، دمشق، 2009.

٢١ - ديوان العراق، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2010.

٢٢ - كتاب اللواء، تحت الطبع (في صنعاء).

جـ - أهم أعماله للأطفال:

الشعر

١ - ديوان الأطفال، دار الفكر - دمشق، ١٩٩٩م.

٢ - فرح للأطفال، دار الحافظ - دمشق، ٢٠٠٦م.

٣ - مسرحيات غنائية للأطفال، دار الشورى - بيروت، ١٩٨٠م.

٤ - الشيخ والقمر (مسرحية)، دار طلاس - د مشق، ١٩٨٧م.

٥ - قصائد للأطفال، مكتبة لبنان - بيروت، ١٩٨١م.

٦ - أغاني النهار، مكتبة لبنان - بيروت، ١٩٨٦م.

٧ - أغاني المساء، مكتبة لبنان - بيروت، ١٩٨٦م.

٨ - كتاب الأناشيد (جزءان)، يضم الجزء الأول ٢٠٠ نشيد ملحن، مع نوطاتها الموسيقية، بالاشتراك مع كامل القدسي (قُرابة نصف أناشيده لسليمان العيسى).

ويضم الجزء الثاني اللوحات الغنائية والموشحات مع نوطاتها الموسيقية، وزارة التربية - دمشق.

٩ - كلمات خضر للأطفال، وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٠٥م (بالعربية والفرنسية).

١٠ - أغاني الحكايات، أبو ظبي، ٢٠٠١م.

١١ - أحكي لكم طفولتي يا صغار، دار الحكمة لندن، ١٩٩٣م (بالعربية والإنكليزية).

أحكي لكم طفولتي يا صغار، الجزائر، 2001م (بالعربية والفرنسية).

١٢ - ما زالوا الواحة، اتحاد الكتاب العرب - دمشق، ١٩٨٥م.

13 - أراجيح تغني للأطفال، دبي، 2009.

14 - حدائق الكلمات، بيروت، 2009.

النثر

١ - شعراؤنا يقدمون أنفسهم للأطفال، دار الآداب - بيروت، ١٩٧٨م.

٢ - وائل يبحث عن وطنه الكبير، قصة نثرية نشرت في «أوراق من حياتي»، بالعربية والفرنسية، وزارة الثقافة - دمشق، ٢٠٠٣م.

٣ - قصص نثرية من التراث: لبيكِ أيتها المرأة، الحَدَث الحمراء، ابن الصحراء، دار الآداب، بيروت.

٤ - قصص مزيج من الشعر والنثر: الفرسان الثلاثة، وضاح وليلى في وطن الجدود، سِرْب البجع الأبيض، دار الأهالي - دمشق.

٥ - قصتان من ألف ليلة وليلة، علي بابا والأربعون لصاً، وعلاء الدين والفانوس السحري، مكتبة لبنان - بيروت.

القصص المعرّبة

١ - قصص بهيجة (٢٧ جزءاً) دار طلاس - دمشق (بالاشتراك مع بهيج البدين).

٢ - كل يوم حكاية (٢٨ جزءاً)، دار طلاس - دمشق، بالاشتراك مع صلاح مقداد.

٣ - لكل حكاية لعبة (١٠٠ قصة قصيرة)، دار طلاس - دمشق، ١٩٩٤م، بالاشتراك مع صلاح مقداد.

٤ - شجرة ندى (مجموعة قصص قصيرة)، دار الفكر - دمشق، ١٩٩٤م، بالاشتراك مع صلاح مقداد.

٥ - أحلى الحكايات (١٠ قصص)، دار يمان - عمَّان، بالاشتراك مع د. ملكة أبيض.

٦ - سلاسل عديدة هي:

الحديقة المعلقة، قصص يحبها الجميع، يُحكى أنَّ، حكايات الجني المرح، حكايات السلحفاة، حكايات ملوّنة، روائع من القارات الخمس، مسرحيات

عالمية للأطفال؛ دار الفكر ــ دمشق، بالاشتراك مع الدكتورة ملكة أبيض زوجة الشاعر، قصص وحكم من قديم الزمان، وحكايات من تراث الأمم، دار الحافظ، دمشق، بالاشتراك مع د. ملكة أبيض.

د - ما ترجم له:

١ - الفراشة وقصائد أخرى: نقلتها إلى الإنجليزية الشاعرة برندا ووكر، دار طلاس، دمشق ١٩٨٤م.

٢ - رائحة الأرض: نقلها إلى الفرنسية الشاعر اتاناز فانشيف دو تراسي، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٧م.

٣ - الشجرة: ديوان شعر للأطفال، ترجم إلى الروسية وصدر في موسكو ١٩٨٤م.

٤ - أحكي لكم طفولتي يا صغار: نقله إلى الإنكليزية عبد الله كامل، وصلاح مقداد، صدر عن دار الحكمة في لندن ١٩٩٣م.

٥ - أحكي لكم طفولتي يا صغار: نقلته إلى الفرنسية الدكتورة ملكة أبيض، طبع في الجزائر - العاصمة - ٢٠٠١م، وفي وزارة الثقافة بدمشق ضمن «كلمات خضر للأطفال»، ٢٠٠٥م.

6 - وائل يبحث عن وطنه الكبير، نقلته إلى الفرنسية د. ملكة أبيض ضمن «أوراق من حياتي»، ٢٠٠٣م.

7 - قصائد مختارة: نقلتها إلى الفرنسية الدكتورة ملكة أبيض بالتعاون مع مبروك مبارك، وزارة الثقافة - صنعاء ٢٠٠٤م.

٨ - اليمن في شعري، وزارة الثقافة - صنعاء، ٢٠٠٣م، ترجمته إلى الفرنسية د. ملكة أبيض.

٩ - أوراق من حياتي، وزارة الثقافة - دمشق، ٢٠٠٣م، ترجمته إلى الفرنسية د. ملكة أبيض.

١٠ - كلمات خضر للأطفال، وزارة الثقافة - دمشق، ٢٠٠٥م، نقلته إلى الفرنسية د. ملكة أبيض.

١١ - قصائد حب، وزارة الثقافة - صنعاء، ٢٠٠٦م، نقلته إلى الفرنسية د. ملكة أبيض.

هـ - أهم ما كتب عنه:

١ - مع سليمان العيسى: مجموعة من الكتاب - دار طلاس، دمشق، ١٩٨٤.

٢ - سليمان العيسى - ثمانون عاماً من الحلم والأمل، الجرادي، إبراهيم، تحرير وتقديم - المقالح، عبد العزيز، إشراف عام، دار الرائي، دمشق، ٢٠٠٠م.

٣ - وقفات مع سليمان العيسى، أبيض، ملكة، الهيئة العامة للكتاب، صنعاء، ٢٠٠١م.

٤ - رسالة دكتوراه مقدمة إلى جامعة نابولي، إيطاليا، كالابريزي، آناماريا، ١٩٩٥م.

5 - الشاعر سليمان العيسى، الأرناؤوط عبد اللطيف، وزارة الثقافة، دمشق، 2004.

6 - سليمان العيسى في لمحات، أبيض ملكة، وزارة الثقافة، دمشق، 2008.

7 - سليمان العيسى منشد العروبة والأطفال، البقاعي، إيمان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1993.

المحتوى

الصفحة

الصفحة

الصفحة

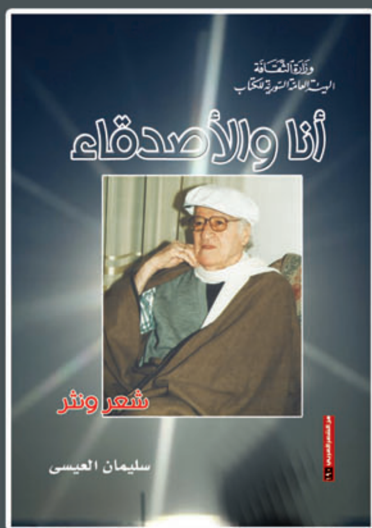
الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠١٠
عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة



www.syrbook.gov.sy

مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٠

سعر النسخة ٢٦٠ ل.س أو ما يعادلها